

أمانة ميسن و ناوايا صحاب

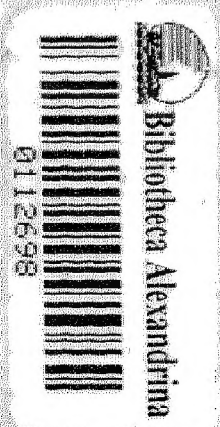
مواطنون في عزلة

صورة عن وضع الفلسطينيين داخل إسرائيل

ترجمة
فادي الكيلاني

دراسات سياسية وفكرية

٢٣



الإشراف الفني :
زهيد الحموي
الخطوط :
عبد المنعم قسيباني

مواطنون في عزلة
صورة عن وضع الفلسطينيين داخل اسرائيل

دراسات سياسية

« ٢٣ »

أُمِينَة مِينَسْ و نَاوِيَا حجاب

مواطنون في عزلة

مهاجرة عن وضع الفلسطينيين داخل إسرائيل

ترجمة: هدى الكيلاني



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٦

العنوان الأصلي للكتاب :

CITIZENS APART

A Portrait of the Palestinians in Israel

AMINA MINNS

NADIA HIJAB

I. B. Tauris & Co. Ltd
London - New York

مواطنون في عزلة : صورة من وضع الفلسطينيين داخل اسرائيل =
CITIZENS APART / أمينة مينس وناديا حجاب ؛ ترجمة
هدى الكيلاني - دمشق : وزارة الثقافة، ١٩٩٦ - ٢٨٠ ص؛ ٢٤ سم -
(دراسات سياسية ؛ ٢٣) .

١ - ٣٥٠٨ م ي ن م ٢ - ٩٢٠ ع م ي ن م ٣ - العنوان
٤ - العنوان الموافي ٥ - مينس ٦ - حجاب ٧ - الكيلاني
٨ - السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ٦٠٥ / ١٩٩٦/٥

الإله دائماً

إلى خليل...

الذي كان يبدو

نابضاً بالحياة

الذي أحب وطنه

حتى الموت

مقدمة

فيما يتسم عام ١٩٤٨ ببداية الوعي لوضع الشعب الفلسطيني ، في حين لم يحظ الفلسطينيون داخل اسرائيل إلا بأقل ما يمكن من الاهتمام ، وذلك بالرغم من حكايتهم المثيرة للمشاعر . فبين عشية وضحاها تم تحويلهم من اقلية الى اقلية داخل وطنهم الأم ، وأجبروا ، بعد عزلهم عن إخوانهم العرب ، على العيش والعمل والدراسة داخل نظام غريب عنهم .

استطاع الفلسطينيون ، أو « اقلية اسرائيل » ، كما تصفهم السلطات الرسمية الاسرائيلية ، بطريقة أو بأخرى ، من المحافظة على بقائهم ، وكذلك فعلت الاكثرية . والأمر الذي أثار قلق يهود اسرائيل هو : تضاعف عددهم أربع مرات منذ قيام دولة اسرائيل وحتى اليوم . فقد ازداد عدد الذين بقوا بعد عام ١٩٤٨ من (١٥٠.٠٠٠) نسمة تقريبا ، أي ١١ ٪ من عدد السكان ، الى ما يقارب (٧٠٠.٠٠٠) نسمة ، أي حوالي ١٧ ٪ من عدد السكان .

ومازال الفلسطينيون الذين خضعوا لتجربة « سياسة التهويد » ، بالمقارنة مع تجربة الابعاد عن الوطن ، أو الاحتلال الاسرائيلي اللاحق ، يشكلون بالتأكيد جزءا لا يتجزأ من الشعب ذاته . ولكنهم يبدون مختلفين قليلا بطريقة ما .

ورد في ملاحظتنا في رحلتنا الميدانية الأولى من أجل هذا الكتاب عام ١٩٨٧ : (كان الانطباع الأولي الأقوى هو الاختلاف بين أولئك « الموجودين في الخارج » ، وأولئك « المقيمين في الداخل » . فالذين

في الداخل يبدو أكثر قهراً من غيرهم ، وهم الى جانب ذلك أكثر حساسية ، وسرعان ما يفترضون بأنك تهاجمهم في حال صدر عنك تعليق ما . وقد أيد انطباعنا هذا من قبلناهم أثناء رحلتنا ، إذ قالوا: (يعود السبب في ذلك الى كوننا مستعمرين ثقافياً وفكرياً .)

على أية حال ، او كانت الرحلة الميدانية الأولى قد تمت في عام ١٩٨٩ بدلاً من عام ١٩٨٧ لكنت النتائج مختلفة : فمع كل يوم يمر ، يصبح الفلسطينيون في اسرائيل أكثر ثقة بأنفسهم وثباتاً في موقفهم . فإذا كان التحدي الأكبر الأول للسيادة الصهيونية على فلسطين قد أتى من الفلسطينيين في المنفى ، والتحدي الثاني من الفلسطينيين الرازحين تحت الاحتلال الاسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، فمن المرجح إذاً أن يأتي التحدي الثالث من الفلسطينيين داخل اسرائيل . ولم يتوضح الشكل النهائي الذي سيتخذه هذا الاعتراض حتى الآن ، ففي الوقت الحالي يتخذ صفة الكفاح ، من داخل النظام الى حد كبير ، من أجل الحصول على حقوق متساوية مع اليهود الاسرائيليين .

هناك حجم متزايد من الكتابات الأدبية عن موضوع الفلسطينيين داخل اسرائيل ، ولكنه هزيل بالمقارنة مع المجلدات التي تصدر عن الفلسطينيين خارج اسرائيل وتحت الاحتلال . لذا نأمل في هذا الكتاب أن نقدم قصة الفلسطينيين الاسرائيليين الى أكبر قدر ممكن من القراء . وعلى الرغم من وجود مقدار ضئيل من الروايات الشخصية على لسان الفلسطينيين في اسرائيل ، فقد تركزت معظم الكتابات حول الموضوعات السياسية .

فضلاً عن ذلك ، لقد كتب النذر اليسير عن المؤسسات والمجموعات الطوعية التي تم تأسيسها على مستوى القاعدة من قبل العديد من الفلسطينيين خلال الخمسة عشر عاماً الأخيرة ، بهدف تقديم الخدمات لجماعتهم التي عانت من التمييز العنصري والاهمال الرسمي عبر العقود الأربعة الأخيرة . كانت عملية انشاء هذه الجمعيات إثباتاً للهوية

الفلسطينية العربية ، وهي في الوقت ذاته تعزيزاً لتلك الهوية من خلال التجربة الجماعية لخدمة المجتمع . (في العقد الاخير الذي اثمر عن الانتفاضة ، حدثت خطوات مماثلة في الضفة الغربية ، وعلى نطاق أضيق في غزة) .

يحاول هذا الكتاب أن يقدم استبصاراً لحياة الفلسطينيين اليوم في اسرائيل ، وأن يبحث في كيفية مكافحة الكثيرين منهم للمحافظة على هويتهم وتطويرها من خلال المؤسسات . نأمل أن نحقق ثنائي هذين الهدفين في القسم الاول من الكتاب . ففي الفصل الاول («البقاء») :

نراجع التطور السياسي للفلسطينيين داخل اسرائيل . وفي الفصل الثاني (المحافظة على الوجود) : نبحث في جهود الفلسطينيين لانقاذ ما تبقى من مواردهم الأساسية . ويصف الفصل الثالث (الخدمة) : النشاط الذي يبذله الفلسطينيون للتخفيف من النتائج الاجتماعية السيئة للتمييز العنصري ، التي تكشف عن نفسها بوضوح في ضعف مستوى التربية والتعليم ، وانتشار تعاطي المخدرات بين الشبان ، والافتقار الى الفرص الاقتصادية . أما الفصل الرابع (العد العكسي ؟) : فيبحث في محاولات السلطات الاسرائيلية اليهودية للحد من نمو الموقف الجازم للجماعة الفلسطينية . في القسم الثاني من الكتاب ، نعرض (صورة عن فلسطيني عام ١٩٤٨) أي الفلسطينيين الذين مكثوا في فيديارهم عقب تأسيس دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ ، وذلك من خلال سرد قصص بعض الأشخاص الذين كان لهم دور فعال في بناء المؤسسات للفلسطينيين داخل اسرائيل .

وتم الحصول على مادة هذا الكتاب بشكل رئيسي نتيجة أربع رحلات ميدانية قمنا بها الى اسرائيل ، امتدت كل رحلة حوالي الشهر ، وذلك ما بين عامي ١٩٨٧ و ١٩٨٩ . تضمنت الرحلتان الأوليان مسحا واسعا النطاق للمؤسسات الموجودة والتي يتم تطويرها بواسطة الفلسطينيين ، وقمنا بجمع المطبوعات الصادرة عن الجمعيات ، فضلا عن اجراء مقابلات

مع الأعضاء المؤسسين . غطت هاتان الرحلتان العديد من المدن والقرى العربية حصراً مثل : الناصرة ، أم الفحم ، طيبة ، سخنين ، عيلبون ، مجد الكروم ، ميعليا ، موسموس ، يرقه ، باقة الغربية ، كفر كينا ، شفا عمر ، بئر السبع ، لاقية . بالإضافة الى مدن عربية - يهودية مختلطة : يافا ، عكا ، حيفا ، اللد ، والرملة . وبالنتيجة ركزنا بحثنا حول خمسة أشخاص من بناء المؤسسات وعائلاتهم الممتدة ، الذين يمكن أن تعطينا قصصهم فكرة عن الحياة التي يعيشها الفلسطينيون داخل اسرائيل . تتضمن الرحلتان الميدانيتان الأخرتان مقابلات موسعة مع أفراد تلك العائلات الخمسة والذين نعرض قصصهم في القسم الثاني من الكتاب .

من البديهي أن يملك بناء المؤسسات الخمس جميعاً احساساً قوياً بالهوية الفلسطينية ، وعلى الرغم من انتمائهم الى فئات دينية مختلفة : مسلم - مسيحي - درزي ؛ إلا أن قوميتهم علمانية . وعندما يعرفون عن أنفسهم يذكرون قبل كل شيء بأنهم عرب وفلسطينيون ، ثم تأتي بعد ذلك هويتهم الدينية . وتمثل هذه العائلات الخمس أيضاً نماذج لحياة القرية والمدينة والبادية ، مع اختلاف في الأعمار يعكس التحول عبر الأجيال . وقد واجهتهم ، خلال سعيهم لبناء المؤسسات ، خطوات مشجعة وأخرى محبطة . استخدمنا في القسم الثاني من الكتاب أسماء مستعارة ، وحذفنا بعض التفاصيل بغية حماية الرواة ، وللسبب ذاته تجنبنا أحيانا ذكر الأسماء في القسم الأول .

من المؤكد أن يكمل قسماً الكتاب أحدهما الآخر ، ولكن من الممكن قراءة كل قسم على حدة باعتباره وحدة متكاملة . ويحوي القسم الثاني من الكتاب بالتأكيد على وصف مثير لحياة الفلسطينيين داخل اسرائيل ، من خلال سماع قصص بعض الأشخاص . ونريد أن نلفت الانتباه الى أننا لا ندعي تقديم صورة عن حياة جميع الفلسطينيين داخل اسرائيل ، فكما أن هناك العديد ممن يؤكدون هويتهم ويصرون على المطالبة بحقوقهم ، هناك من ناحية أخرى العديد ممن يشعرون بالقناعة

للعمل داخل النظام ، أو يقبلون بوضعهم كما هو وفي كلا القسمين الأول والثاني من الكتاب قمنا بالتركيز على أولئك الفلسطينيين الذين يزداد عددهم بسرعة كبيرة ، والذين يتحدون النظام الاسرائيلي ليقبل بهم كفلسطينيين وأنداد مع غيرهم من افراد المجتمع .

عند الاشارة الى الفلسطينيين الاسرائيليين سنستخدم بشكل عام عبارة (فلسطينيو ٤٨) شائعة الاستعمال بين الفلسطينيين في كل مكان في اشارتهم الى ابناء بلدهم في اسرائيل . وعندما يشير فلسطينيو ٤٨ الى وطنهم الأم ، فان الكثيرين منهم يتجنبون ذكر كلمة (اسرائيل). وعندما يعودون من الخارج يفضلون أن يقولوا : أنا عائد الى البلاد (الوطن) . سنستخدم أيضا عبارة (اليهود الاسرائيليين) عند الضرورة معنا للتشويش . (تقوم الدولة اليهودية في الوقت الراهن بالفصل بين مواطنيها وتعريفهم وفق البطاقات الشخصية كيهود أو عرب) .

اثناء عملنا في هذا الكتاب تلقينا دعما ماديا ومعنويا يسرنا الاعتراف به . بادى ذي بدء تشكر السيدة حسناء مقداشي والدكتور نبيل شعث لتشجيعنا بالتفكير في هذا المشروع ومدنا بمساعدة لا تقدر بثمن في مراحله الاولى . كما لم يكن بالامكان اتمام البحث دون الدعم السخي الذي تلقيناه من السيد عبد المحسن قطان ، ومن المؤسسة التابعة لديانا تاماري صباغ .

ومن بين الكثيرين الذين ساهموا سواء بإسداء النصيحة أو بتقديم الوثائق المادية لابد في المقام الأول من ذكر الدكتور جورج ت. عابد ، والدكتور خليل نخلة ، اللذين مددا يد العون في هذا المجال . فقد اكتسبا خبرة خاصة في موضوع التطور الفلسطيني يظهر بشكل واضح في (الجمعية الخيرية) ، المؤسسة التي يديرانها باعتبارهما المدير العام ومدير البرامج على التوالي . لقد قامت مجموعة من رجال الاعمال والاكاديميين الفلسطينيين بتأسيس هذه الجمعية عام ١٩٨٣ ، وهي

تعتبر واحدة من الوكالات الرائدة التي تهتم بموضوع التطور الفلسطيني في أوروبا، ونحن بدورنا نتقدم اليهم بالشكر الجزيل للمعرفة التخصصية التي أوردونا إليها .

كما نتقدم أيضا بالشكر الى الأشخاص التالية أسماؤهم لتقديمهم التشجيع والدعم :

الدكتور عادل عفيفي ، السيدة جوليا حلو ، جون وسوهايكوك ، إضافة الى السيد إيان ويليمز ، الذي كانت لنظرته الحادة فائدة عظيمة في القسم الأول من هذا الكتاب .

وكذلك ندين بالشكر الجزيل الى كل من : أيمن ، امتياز ، رجاء جورج ، منى ، زياد ، وميساء .

أخيراً هنالك الكثير من فلسطينيين ٤٨ الذين نتقدم لهم بالشكر الكبير، وخاصة أولئك الذين سمحوا لنا بالاستشهاد برواياتهم . إذ غالباً ما تثمر الصداقة عن النصيحة والمساعدة ، وليس بوسعنا أن نذكر أسماءهم كي لا نضفي مزيداً من الصعوبات على حياتهم ، ولكننا ندين لهم بالامتنان الكبير ، وقد يكون نشرنا لقصصهم رداً جزئياً لهذا الدين .

* * *

القسم الأول

الهوية من خلال المؤسسات

- (لا أحد يعرف العقلية اليهودية كما تعرفها نحن فلسطيني ٤٨)
- فبين الضغوط التي تمارسها على السلطات هنا ، والانتفاضة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، يسيرغمون على الاعتراف بنا كشعب) •

المدرس عامر

الفصل الأول

البقاء

(الحجر الذي أهمله البنائون أصبح ، حقيقة ، حجراً للزاوية .)

سليم جبران

يقع التطور السياسي والاجتماعي لفلسطيني ٤٨ ضمن طورين رئيسيين : ما قبل عام ١٩٦٧ وما بعده . كان الطور الأول عبارة عن فترة تجزؤ وعزلة ؛ في حين اتسم الطور الثاني بالثام الشمل وإيجاد صوت سياسي . من الصعب تخيل مرارة السنوات الأولى ، حيث انقطعت العلاقات تماماً بين فلسطيني ٤٨ وإخوانهم العرب ، وكان المدياع هو مصدرهم الرئيسي للحصول على الأنباء السياسية وسماع أخبار ذويهم ، ولم تكن الكتب والصحف الناطقة باللغة العربية تصل سوى الى أيدي فئة قليلة من الفلسطينيين . وكانت المواقف العربية تجاه فلسطيني ٤٨ تتسم بالتشويش ، فبعضهم يمجّد ثباتهم وبثني عليه ، وبعضهم الآخر يرمقهم بنظرات ارتياب حذرة لتعاملهم مع الإسرائيليين . كما أشار الى ذلك أحد فلسطيني ٤٨ : (يرفض بعض العرب الذين تلتقيهم في الخارج أن يتحدثوا إلينا ، ويعتبروننا خونة لأننا نحمل جوازات سفر إسرائيلية ، حتى عندما نخبرهم بأننا فلسطينيون ولسنا إسرائيليين) .

تعتبر الفترة السابقة لعام ١٩٦٧ فترة الحكم العسكري الإسرائيلي ، وقد امتدت من نهاية عام ١٩٤٨ الى عام ١٩٦٦ . فقد أعلنت المدن

والقرى الفلسطينية (مناطق مغلقة) و (أحزمة أمان) ، وكان الخروج من هذه المناطق يستدعي الحصول على إجازات (قبل إلغاء هذه الإجراءات تماماً بسنوات قليلة ، بدأ الحكم العسكري بالتساهل بعض الشيء والسماح بحرية الحركة ، وذلك بغية توفير الفرص للاقتصاد الإسرائيلي اليهودي - الذي كان مزدهراً آنذاك - باستخدام القوى العاملة الفلسطينية الرخيصة) .

بسبب عزلة فلسطيني ٤٨ عن العالم العربي وعن بعضهم بعضاً ، ناصر الكثيرون منهم بحماسة مبدأ القومية العربية قبل عام ١٩٦٧ . ولكن هذا المثل الأعلى فقد بريقه إثر هزيمة العرب في حرب حزيران عام ١٩٦٧ ، التي مكنت إسرائيل من احتلال الضفة الغربية - التي كانت بيد الأردن منذ عام ١٩٤٨ - وقطاع غزة الذي كان بيد مصر ، وشبه جزيرة سيناء المصرية ، ومرتفعات الجولان السورية .

ذكر المدرس (عماد) من الناصرة ، البالغ من العمر الثامنة والأربعين عاماً :

(مثل العديد من أبناء جبلي ، آمنت بأهداف ناصر ، وبالقومية العربية . آمنت بخطاباته وبكل كلمة سمعتها من مذياع القاهرة ، كان العالم العربي سيحقق لنا الحرية . لم يعد ذلك حلم الجيل القديم فقط ، بل كان سيصبح حقيقة . ثم أتى عام ٦٧ ، وكان صدمة لي ولشعبنا ككل) .

كانت حرب عام ١٩٦٧ نقطة تحول بالنسبة لفلسطيني ٤٨ ، أمثال عماد :

(لقد غيرت طريقة تفكيري بشكل جوهري لأنها جعلتني أواجه حقيقة وضع شعبي : إننا نقف بمفردنا ، علينا أن نكافح معتمدين على أنفسنا . علينا أولاً أن نحرر أنفسنا من مخاوفنا ونعتمد على إمكاناتنا .

فأنا مواطن فلسطيني أحمل هوية ومصرياً منفصلين عن بقية العالم العربي) .

ومع ذلك ، وبالرغم من أن الكثيرين قد بدؤوا يميزون بين هويتهم الفلسطينية المحددة والهوية العربية بشكل عام ، إلا أن فلسطيني ٤٨ يستعملون عفوية كلمة (عربي) عندما يتكلمون عن شيء يخصهم ، مقابل كلمة (يهودي) . وعلى الرغم من مرارة هزيمة عام ١٩٦٧ ، إلا أن النذر اليسير منها قد وجه نحو الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وما زال الكثيرون يحتفظون بصورته على جدران منازلهم .

نجم من حرب ١٩٦٧ نتائج أخرى أيضاً ، فبعد أن وضعت إسرائيل يدها على الضفة الغربية ، أصبح الاتصال ممكناً عبر (الخط الأخضر) - الخط الفاصل بين إسرائيل والأردن بعد حرب عام ١٩٤٨ (إذ لم يكن لإسرائيل آنذاك حدود ثابتة) . وتمكن فلسطينيو ٤٨ مرة ثانية من لقاء ذويهم في الضفة الغربية وغزة ، وعائلاتهم في المنفى لتبادل المعلومات والأفكار . وأصبح مؤخراً عدد من فلسطيني ٤٨ أساتذة في جامعات الضفة الغربية (على الرغم من حرص سلطات الاحتلال الإسرائيلية على منحهم عقوداً لمدة عام واحد فقط قابلة للتجديد) ، والتحق بعضهم الآخر للدراسة في معاهد الضفة الغربية ، وما يزال بعض فلسطيني ٤٨ يمرون بمرحلة إعادة اكتشاف ، فمنذ حوالي ثلاث سنوات قام « نادي الهدف الثقافي » في مدينة « أم الفحم » بتنظيم رحلة لمجموعة من النسوة وليلة يوم واحد فقط إلى الضفة الغربية ، ولدهشتهم العارمة اكتشفن ، كما ورد على ألسنتهن ، أن الناس هناك ليسوا « همجيين » كما جعلتهم وسائل الدعاية الإسرائيلية يصدقون ذلك .

قبل اندلاع الانتفاضة في ٩ كانون الأول عام ١٩٨٧ ، كانت آراء فلسطيني ٤٨ حول أبناء الضفة الغربية وقطاع غزة مختلفة تماماً ، وإليك بعض الأمثلة : (ليسوا سوى تجار وفلاحين جهلة ، يأتون إلى منطقتنا ويتاجرون مع الإسرائيليين) ، (إنهم يملكون نظاماً ثقافياً عربياً

أفضل وإمكانات بحث أفضل) . (إنهم ليسوا مقاتلين حقيقيين ، بل مجموعة من الصبية يرشقون الجنود بالحجارة ، الأمر الذي لن يثمر شيئاً) . (نحن نكنّ لهم احتراماً عميقاً ، ونتعلم منهم الكثير ، كما هو الحال بالنسبة إليهم) .

وبعد الانتفاضة ، ازداد شعور فلسطيني ٤٨ بالفخر والاحترام تجاه أبناء بلدهم الذين يزرعون تحت الاحتلال ، كما ورد على لسان أحدهم : (يجب علينا أن ندعم إخواننا في الضفة الغربية وغزة ، لأن نضالهم هو نضالنا أيضاً) . قام العديد من سكان القرى والمدن بتشكيل لجان لجمع الأموال والبضائع لدعم الانتفاضة . واحتفل معظم فلسطيني ٤٨ « بيوم السلام » في ٢١ كانون الأول لإظهار تضامنهم مع أولئك الرافضين تحت الاحتلال . وأقيمت مظاهرات هائلة وذكر أبناء الناصرة متباهين : (ليتكم شاهدتم المظاهرة التي قمنا بها يوم السلام تضامناً مع أبناء الضفة الغربية وقطاع غزة ، كانت من أكبر المظاهرات وأكثرها نجاحاً وتأثيراً في البلد) .

في يافا قال الناس : (كان عليكم أن تشهدوا المظاهرة التي قمنا بها تضامناً مع إخواننا ، كانت من أكبر المظاهرات وأكثرها تأثيراً ، ولم يشهد أحدٌ لها مثيلاً) . في الواقع ، كانت القصة ذاتها تتردد في أية قرية أو مدينة في منطقة ٤٨ يزورها المرء في أوائل عام ١٩٨٨ : وهي أن مظاهراتهم كانت أكبر المظاهرات التي قامت تضامناً مع الفلسطينيين الرافضين تحت الاحتلال . وفي حين لا نندهش لحدوث انقلاب كبير في مدينة تتسم بصفة سياسية مثل مدينة الناصرة ، نجد أن ما يلفت الانتباه هو أن المظاهرات التي أقيمت في ذكرى « يوم السلام » جذبت جماهير غفيرة من مدن لا تعتبر سياسية حتى اليوم مثل المدن المختلطة كاللد ويافا ، الأمر الذي يكشف عن مدى التغير الحاصل بين فلسطيني ٤٨ .

ذكر مراقب للمظاهرات التي اندلعت في اللد ويافا :

(انضم الناس إلى المظاهرة بشكل عفوي ، حتى النساء والأطفال . في الواقع كانت أعلى الصيحات والهتافات تنبعث من النسوة ، حتى أن بعضهن حاولن أن يرشقن الجنود بالحجارة . كنّ يقفن الرجال قوة ، وكلما ازدادت قسوة رجال الشرطة تجاههن ، كلما اشتدت مقاومتهن . وعندما تمّ القبض على ست فتيات ، أصيب الشيوخ بالذعر عند سماعهم النّبأ ، وهرعوا للتوصل إلى رجال الشرطة للإفراج عنهن ، قائلين بأن قضاء الفتيات الليل بعيداً عن منازلهن يعتبر أمراً مخالفاً للقيم العربية ، وتم أخيراً الإفراج عنهن . هل يمكنك أن تتخيلي أن رجال الشرطة قد أوقفوا صبياً يبلغ الخامسة من العمر ؟) .

امضى فلسطينيو ٤٨ عدة سنوات من العمل الشاق قبل التوصل إلى تكتل حاسم من الوعي السياسي الذي مدّهم بالقدرة اللازمة لتنظيم مظاهرات كهذه أو الدعوة إلى إضرابات عامة عملت على شلّ القطاع العربي في إسرائيل بشكل كامل وذلك للمطالبة بحقوقهم في الحصول على التعليم أو الرعاية الصحية . وكما قال المرحوم (إميل توما) عام ١٩٨٥ ، إنه في اليوم الذي يلي إنشاء دولة إسرائيل : (غادرت البلاد جميع الفعاليات الوطنية العربية التقليدية ، فضلاً عن المفكرين المشهورين وأصحاب المهن ، ولم يتبق سوى أقلية وطنية عربية لا تتجاوز ١٥٠.٠٠٠ نسمة ، ويتألف معظمهم من فلاحين وعمال وأفراد الطبقة المتوسطة . وتحت الظروف السائدة ، يطرح السؤال التالي نفسه : كيف تمكنت هذه الأقلية العربية الفلسطينية من المحافظة على بقائها ؟) في ما تبقى من هذا الفصل سنلقي الضوء على الأحداث الرئيسية الهامة في الطريق الذي يؤدي إلى التعبئة والوعي السياسي .

الاتجاهات السياسية ما قبل عام ١٩٦٧ :

في العقود الأولى التالية لإنشاء دولة إسرائيل ، وُجد اتجاهان سياسيان فلسطينيان مستقلان رئيسان . الأول : هو الحزب الشيوعي

الإسرائيلي ، وكان معظم أعضائه من العرب . وقبل عام ١٩٤٨ كان هناك الحزب المؤيد للسوقيات تماماً ، والذي كان يتمتع بصفة قانونية لأنه بشكل رئيسي يشتمل على عضوية يهودية وآمن هذا الحزب بالدفاع من حقوق الفلسطينيين ضمن النظام الإسرائيلي . أما الاتجاه الثاني فهو اتجاه القوميين العرب ، الذين لم يَظْمُوا ضمن حزب سياسي . وقام بعضهم بتأسيس « حركة الأرض » المؤيدة للناصرية في أوائل عام ١٩٦٠ ، ولكنهم لم يحصلوا على ترخيص قانوني . ورفض أعضاء حركة الأرض القبول بالنظام المفروض على الفلسطينيين ، على الرغم من إقرار دستورهم الخطة التقسيم التي حددتها الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ . وبالنسبة لم يتمكنوا من التنظيم بشكل علني كما فعل حزب الشيوعيين .

هذان هما الاتجاهان السياسيان غير الصهيونيين . في الوقت ذاته قامت المؤسسة السياسية اليهودية الإسرائيلية بتقديم القوائم العربية جنباً الى جنب مع قوائمها الخاصة في الانتخابات الوطنية . ومن خلال استخدام حكيم لاسلوب الترغيب والترهيب ، تمكن هؤلاء المرشحون، الذين تم اختيارهم بشكل رئيسي من القيادة التقليدية التي تعتمد على العائلة الممتدة الأطراف ، من اكتساب حوالي ٧٥ ٪ من الأصوات العربية في السنوات الأولى . وصوت العرب بشكل فعلي لصالح حزب العمل الإسرائيلي الذي كان يعتبر في تلك السنوات الحكومة الدائمة للدولة .

حتى اليوم ما يزال هذان الاتجاهان الواسعان غير الصهيونيين قائمين . في عام ١٩٦٥ ، تمكن الحزب الشيوعي الإسرائيلي ، الذي أطلق عليه آنذاك اسم (راكاح) أو القائمة الشيوعية الجديدة ، من اجتذاب ٢٣ ٪ من الأصوات العربية . وفي عام ١٩٧٥ تمكن الشيوعيون ، بدعم حلف الخريجين المستقلين على أنه الجبهة الديمقراطية في الناصرة ، من السيطرة على مجلس الناصرة البلدي (ضمت الجبهة الديمقراطية حركة التجار وأصحاب المهن وحلف طلاب المدرسة الثانوية) . كانت هذه نقطة تحول كبيرة في شؤون فلسطيني ٤٨ . بعد ذلك بفترة قصيرة

عمل حزب (راكاج) على التحالف مع قوى أخرى غير صهيونية ليشكل الجبهة الديمقراطية من أجل السلام والمساواة .

كثيراً ما يتعرض الشيوعيون للانتقاد بسبب موقفهم « المعتدل جداً » ، ولقيامهم بتهديد المصالح الفلسطينية وذلك بغية المحافظة على وضعهم القانوني . فمن المؤكد أن الأشخاص الذين فقدوا ديالهم وأرضهم غير قادرين على رؤية ميزات المحافظة على إخلاصهم للدولة أو العمل ضمن النظام الإسرائيلي الذي اقتلهم من جذورهم وعمل على اضطهادهم . لذلك فإن قدرة الشيوعيون على التنظيم بشكل قانوني ، والأهم من ذلك كله قدرتهم على إصدار مطبوعاتهم باللغة العربية ، كانت العامل الرئيسي في المحافظة على هوية فلسطيني ٤٨ . ووعيمهم خلال العقدين الأوليين . فصحيفة (الاتحاد) الصادرة في حيفا بإشراف الكاتب الفلسطيني اللاح « إميل حبيبي » ، والمجلة الأدبية (الجديد) . كانتا ولسنوات عديدة المادة الوحيدة المتوفرة لفلسطينيين ٤٨ الناطقة بلغتهم الأم .

كما ذكر الشاعر « عابد » ، البالغ من العمر السادسة والأربعين عاماً :

(بدأ إدراكي يتفتح في سن مبكرة لأن والدي ، الذي كان تاجراً ، كان يعمل مع الشيوعيين . حاول الشيوعيون أن يغيروا مواقف الناس بزيارتهم للقرى وتلقين أهلها مبادئ القومية ، فكان لهم دور كبير في إثارة المشاعر الوطنية . وبدأت الشيوعية تؤثر بشكل فعلي على تفكيري عند نهاية دراستي الثانوية ، وليس قبل ذلك ، ولم يكن تأثيرها سياسياً فحسب ، بل أدبياً أيضاً . فبدأت بكتابة الشعر منذ عام ١٩٥٥ تقريباً ، وكانت قصائدي تدور حول الأرض والفلاحين مع دلالات سياسية ، كما هو حال كل من كان يكتب الشعر في تلك الأيام) .

قال الدكتور عارف :

(اذكر وانا طفل صغير بانني كنت ارافق ولدي لحضور بعض الاجتماعات السرية مع الشيوعيين ، وعندما بلغت الثالثة عشر عاماً ذهبت في زيارة الى معسكر صيفي في موسكو ، وكان لتلك الزيارة الاثر الكبير في اطلاعي على أشياء كثيرة . ثم نما إدراكي بشكل أوسع عندما ذهبت الى المدرسة الأرثوذكسية في حيفا . بالنسبة لي كانت حيفا مهد القومية العربية ، وتعلمت هناك الكثير عن قضيتنا) . كان بوسع الفلسطينيين في الحزب الشيوعي أن يعملوا ويصدروا مطبوعاتهم بشكل قانوني ، في حين ما زال العرب القوميون يتعرضون للمضايقات المستمرة .

يصف « جريس » ذلك بقوله :

(عند نهاية العقد الأول الذي تلى نشوء دولة إسرائيل ، أي في صيف عام ١٩٥٨ ، اتخذت المعارضة [القومية] مظهراً متميزاً في شكل منظمة سياسية (الجبهة العربية) ، أو ما أطلق عليه فيما بعد الجبهة الشعبية) التي كان هدفها الواضح هو مقاومة السياسة القمعية التي تمارسها الدولة على مواطنيها العرب . وعلى الرغم من الانقسام الذي حصل في هذه الجبهة فيما بعد ، إلا أنه لم يكن بحد ذاته مفيداً للإسرائيليين بأي حال من الأحوال ، لأنه أدى الى ظهور منظمة جديدة ذات طابع قومي عربي وهي « منظمة الأرض » أو « حركة الأرض » . وفي النهاية كان على السلطات أن تتعامل مع « حركة الأرض » فقط عندما أصدرت مرسوماً عسكرياً يقضي بحلها . (١٩٧٩ - صفحة ٣٢)

كان هناك « جبهة شعبية » قصيرة الأجل وجدت بين الشيوعيين من جهة والقوميين العرب من جهة ثانية ، استقر بعدها الطرفان على تناقض غريزي يستمر حتى اليوم . وفي عام ١٩٥٩ بدأت جماعة « حركة الأرض » بإصدار صحيفة ، أغلقت عام ١٩٦٠ (ولكنهم تابعوا ، عبر منفذ قانوني ، إصدار منشورات فردية تحمل كل منها اسماً أولياً مختلفاً ، وترتبط جميعها باسم ثانٍ مشترك) . في منتصف عام ١٩٦٠ شكلت الجماعة حزباً سياسياً ولكنه الغي خلال أيام قليلة . وتعرض قادة

« حركة الأرض » للاضطهاد الشديد ومنهم : صالح برانسي ، ومنصور قردوش ، إذ أمضى الأول قرابة العشر سنوات في السجن .

عادت مبادئ « حركة الأرض » للظهور ثانية في حركة « أبناء البلاد » في مدينة أم الفحم ، التي أعلنت عن بدايتها بشكل قائمة انتخابية في انتخابات المجلس البلدي . على الرغم من أن أعضاء حركة « أبناء البلد » رفضوا الاشتراك في الانتخابات القومية الاسرائيلية (كما فعل أعضاء حركة الأرض سابقاً) إلا أنهم شاركوا في اقتراعات المجلس البلدي .

الاتجاهات الشخصية ما قبل عام ١٩٦٧ :

من المرجح أن العقبة الكبرى والرئيسة التي واجهت القوميين والشيوعيين في محاولتهم لتحريض الوعي السياسي هي طبيعة (النكبة) كما يقول الفلسطينيون عندما ينسرون إلى ضياع فلسطين عام ١٩٤٨ . والنقطة الأكثر أهمية هي أن المعاناة كانت فردية وليست تجربة جماعية . ففي ذلك الوقت ، بعد أن تعرض الفلسطينيون للتجزئة والضياع والعزلة ، افتقروا إلى نظرة شمولية للمضامين القومية للكارثة التي حلت بين ظهراينهم ، كما كانت تعوزهم الوسيلة لتحديد رد فعل قومي النطاق . وطبعت الصدمة الناجمة عن الهزيمة الجيل الذي رافقها عام ١٩٤٨ ، والذين تراوحت أعمارهم ما بين الثلاثين والأربعين عاماً ، بطابع الخوف والعجز ؛ وبالتالي انتقل هذا الخوف والسلبية التي نجمت عنه إلى أطفالهم ، ولكن ليس على أساس دائم . فعندما بلغ هؤلاء الأطفال الثلاثين والأربعين عاماً ، أصبحوا جيلاً يملك المعرفة الكافية لتطوير تقنية رد الفعل .

هناك نوع من الانشقاق بين جيل الـ ٤٨ والجيل الشاب التالية التي تبنت لهجة اتهامية تجاه الآباء ، وكانت شكواهم الدائمة ، (لم يفعلوا شيئاً ، لقد جلسوا في الخلف ، وتركوا كل شيء يحدث وانتظروا العالم ليحل لهم المشكلة) .

من ناحية أخرى ، هناك من يتعاطف معهم ، قال المدرس (عامر) ،
البالغ من العمر السادسة والأربعين عاماً ، والذي أجبرت عائلته على
الرحيل من قريتها الى الناصرة :

(صحيح انني عندما كنت يافعا ، كان إدراكي لمعضلتنا محدوداً
جداً ، إذ لم يكن الكبار يتكلمون عنها بدافع من الخوف والجهل . ولكنني
لم أدنهم في يومٍ من الايام وما أزال حتى الآن ، بل على العكس ، كلما
يزداد إدراكي للأمور يزداد تعاطفي معهم ، وإحساسي العميق بفداحة
خسارتهم وشدة معاناتهم . وتوهم لم يحاربوا فهذا ليس في الواقع
خطأهم ، لأنهم لم يملكوا الوسيلة لذلك) .

يشعر الجيل الأكبر بالألم لاتهامه بالسلبية ، ويفخر بنشاط الجيل
الجديد . قالت جماعة من المسنين رداً على الانتقاد الذي وجه اليهم :

(لا يعلم جيل الشباب ما معنى أن نجرد بوحشية من أرضنا
ومنازلنا . ولا يعلمون ايضاً ما معنى أن نعيش تحت حكم عسكري
يمنعنا من الانتقال من مكان الى آخر دون نصريح . لقد كافحنا بطريقتنا
الخاصة : بمقاومة رجال الشرطة والجنود ، بإنشاد الأغاني الوطنية في
الأعراس والأعياد ، وبالاستماع الى الشعراء القوميين . لم يكن يتسنى
لادراك الجيل الجديد أن ينمو بعيداً عن تجربتنا . لم تكن نملك ما يملكونه
اليوم ، لقد تغيرت الظروف والقناعات ، وكذلك الحال بالنسبة لأساليب
النضال) .

قال المدرس (عماد) من الناصرة ، البالغ من العمر السادسة
والأربعين عاماً يصف تجاربه مع ذويه :

(كان والذي يملك أرضاً في « معلول » ثمر زيتوناً وذرة ، وعندما
بدأت المتاعب عام ٤٨ ، ذهبنا الى الناصرة أملين استقرار الأوضاع
قريباً ، ولكن هيهات ، عندما كنت فتياً ، كنت أستمع الى جدي يتحدث

حديث الذكريات عن أرضه وداره ، واذكر انه كان يشتم 'يهود وبهاجمهم لما اقترفته أيديهم . فالخوف لم يلجم جدي كما فعل لوالدي الذي كان يحذرنا باستمرار من التذمر علناً خوفاً من السلطات ومن المتعاونين معهم .

وعلى الرغم من أن جيل والدي قد شهد عمليات القزو وتجريد الممتلكات والمجازر ولكنهم اتسموا بالانهازمية . فلم يفكروا على الإطلاق بأن يكافحوا معتمدين على إمكانياتهم الشخصية وذلك لأنهم لا يملكون الثقافة ولا المعرفة . في بادئ الأمر ، انتقل هذا الخوف الى أبناء جيلي ، وكان يطبق بظلاله القائمة علينا من كل حذب وصوب حتى أنه لم يعد أحد يجرؤ على التفوه بكلمة (فلسطيني) ، أو حتى حمل جريدة (الاتحاد) علناً في الطريق كما يفعلون اليوم ، إذ كان يوقف على الفور ويتعرض للاستجواب من قبل الجنود .

كان جيلي يعتبر الجيل الانتقالي ، ويعاني جيل اليوم أيضا ولكن بشكل مختلف ؛ فهم من جهة يملكون مزايا لم تكن لدينا من قبل ، فعلى الرغم من أن النظام التربوي العربي لا يتساوى إطلاقاً مع النظام اليهودي، إلا أن التسهيلات التي يتمتع بها اطفال اليوم لم تكن متوفرة لنا . بالإضافة الى ذلك ، فأنا أقدم لهم ما عجز والداي عن تقديمه لي : الادراك والشجاعة تجاه هويتهم كفلسطينيين ، وتجاه تراثهم . وهم يملكون حرية اللجوء الى عدد من الصحف والكتب ووسائل الاعلام التي تطلعهم باستمرار على مصير الفلسطينيين في الخارج ، ولديهم أيضا وسائل ترفيه لم أكن أحلم بها . من ناحية ثانية ، فإن طموحاتهم تفوق طموحاتنا . فبعد أن يغادروا المدرسة الثانوية يجدون أنفسهم في مواجهة معاناة العالم الخارجي : التمييز العنصري ، فقدان فرص العمل ، الاذلال ، عدم التساوي في الحقوق ؛ ولكن الخوف لم يهزمهم ولم يتراجعوا في هدوء ، بل يتساءلون : « لم ننتهي بهذا الشكل ؟ » ويصبحون أكثر حماسة للنضال من أجل حقوقهم وإثبات هويتهم .

عزز هذه النظرة موظف البلدية (نضال) البالغ من العمر ٤١ عاماً ،
عندما قال :

(يتمتع شبابنا اليوم بقوة أكبر لأنهم فلسطينيون منذ اللحظة الأولى لولادتهم ، وقادرون أيضاً على القيام بأشياء لم نستطع نحن القيام بها . إذ يمكنهم على سبيل المثال مواجهة أساتذتهم وتحديهم عندما يحاولون تلقينهم مواضيع تنكر هويتهم . لم يكن ذلك ممكناً في أيامي ، لأننا كنا سنعاقب بشدة ليس من قبل الأساتذة فحسب ، بل من قبل ذوينا . يوجد اليوم مراكز ثقافية نشجع فيها على تقديم المسرحيات والموسيقى والشعر الفلسطيني - الشيء الذي لم نقم به في الماضي ، ليس لأننا لم نجرؤ على ذلك فحسب ، بل لأننا لم نملك الوسيلة أيضاً) .

لم نعد ندهش اليوم إذا سمعنا أن بعض الطلاب الفلسطينيين يرفضون المشاركة في الاحتفال بيوم استقلال إسرائيل . ذكرت إحدى المعلمات أن تلميذاً صغيراً يبلغ الثامنة من عمره قد نعتها بالكاذبة عندما حاولت أن تلقنهم بعض المعلومات عن يوم الاستقلال ، وقالت وهي تبترس : (لم أغضب عندما قال لي ذلك ، بل على العكس كنت أرغب بتقبيله) .

الاتجاهات السياسية منبعد عام ١٩٦٧ :

في عام ١٩٧٧ تأسست الجبهة الديمقراطية من أجل السلام والمساواة DFPE بمبادرة من الحزب الشيوعي (رايكاح) ، وقد تضمنت هذه الجبهة (النور السود) برئاسة (شاولي بيتون) وبعض رؤساء مجالس البلديات العرب .

وكما ذكر (جريس) ، أثك قرار (رايكاح) بتوسيع قاعدتها وتحالفها مع غير الشيوعيين نتيجة لازدياد عدد العرب الذين لم يقبلوا التصويت في الكنيسة . ففي دورة الكنيسة السابعة عام ١٩٦٩ تلفت نسبة العرب الذين يحق لهم التصويت ولم يمارسوا هذا الحق ١٦٪ من

العدد الإجمالي ، وارتفعت النسبة الى ٢٠٪ في دورة الكنيست الثامنة عام ١٩٧٣ ، وأصبحت ٢٤ر٥٪ في الدورة التاسعة عام ١٩٧٧ . نوه (جريس) بأن [(راكاح) أعادت النظر في سياساتها السابقة وعدلت إحداها فأصبحت الآن توافق على تشكيل ائتلافات مؤقتة مع المجموعات القومية الأخرى التي تمتلك النفوذ في الشارع العربي) . شاركت الجبهة الديمقراطية في انتخابات الحكومة المحلية في تشرين الثاني ١٩٧٨ وحصلت على رئاسة عدد من المجالس العربية .

في غضون ذلك ، وكما ذكر سابقا ، ظهرت من جديد لدى حركة أبناء البلد « - التي شكلها (محمد كيوان) في بداية السبعينات بشكل قائمة انتخابية في أم الفحم - ذات المعتقدات التي اعتنقتها في السابق « حركة الأرض » . وكما أشار (جريس) لم تسعى المنظمات المتعددة التي شكلتها حركة « أبناء البلد » في قرى مختلفة الى الاتحاد بشكل تنظيمي كي لا تتعرض للانحلال كما حدث مع حركة الأرض في منتصف الستينات . وبينما أكدت « حركة الأرض » على الوحدة العربية فقد أكدت حركة « أبناء البلد » على الهوية الفلسطينية . وفي حين دعا الشيوعيون إلى اللجوء إلى استعمال القوة والعنف ضمن الإطار القانوني، فقد عارضت حركة « أبناء البلد » ذلك ولم تصوت لصالح الكنيست في الانتخابات العامة . على أية حال ، كان هناك فروق اقلية في الرأي حول الموقف الذي يجب أن تتخذه الحركة إزاء الحكومة ، وحول المشاركة في الانتخابات الكنيست ، الأمر الذي أحدث انشقاقا في الحركة ، وكما حدث مع أعضاء « حركة الأرض » من قبل ، فقد وضع أفراد حركة « أبناء البلد » تحت الحجر الإداري (السجن دون محاكمة) أو تم اعتقالهم ، وبعد الانتفاضة أطلقت صحيفتهم (الراية) بعد مرور عامين فقط على صدورها .

عندما اشتد عود الاتجاهات القومية توقفت الأحزاب الإسرائيلية الصهيونية على استعمال القوائم العربية ، وأضافت أسماء المرشحين العرب إلى قوائم الحزب الإسرائيلي اليهودي . ولكن بحلول الثمانينات

لم تجتذب هذه الخطوة سوى ٤٠٪ من الأصوات العربية ، بالمقارنة مع النسبة الحاصلة في السنوات السابقة والبالغة ٧٥٪ .

حدثت نقطة التحول الرئيسة في التطور السياسي لقضية فلسطيني ٤٨ في ما بين عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ . إذ أتى (يوم الأرض) بعد وقت قصير من نجاح حركة (راكاح) ، برئاسة الشاعر الفلسطيني توفيق زياد ، في الحصول على المجلس البلدي في الناصرة في تشرين الثاني عام ١٩٧٥ . فقامت حركة (راكاح) و (لجنة الدفاع عن الأرض العربية) - التي شكلها قادة المجلس البلدي العربي - بتنظيم (يوم الأرض) ، فكان صرخة الاحتجاج الكبرى الأولى التي أطلقها الفلسطينيون ضد الاغتصاب اليهودي للأرض العربية ، إذ قررت الدولة هذه المرة أن تأخذ أكثر من ٢.٠٠٠ دونم (٤ دونمات = ١ أكر) من قرية سخنين ، و ٣.٠٠٠ دونم من قرية كفر قاسم .

في الواقع ، رأى بعضهم أن خطوة السلطات الاسرائيلية لمصادرة المزيد من الأراضي العربية ماهي إلا رد فعل على حصول الشيوعيين على بلدية الناصرة عام ١٩٧٥ - وهذه الخطوة ، وفق وجهة النظر الإسرائيلية ، تحتم فرض مزيد من السيطرة على الجليل حيث يشكل العرب نصف السكان تقريباً . على أية حال ، فإن رد الفعل الإسرائيلي هذا قد زاد من الوضع المتطرف لفلسطيني ٤٨ . وكانت حصيلة المظاهرات التي جرت في ٣٠ آذار عام ١٩٧٦ مقتل ستة أشخاص من العرب واعتقال العديد منهم . ومنذ ذلك الوقت ، يحتفل الفلسطينيون في كل مكان بالذكرى السنوية (ليوم الأرض) ، واعتبرته الحكومة الفلسطينية في المنفى ، منظمة التحرير الفلسطينية ، يوم عطلة رسمية ، فأصبح اليوم التاريخي الأول الذي قدمه فلسطينيو ٤٨ الى باقي أفراد شعبه .

استعداد (جريس) ذكرياته :

(نتيجة للاضطراب الذي حدث في ذلك اليوم ، أعادت الحكومة الاسرائيلية النظر ثانية في سياساتها نحو العرب في اسرائيل ، وقررت

في نهاية شهر آيار عام ١٩٧٦ أن تنهج سياسة (دمج) العرب في المجتمع الاسرائيلي والنشاط الحكومي ككل « على أساس المساواة في الحقوق الوطنية كاملة مع الأخذ بعين الاعتبار استقلالهم الديني والحضاري » . إلا أن رؤساء المجالس رفضوا ذلك القرار ، واجتمع وفد يمثلهم مع رئيس الوزراء رابين في نهاية الشهر ذاته . احتج الوفد ضد القرار ، وفي نهاية شهر حزيران قدم مذكرة يطلب فيها أخذ « حقيقة الهوية القومية العربية » بعين الاعتبار) .

كانت تلك دلالة على نزعة التغيير الجذرية لدى اللجنة الاقليمية لرؤساء المجالس المحلية العربية ، وهي شبكة تتألف من رؤساء المجالس البلدية العربية المنتخبة في إسرائيل (يوجد الآن أربع مجالس بلدية عربية وخمس وخمسون مجلساً محلياً منتخباً) . وكما ذكر (الحاج) عام ١٩٨٨ ، فقد استغرق تأسيس هذه الشبكة عدداً من السنوات . كانت في سنواتها الاولى تتلقى ، وبشكل يدعو للسخرية ، الدعم من الحكومة اليهودية التي حاولت إقناع رؤساء بلديات ذوي شخصيات مهزوزة بالانضمام الى المجالس . وكان يدير بالطبع معظم هذه المجالس في ذلك الوقت ممثلون عن التجمعات العائلية التقليدية ، كما جرت العادة منذ ايام الحكم العسكري .

وكما ذكرت صحيفة القدس (النسخة الدولية الصادرة في ٢٣ كانون ثاني عام ١٩٨٩) فقد اجتمعت اللجنة الاقليمية عشية أول إضراب (ليوم الأرض) في آذار عام ١٩٧٦ ، ولكن نتيجة للضغوط التي مارستها السلطات لم يصوت لصالح الاضراب سوى خمسة أشخاص من رؤساء المجالس (ومن ضمنهم بالطبع المحرض الرئيسي : توفيق زياد ، رئيس بلدية الناصرة) . كشف التحول الكبير الذي حدث في (يوم الأرض) عن تفكير فلسطينيي ٤٨ في مصالحهم وأين توجد تلك المصالح . فبحلول عام ١٩٨٠ أصبح الكثير من المجالس تحت سيطرة الجبهة الديمقراطية والهيئات الفلسطينية المستقلة الأخرى ؛ وأصبح يطلق على اللجنة الاقليمية : (مجلس الشعب الحقيقي للفلسطينيين في إسرائيل) ، الذي

قام بدوره بتشكيل لجان متخصصة في أمور الأرض ، والصحة ، والأوضاع الاجتماعية ، والثقافة ، والمدن المختلطة ؛ بالإضافة الى تنظيم مجموعات كبيرة من القوى التي تمثل حاجات فلسطينيي ٤٨ . من الجدير بالذكر ان حوالي نصف عدد القرى العربية التي من المفترض أن تنتخب ممثلين عنها قد مارست فعلا هذا الحق ؛ فلو قامت جميع القرى العربية اليوم بانتخاب مجالس تمثلها ، لعزز ذلك من مكانة اللجنة الى حد كبير (الامر الذي يفسر دون شك سبب غياب تلك المجالس في العديد من القرى) .

استمرت شبكة رؤساء البلديات بممارسة مهامها بشكل فعال جداً ، على الرغم من أنها تضم أفراداً مختلفين في المعتقدات السياسية ، فهي تشمل : الشيوعيين ، والقوميين ، والمسلمين ، والمحافظين ، والاعضاء الصهيونيين الملتزمين . كما ذكر (روحانا) :

(لقد تمكنت اللجنة من اكتساب احترام الشعب العربي من خلال إظهار وحدتها على الرغم من الانقسامات السياسية العميقة داخل صفوفها ، ونالت منصب القيادة القومية لأنها تمثل الاهتمامات اليومية ... ولا تتمتع أية سلطة أخرى ، حتى الحكومة الاسرائيلية ، بهذا المنصب داخل المجتمع العربي) .

في السابق ، أشار (جريس) بأن اللجنة الاقليمية :

(قد قامت بتأسيس « منظمة » عربية ، ما تزال السلطات الاسرائيلية ، المعروفة بحساسيتها التقليدية والمكشوفة تجاه نشوء أية منظمة قومية عربية في اسرائيل ، تجد صعوبة كبيرة في التأثير عليها . ولا يعود السبب في ذلك الى أن المجالس البلدية والمحلية هي هيئات رسمية قانونية فحسب ، بل أيضا لان وجودها جوهري من أجل التنظيم اليومي السليم للمدن والقرى العربية ، ويتحتم على السلطات بالضرورة أن تتعامل معها) .

بحلول عام ١٩٨٧ ، كانت اللجنة الاقليمية تصعد من حدة الاحتجاجات الموجهة ضد سياسة التمييز في المجالين الاجتماعي والاقتصادي . ودعت المجالس المحلية العربية الى اضراب ليوم واحد في ٥ ايار احتجاجا على انخفاض الميزانيات المخصصة للمجالس . وقال رئيس اللجنة الاقليمية (ابراهيم نمر حسين) . بأن هذا الاضراب كان (طلقة الافتتاح في حملة نشنها للضغط على السلطات الاسرائيلية لتنفيذ تعهداتها فيما يتعلق بتحسين السكن ، وتوفير تسهيلات ثقافية أفضل ، وزيادة الميزانيات المخصصة للبلديات) .

(صحيفة الفجر - ١٠ ايار ١٩٨٧)

في أعقاب اضراب الخامس من ايار ، وبالتحديد في ٢٤ حزيران عام ١٩٨٧ ، أعلن عن اضراب « يوم المساواة » الذي استأثر باهتمام عالمي ، واعتبر اكبر احتجاج اطلقه فلسطينيو ٤٨ ضد الشروط الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشون فيها . وفي الاول من ايلول دُعي الى اضراب شامل احتجاجا على الأوضاع في المدارس . فقد كانت عملية التفسير الجذري للفلسطينيين داخل اسرائيل تسير بسرعة كبيرة .

في الواقع ، ما لم تنفجر الانتفاضة في ذلك الوقت ، كان من الممكن أن يحدث اصطدام عنيف في الرغبات بين الاقلية العربية والاكثرية اليهودية . ولكن انفجار الانتفاضة حول انتباه فلسطينيي ٤٨ فوضعوا موضوع دعم اخوانهم الفلسطينيين الرازحين تحت الاحتلال في مقدمة الاولويات . وتجسد هذا الدعم في اضراب يوم ٢١ كانون الاول عام ١٩٨٧ ومظاهرات (يوم السلام) دعما للانتفاضة . ومازالت الاضرابات المنتظمة مستمرة تعبيرا عن احتجاجهم على أوضاعهم ، فعلى سبيل المثال ، دُعي الى اضراب ليوم واحد في ٦ تشرين الاول عام ١٩٨٨ احتجاجا على خطة تهدف الى دمج أربع مجالس في اثنين ، وهذا يعني خسارة رئيسي بلدية وانخفاض الموارد المالية .

بالإضافة الى تشكيل اللجنة الاقليمية ، شهدت السبعينات وأوائل الثمانينات مزيداً من التطورات السياسية بين فلسطيني ٤٨ ، فقد ازداد تأثير الحركة الوطنية الفلسطينية منذ أن قامت حركة التحرير الفلسطينية PLO بتقرير اوراق اعتمادها في عام ١٩٦٨ . وفي الثمانينات أصبحت القضايا الفلسطينية وتطوراتها ، فضلاً عن نشاطات منظمة التحرير الفلسطينية خارج اسرائيل ، تنشر بشكل واسع في الصحافة العربية الاسرائيلية . بالإضافة الى ذلك ، أصبحت الأحزاب السياسية المختلفة تتنافس علناً لتظهر بأنها تحظى بمباركة منظمة التحرير الفلسطينية . ومن ناحية ثانية ، كانوا حريصين على هذا الموضوع شأنهم كشأن المواطنين الاسرائيليين الذين يؤمنون ، مع العديد من اليهود الاسرائيليين ، بأن الحل الوحيد للصراع الاسرائيلي - العربي هو : اقامة دولتين : أي دولة فلسطين جنباً الى جنب مع دولة اسرائيل ، ولكن حتى اذا تم التوصل الى هذا الحل ، سيبقى فلسطينيو ٤٨ مواطنين اسرائيليين ، على الرغم من هويتهم الفلسطينية .

في لنصف الثاني من الثمانينات ، كانت هناك صلات قوية بين الفعاليات السياسية والاجتماعية من فلسطيني ٤٨ واخوانهم في الضفة الغربية وقطاع غزة ويهود الشتات . فعلى سبيل المثال ، في عام ١٩٨٧ عقد في جنيف وتحت رعاية الأمم المتحدة المؤتمر السنوي للمنظمات غير الحكومية من أجل قضية فلسطين ، وكان مؤتمراً استثنائياً نظراً لحضور أعداد كبيرة من الفلسطينيين واليهود من داخل اسرائيل. وقد اختلطوا عن قرب مع ألف شخص آخرين منهم : عدد من الفلسطينيين من المناطق المحتلة ومن الموجودين في المنفى ، وعرب من دول أخرى ، بالإضافة الى أعداد من الأوروبيين والأمريكيين الذين يؤيدون القضية الفلسطينية . ولم ينل شرف القاء كلمة الافتتاح في المؤتمر أحد سوى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية : ياسر عرفات .

شهدت الثمانينات أيضاً تأسيس أحزاب واتجاهات سياسية جديدة ، فقد شكل أحد مؤسسي حركة الأرض وهو (محمد ميعاري)

بالتعاون مع لواء اسرائيلي يهودي متقاعد يدعى (ماتي بليد) : الحركة التقدمية ، وتقدما عام ١٩٨٤ الى الانتخابات الوطنية وفق القائمة التقدمية للسلام ، وفاقا كلاهما .

تشابه « القائمة التقدمية للسلام » و « الجبهة الديمقراطية » في تطلعاتهما السياسية ، ولكن عن الفكر الشيوعي . وقد تأمل أولئك الذين ساندوا تشكيل « القائمة التقدمية للسلام » بأنها سوف تجتذب العرب الممنوعين من التصويت والذين كانت الشيوعية وراء عزلتهم . من ناحية ثانية ، تعصب الشيوعيون بشكل كبير تجاه الدم الذي قدمته حركة التحرير الفلسطينية للقائمة التقدمية ، لأن هذا الدم أثر بشكل سيء في موقف الجبهة الديمقراطية . تحدث (ميعاري) الى (صحيفة الدراسات الفلسطينية) ملخصا نظرة القائمة التقدمية (المجلد ١٤ : رقم ١) :

(علينا أن نلعب دورا مضاعفا ، أولا : يجب أن نناضل من أجل المساواة الوطنية والمدنية داخل اسرائيل . ثانيا : يجب أن نشاؤك في عملية التوصل الى حل عادل للمشكلة الفلسطينية ، اي الانسحاب الكامل [لاسرائيل] الى حدود عام ١٩٦٧ وتأسيس دولة فلسطينية) .

وقال ان القائمة التقدمية قد تعاونت سابقا مع الجبهة الديمقراطية ، ولكنهم أرادوا الآن الوصول الى فلسطيني ٤٨ المحرومين من الاقتراع عن طريق اضعاف (هوية ولون فلسطيني متميز على نضالنا بدلا من اغراقه في خضم النضال الديمقراطي الكلي) .

بعد أن أخذ الفلسطينيون دورا في الأحداث السياسية الاسرائيلية ، شعرت الدولة اليهودية على الفور بضرورة إعادة التأكيد على سيطرتها وذلك عن طريق اصدار التعديل رقم (٧) عام ١٩٨٥ على القانون الاسرائيلي الاساسي : (لا يحق لقائمة مرشحين الاشتراك في انتخابات الكنيست اذا كانت أهدافها أو أفعالها تشير ، بشكل علني أو ضمني ،

إلى أحد الأمور التالية : (١ - رفض الاعتراف بوجود دولة إسرائيل على أنها ، دولة تضم الشعب اليهودي ٠.٠٠) ، ورفض الكنيست الاقتراحات التي قدمها أعضاؤه العرب بأن التعديل يجب أن يشير إلى : (دولة الشعب اليهودي ومواطنيها العرب) ، أو تحديد هذا التعديل (برفض الاعتراف بوجود دولة إسرائيل) .

(روحانا - ١٩٨٩ ، ص ٥١)

وكما تشكلت « القائمة التقدمية للسلام » في الوقت المناسب للانتخابات الوطنية عام ١٩٨٤ ، فقد تشكل « الحزب الديمقراطي العربي » في الوقت المناسب للانتخابات القومية عام ١٩٨٨ ، بعد أن انفصل (عبد الوهاب دراوشة) من حزب العمل احتجاجاً على السياسة اليهودية الإسرائيلية في المناطق المحتلة بعد اندلاع الانتفاضة . ويبدو أن (دراوشة) قد اتبع الحالة النفسية الشائعة لفلسطيني ٤٨ بدلا من قيامه بتوجيهها ، فمِنذ أن قام وزير الدفاع (اسحق رابين) عضو حزب العمل بتنسيق سياسة القمع الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، لم يعد بإمكان دراوشة إلى حد ما أن يحافظ على منصبه في الحزب نفسه .

حصل الحزب الديمقراطي العربي على مقعد واحد في الانتخابات الوطنية لعام ١٩٨٨ ، وفي مقابلة مع صحيفة الحياة العربية اليومية الصادرة في لندن (في ١٨ آب عام ١٩٨٩) ، علق (دراوشة) ، بناء على وجهة نظر جديدة ، بأن العرب لا يملكون النفوذ السياسي الكافي ، وذلك نظراً : (لانعدام التنسيق بين الأحزاب العربية ، وكانت النتيجة حصول الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة على أربعة مقاعد بدلا من خمسة ، وانخفاض مقاعد الحركة التقدمية من مقعدين إلى مقعد واحد . كانت الخسارة العربية جسيمة بسبب الانشقاقات الداخلية والضغط السياسي والمادية المختلفة التي تمارسها السلطات الإسرائيلية ، لذا صوت حوالي ٤٠ ٪ من العرب لصالح الأحزاب الصهيونية ، وامتنع حوالي ٣٠ ٪ عن التصويت) .

حصل الحزب الديمقراطي العربي على ٢٧٠٠٠ صوتا ، وبذلك ينقصه ٩٠٠٠٠ صوت للحصول على مقعد ثاني في النظام الاسرائيلي للتمثيل البرلماني النسبي .

في شهر آب عام ١٩٨٩ ، ترأس (دراوشة) وفدا من حزبه في رحلة الى القاهرة للاجتماع مع أعضاء الحزب الوطني الديمقراطي الحاكم وبعض المسؤولين المصريين الآخرين ، وقد قال وقتها لصحيفة الحياة : (اننا نؤمن بأن مصر ، بمكانتها الخاصة ومواقفها القومية ، ذات أهمية كبرى بالنسبة لنا نحن كفلسطينيين داخل اسرائيل ... فعن طريق مصر ، نحاول أن نحطم القيود ونفتح أبواب العالم العربي ... ونحن ، برغم كل شيء ، جزء لا ينفصل عن الشعب الفلسطيني وعن العالم العربي ، ونحن فخورون بعروبتنا وبتراثنا . ليس من المنطق أن يفرض علينا حصار ، ويكون للدول العربية يد فيه ، وليس من العقل أن يستمر هذا الحصار كما لو اننا اطفال العالم العربي غير الشرعيين) .

في الحقيقة يعتبر توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل أحد التغييرات الرئيسة في المناخ السياسي في الفترة التي تلت حرب ١٩٦٧ وعلى الرغم من وجود شعور بخيانة خفية فيما يتعلق باتفاقيات كامب دافيد عام ١٩٧٨ بين عدد كبير من فلسطينيي ٤٨ ، إلا أن الآلاف منهم قد اغتنموا الفرصة وقاموا بزيارة مصر ، ليس بسبب رخص البضائع فحسب ، ولكن كما ذكر أحدهم : (لقد سافر بعضنا الى أوروبا ، ولكن إمكانية زيارة بلد عربي أمر مختلف تماما ، إذ نشعر وكأننا خرجنا من المنفى) .

وبينما رحب بعضهم بانتهاء عزلتهم ، أخذ بعضهم الآخر يبحث عن حلول في الداخل . ففي نهاية الثمانينات ظهرت الحركة الاسلامية كأكبر قوة جديدة فعالة انفجرت على المسرح السياسي ، وتمكنت من الحصول على عدد من مجالس البلديات في الانتخابات المحلية لعام ١٩٨٩ ، الأمر الذي أثار ذعر الأحزاب العربية الأخرى . وتمكن الاصوليون من اكتساب

تأييد الناس عن طريق اطلاق شعار بسيط وهو : (الاسلام هو الحل) .
ولخص أحد قادتهم هدفهم الرئيسي بالكلمات التالية : (لن نتمكن من
محاربة الظلم والحصول على حقوقنا كفلسطينيين إلا عن طريق الاسلام ،
لذا يجب أن نعلم شعبنا أن يكونوا مسلمين حقيقيين) .

إن الميزة القوية التي يتصف بها الأصوليون ، كما في أنحاء العالم
العربي ، هي التنظيم عند المستوى الشعبي وتوفير الوسائل لتسهيل
الخدمات الملحة . ويتمتعون ، مثل المنظمات الدينية ، بنوع من الحصانة
ضد المضايقات القانونية . وبالتالي يشكل هذا المركب الذي يجمع بين
الأمور العملية والدينية صيغة قوية لمؤسسة ناجحة . فعلى سبيل المثال
في أم الفحم حيث تأسست (الرابطة الاسلامية) عام ١٩٨٥ ، قام
الأعضاء بتشيد ثلاث مكتبات تباع الكتب بخخص يبلغ ١٠٪ ، واقامة
دورات لتعليم الحاسب الآلي ، ومستوصفا طبيا يقدم الخدمات مقابل
ست شيكلات فقط ؛ واحد عشر مسجدا مع فسحة لحدائق الأطفال ،
ومراكز ثقافية ، ونواد رياضية يمارسون فيها لعبة كرة القدم على
الطريقة الاسلامية ، (حيث لا يسمح للاعبين بالصياح أو الشتم ،
وتتوقف المباريات عندما يحين وقت الصلاة) . بالإضافة الى تقديم
القروض المالية من أجل المشاريع التجارية . وتعتبر المنظمة الاسلامية
في أم الفحم واحدة من أوائل المجموعات الفلسطينية المتطوعة للقيام
بخطوة ايجابية في سبيل حل مشكلة المخدرات ، فقامت بتشكيل (لجنة
الرحمة) في ايلول عام ١٩٨٧ التي شيدت بدورها مركزا للمخدرات
ومستوصفا طبيا يضم ثلاثة أطباء وممرضتين . وتتلقى الحركة الاسلامية
في اسرائيل ، كما في أجزاء أخرى من الشرق الأوسط ، مساعدات مالية
ضخمة من شركائهم الدينيين في الخليج العربي .

يشارك الأصوليون ، على المستوى الاقليمي ، في اللجنة الاقليمية
لرؤساء المجالس المحلية العربية ، ولكنهم على المستوى المحلي ،
يختلفون غالبا مع المجموعات الأخرى . ذكرت صحيفة (الهدف) في
عددها الصادر في تموز - آب (الرسالة الاخبارية الصادرة عن النادي

الثقافي في أم الفحم للاسم نفسه) مثالا حدث أثناء يوم الاحتجاج الذي دعت إليه اللجنة الاقليمية في ١٠ حزيران عام ١٩٨٩ ضد سياسة التمييز . فقد عقد في هذه المناسبة اجتماع في أم الفحم دعا إليه كل من : حزب العمل ، والمابام ، القائمة التقدمية للسلام ، الحزب الديمقراطي العربي ، والحركة الاسلامية المحلية .

(وحسب مصادر الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة « حداث » في أم الفحم ، لم تشارك الجبهة وحركة قرية أبناء البلد في هذه المظاهرة كما كان مقررا نظرا لخلافهما مع الحركة الاسلامية المحلية ، التي لم يوافق اعضاؤها على مشاركة النساء في المظاهرة) .

تولت الحركة الاسلامية رئاسة مجلس المدينة في أم الفحم أثناء انتخابات مجلس البلدية التي جرت في ٢٨ شباط عام ١٩٨٩ ، وعزلت بذلك الجبهة الديمقراطية . في مقال نشرته صحيفة « الفجر » الصادرة في ١٣ آذار عام ١٩٨٩ ، ذكر أن رئيس البلدية في « أم الفحم » (هاشم محاميد) وجه اللوم للسلطات لأنها خصصت « أم الفحم » بميزانية للتنمية لا تبلغ سوى ١٠٪ من الميزانية المخصصة لاية مدينة يهودية اخرى ، وقال بأن الجبهة الاسلامية قد هاجمت دون وجه حق المجلس البلدي لفشله بتطوير المدينة . أما رئيس البلدية الجديد الشيخ الملتحي (رائد مهاجنه) البالغ من العمر الثلاثين عاما والمتخرج من جامعة (الخليل) فقد قال : (يتجلى حوارنا مع مواطني أم الفحم عن طريق العمل ، فقد وثقوا بنا ، وعبروا عن هذه الثقة بتأييدهم للجبهة الاسلامية ، في حين فقدوا الثقة بالفئات الاخرى لأنها فشلت بتحقيق التقدم والتطور في المدينة) .

حقق مجلس المدينة في عهد (محاميد) في الواقع بعض الانجازات : كانشاء شبكة مجازير كاملة للمرة الاولى في تاريخ المدينة ، (وطالب المجلس بسلفة مالية للرفع من مكانة « أم الفحم » وتحويلها من قرية الى مدينة) . ولكن اعترف (محاميد) بأن الجبهة لم تبذل ما يوسعها

لاكتساب التأيد وقال : (استخدم المسلمون ٧٠٠٠ عربية لنقل المقترعين الى صندوق الاقتراع ، بينما لم نستخدم نحن سوى ٤٠٠ عربية وذلك نتيجة لسوء تقديرنا لإمكاناتهم) .

نقلت صحيفة (الفجر) عن لسان نجار يبلغ الثامنة والثلاثين من عمره صوت لصالح الجبهة الإسلامية قوله : (لقد أيدت الجبهة الإسلامية لقاء ما فعلته خلال العشر سنوات الماضية) . واستشهد في حديثه بنوعية المشاريع التي ذكرت أعلاه ، مضيفا الى ذلك : (وقاموا أيضا ببناء المنازل للعائلات الفقيرة ، ومدوا يد العون الى المنكوبين الذين دمرت السلطات الاسرائيلية منازلهم غير النظامية) .

غالبا ما يحتل هذا العداء بين مختلف أحزاب وحركات فلسطيني ٤٨ حيزا واسعا على صفحات الصحف العربية وفي الكراسيات ، فبعد الاحتفال بذكرى يوم الأرض في آذار ١٩٨٨ ، قام أحد قادة الحركة الإسلامية وهو الشيخ (عبد الله نمر درويش) بتوجيه الانتقاد الى الجبهة الديمقراطية على صفحات صحيفة (السنارة) الصادرة في ٨ نيسان عام ١٩٨٨ :

(هذا النوع من الجنون ، الجنون الناجم عن الرغبة في السيطرة والعظمة ، يقتات على المزاودة على الآخرين وعلى اطلاق الأكاذيب ... فقد أثر جنون العظمة هذا على الجبهة منذ البداية ، واستفحل عندما بدأت الحركة التقدمية تقف معها في موقف المنافسة في الكنيسة ، وبلغ الأمر ذروته عندما اتخذت الحركة الإسلامية مكانا لها وسط جماهيرنا العربية والإسلامية على هذه الأرض) .

كتب (سالم جبران) رئيس تحرير صحيفة (الاتحاد) في ١٨ نيسان عام ١٩٨٨ بأن السلطات الاسرائيلية كانت تحاول أن تضعف الحزب الشيوعي ، لذا ظهرت كما قال ، القائمة التقدمية للسلام بعد غزو لبنان عام ١٩٨٢ . وبعد اندلاع الانتفاضة انفصل (عبد الوهاب دراوشة)

عن حزب العمل ، وأعلن عن شكوكه حول دور صحيفة (السنارة) التي (وجهت الانتقاد فقط الى المجالس التي يترأسها الشيوعيون أو جماعة الجبهة الديمقراطية ولكننا تمكنا في الماضي من احباط جميع تلك المؤامرات والظهور جميعا بالمظهر الاقوى) .

وكذلك لم يضع كل من أعضاء حركة أبناء البلد والشيوعيين فرصة تمكنهم من تسجيل النقاط ضد بعضهم بعضا ، فهناك على سبيل المثال المقالة التي نشرت في صحيفة (الاتحاد) الصادرة في ٢ تموز عام ١٩٨٨ وقد كتبت بلهجة تنم عن الاسف أكثر منها عن الغضب ، عندما حاول شبان حركة أبناء البلد لصق بعض الاعلانات على جدران (بيت الصداقة) في الناصرة ، فطلب منهم أحد شبان الشيوعيين بأدب بأن لا يستعملوا المساحة كلها ولا يغطوا اعلاناتهم . فكانت النتيجة نشوب صراع بالأيدي ، ولكن تمت تسوية المشكلة في تلك الليلة بشكل سلمي وودي كما ورد على لسان صحيفة الاتحاد . ولكن لشدة دهشة شبان الشيوعيين وزع شبان أبناء البلد في اليوم التالي (آلاف) الاوراق التي تتضمن وصفا مزيفا للحادثة . وقد نشرت صحيفتا الراية والسنارة مضمون هذه الورقة ، ولا بد من ذكر التعليق الساخر لصحيفة الاتحاد على هذه الحادثة : (نقدم التهاني الحارة على هذه الوحدة الوطنية الحميمة !) .

كتب عضو الكنيست في الجبهة الديمقراطية (توفيق طوبي) في صحيفة الاتحاد الصادرة في ٢٠ شباط ١٩٨٩ ، وبعد تفكير منطقي في الدروس التي يجب أن يتعلمها المرء من الانتخابات مجلس البلدية :

(بعد تلخيص نتائج الانتخابات ، حافظت الجبهة الديمقراطية للسلام والمساوات على قوتها بشكل عام ، فقد فقدت القيادة في عدد من المجالس مثل مدينة أم الفحم وقرى طيبة وعراة وترعان وعيلبون ، ولكن من ناحية ثانية فاز المرشحون الذين دعمتهم الجبهة برئاسة المجالس البلدية في كل من : سخنين وبعانا وكوكب وكفر مанда وبيت جن) .

وأكد (طوبي) على ضرورة استمرار التعاون بين الجبهة وكافة القوى العربية ، حتى أولئك الذين أعطوا أصواتهم الانتخابية للحركة الإسلامية ، وذلك لان العدو الرئيسي يبقى على الدوام السياسات التي تمارسها الحكومة ، وأشار بأنه قد انخفض مجموع الاصوات التي حصل عليها (محاميد) قليلا ، من ٢٨٪ عام ١٩٨٣ الى ٢٢٫٨٪ عام ١٩٨٩ وأنه قد حصل انقسام بين المنتخبين بعد قرار حركة ابناء البلد بالمشاركة في الانتخابات . أما في الناصرة ، فقد حصلت الحركة الإسلامية على ستة مقاعد في المجلس البلدي ، بينما حصلت الجبهة على عشرة مقاعد من أصل تسعة عشر (في مقابل إحدى عشرة مقعدا من أصل سبعة عشر في الانتخابات السابقة) . ولم يحصل كل من حزب الليكود وحزب العمل وحركة ابناء البلد على أية مقاعد ، وانخفضت حصة القائمة التقدمية من أربعة مقاعد الى اثنين .

وعلى الرغم من انتقاد (طوبي) للحركة الإسلامية لهجومها الشخصي على الزباد ومحاميد ، فقد ختم قوله بما يلي :

(اننا نناشد مؤيدي الحركة الإسلامية للتعاون في تحقيق المصالح المشتركة لجميع المواطنين العرب ، وتحرير الاوقاف الإسلامية (الودائع الخيرية) ، واحترام حق الجماهير الإسلامية بممارسة شؤونها الدينية بنفسها وعن طريق هيئاتها المنتخبة ، وأخيراً مقاومة تهديدات السلطات باتخاذ اجراءات عنيفة ضد الحركة الإسلامية ، الامر الذي يضر بحقوق المواطنين) .

على الرغم من دعوة (طوبي) هذه (قدم استقالته بعدها من الكنيسة) الا أن الانتخابات التي ستجري في المستقبل يمكن أن تظهر شكلا من التحالف بين ابناء البلد والجبهة الديمقراطية ضد الاسلاميين إذ أن ابناء البلد كانوا بالتأكيد يعانون من انتصار الاصوليين في مدينة أم الفحم . علقت على ذلك الرسالة الاخبارية التي نشرتها صحيفة (الهدف) في آذار ١٩٨٩ :

(تسعى الحركة الإسلامية لإنشاء مجتمع اسلامي متجانس لا فرق فيه بين الخاص والعام ، وتأمل بتحقيق ذلك سواء عن طريق نشر أفكارها لتصل الى كل فرد في المجتمع ، أو عن طريق استخدام جهاز الدولة لفرض مبادئ السلوك على الناس . وبما أنها لا ترى أن الثورة الإسلامية امكانية فورية داخل اسرائيل لذا فانها تتبع الاسلوب الاول في أم الفحم . وبدأت باجراء فصل بين الذكر والانثى في جميع مستويات التعليم ، وذهبت أكثر من ذلك فأستأجرت حافلات لنقل الفتيات الى المدارس الثانوية بمعزل عن الفتيان .

وفي الجانب الآخر من السلم التعليمي تم تأسيس رياض الاطفال الإسلامية التي تنشئ الاطفال وفق مفاهيم الحركة . وتصمم الحركة على وجوب التزام النساء بمسؤولياتهن كزوجات وأمهات ، وتنظيم المحاضرات للنسوة في المساجد لهذا الغرض) .

في رسالتها الاخبارية رقم (١٢) صرحت الهدف بأن الامور تزداد سوءاً :

(صرف العديد من الموظفين والمعلمين في ثانوية أم الفحم من الخدمة منذ أن حصلت الحركة الإسلامية على رئاسة مجلس المدينة في الانتخابات البلدية في شهر شباط الماضي . فبعد انتصارهم بوقت قصير خفضت ساعات العمل لاثنتين من الاساتذة على الرغم من وجود شروط قانونية تمنع هذا الاجراء أثناء العام الدراسي . ثم قام المجلس بصرف اثنتين من اساتذة التاريخ بدوام جزئي من الخدمة وتعيين أحد اتبعهم بدلا عنهما وتنازلت عدة حالات منها صرف معلمتين من الخدمة لرفضهما الالتزام في ثيابهما بالطريقة التي تراها سلطات الأصوليين مناسبة ، وصرفت أيضا معلمة من الخدمة أثناء فترة حملها - ويبدو أن الاسباب الكامنة وراء هذا التصرف أيضاً هي المحافظة الدينية وليس التعصب ضد عمل النساء لان البديلة كانت معلمة حامل أيضاً ولكنها محافظة) .

إذا في نهاية الثمانينات ، لم يتمكن فلسطينيو ٤٨ من تشكيل جبهة سياسية موحدة مستقلة ، إلا أنهم أصبحوا بالتأكيد أكثر انغماسا في القضايا السياسية وأكثر تنظيما عن أي وقت مضى خلال الأربعين عاما الماضية . ففي الانتخابات الوطنية التي جرت في تشرين الثاني عام ١٩٨٨ ، بلغت نسبة الاضراب العربي عن المشاركة ٧٥٦٪ بالمقارنة مع ٧٩٪ على مستوى القطر وهي أعلى نسبة الاضراب العربي التي حصلت في انتخابات عام ١٩٨٤ والبالغة ٧٢٪ . وارتفعت نسبة الاصوات العربية التي ايدت الاحزاب غير الصهيونية مثل : الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة ، القائمة التقدمية للسلام ، والحزب الديمقراطي العربي ، من ٥٢٪ عام ١٩٨٤ الى ٦٠٪ عام ١٩٨٨ . بينما انخفضت نسبة الاصوات العربية المؤيدة للاحزاب الصهيونية امثال : الليكود حزب العمل والمابام ، وحركة الحقوق المدنية ، والحزب الديني القومي من ٤٨٪ الى ٤٠٪ وحدث بين البدو ، الذين انخرطوا مؤخرا في النشاط السياسي الفلسطيني ، انقلاب ملفت للنظر ، فقد انخفضت نسبة الاصوات المؤيدة للاحزاب الصهيونية من ٩٠٪ عام ١٩٨٤ الى ٤٦٪ .

على الرغم من العداء بين القوى الفلسطينية المختلفة ، إلا أن بعض المحللين السياسيين امثال (روحانا) يرى شكلا من (الاجماع على الرأي) حول المواضيع الاساسية التي تعتبر أسسا مشتركة مثل : حق العرب بالتساوي مع المواطنين في اسرائيل . إلغاء قوانين مصادرة الاراضي ، التوصل الى تسوية سلمية بين العرب واسرائيل تعتمد على مبدأ الانسحاب من المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ ، اقامة دولة فلسطينية تشمل القدس العربية ، اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد في محادثات السلام ، وأخيرا التعاون مع القوى الداعية للسلام في المجتمع اليهودي .

على أية حال ، في نهاية الثمانينات اختلف الوضع الى حد كبير عما كان عليه ، منذ ثلاثين أو أربعين عاما ، حتى أن السلطات اليهودية الاسرائيلية أظهرت علامات تدل على اللدعة . فعلى سبيل المثال . في

أول احتفالات جرت في ذكرى « يوم الأرض » بعد الانتفاضة في آذار عام ١٩٨٨ حُجبت صحيفة الاتحاد عن الصدور لمدة أسبوع واحد ، وهي خطوة غير عادية ، بعد أن كانت هذه المعاملة مخصصة عادة لحركة أبناء البلد وغيرهم من المتطرفين .

الاتجاهات الشخصية ما بعد عام ١٩٦٧ :

واجه الفلسطينيون ، مع تطور الاتجاهات السياسية ، العديد من الأسئلة على المستوى الشخصي ، وخاصة فيما يتعلق بهويتهم وعلاقتهم مع غيرهم من المواطنين : اليهود الاسرائيليين . وفي عام ١٩٨٢ ، قدم (روحانا) بحثاً يتضمن مثالا قوميا تصنيفيا حول آراء السكان البالغين - باستثناء الدروز والبدو - فكانت النتيجة التالية : اختار ٦٨٪ عبارة : عرب فلسطينيين أو فلسطينيين لوصف هويتهم الجماعية واختار ٦٪ عبارة فلسطينيين اسرائيليين ، واختار ١٨٢٪ عبارة اسرائيليين ، واختار ٦٩٪ عبارة عرب ، واختار ٥٠٪ فقط عبارة اسرائيليين . وبرزت الموضوعات حول الهوية والمستقبل في المناقشات الخاصة والمناقشات العامة .

فعلى سبيل المثال ، مع اقتراب نهاية الثمانينات أثارت (جمعية عربا المستقبل) نقاشا حول (العرب اسرائيل ودورهم في الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني) . وتعتبر هذه الجمعية واحدة من عشرات الأندية الثقافية الجديدة التي أنشأها فلسطينيو ٤٨ . تساءل الدكتور (شريف كنانة) رئيس مركز البحوث في جامعة بيرزيت في الضفة الغربية (وهو شخصياً من فلسطيني ٤٨ من مواليد عربا) ، عن سبب اعتبار الفلسطينيين داخل إسرائيل أقل أهمية بأي شكل من الأشكال عن إخوانهم في الخارج ، واستخلص قائلاً : (بادئ ذي بدء ، أنا لم أصبح إسرائيلياً باختياري أو بمحض إرادتي . ثانياً : ليس هناك دولة فلسطينية اختار الذهاب إليها أو البقاء في إسرائيل . ثالثاً : أنا فلسطيني مائة بالمائة ، وقضيتي لم تحل بعد) .

قال رئيس تحرير صحيفة (الاتحاد) سالم جبران في مناقشته للموضوع :

(نحن نشارك في النضال الفلسطيني بصمودنا ، وبفضالنا من أجل المساواة ، وبتمسكنا بأرضنا ، وبالتزامنا القومي ، وببغائنا مع مؤيدي السلام من اليهود وتعاوننا معهم ، وبسعيانا من أجل تأسيس دولة فلسطينية جنباً إلى جنب مع دولة إسرائيل . وتبرز قيمة هذا المكان الهام بالشعب الفلسطيني ككل ، وعلى رأسه منظمة التحرير الفلسطينية ، فالحجر الذي أهمله البناء قد أصبح بحق حجر الزاوية) .

شعر (محمد ميعاري) من القائمة التقديمية للسلام في مقابلة مع صحيفة (دراسات فلسطينية) بأن خياراته كانت واضحة : (عندما تتأسس دولة فلسطينية ، سنطالب بحقنا في حمل جوازي سفر : جواز السفر الإسرائيلي الذي سيوفر لنا حقوق الإقامة فوق أرضنا ، وجواز السفر الفلسطيني الذي سيحافظ على انتسابنا العرقي والقومي) .

(المجلد ١٤ - رقم ١)

وقام أيضاً المربي الفلسطيني الراحل الدكتور (سامي مرعي) بمعالجة السؤال التالي : (ماذا يحدث عندما يكون هناك سلام ؟) في مقال نشرته صحيفة (دراسات فلسطينية) عام ١٩٨٥ . وأجاب بنفسه عن سؤاله قائلاً : (من المحتمل جداً أن يتبعثر الإجماع الإسرائيلي في الرأي حول معاملة المواطنين العرب تحت ظروف السلام) . علاوة على ذلك ، وبما أن العالم العربي لن يبقى عدواً لإسرائيل ، سيتمكن الفلسطينيون من زيادة رؤوس أموالهم لتحسين حصصهم بشكل جوهري ، وسيصبحون قادرين أيضاً على تحسين نوعية ثقافتهم وكل ما يتعلق بهذا الموضوع ؛ ولن يستطيع اليهود الإسرائيليون أن يعارضوا ذلك .

(عندئذ ، لن يصبح بالإمكان تصنيف [العرب] «بالتطوّر الخامس»
أو مجازفة أمينة ، ولن يخضعوا بعد الآن - كما هي حالهم في الوقت
الحاضر - إلى قوانين (دفاع) الطوارئ التي أدخلت إلى فلسطين للمرة
الأولى من قبل الحكم الاستعماري البريطاني عام ١٩٤٥ ، وأبقت عليها
إسرائيل بشكل قسري منذ عام ١٩٤٨) .

أما فيما يتعلق بهوية فلسطيني ٤٨ ، فقد قال مرعي : (يعتبر
العرب في إسرائيل جزءاً مكملًا للشعب العربي الفلسطيني من ناحية ،
وفي الوقت نفسه مجموعة تحافظ على الجنسية الإسرائيلية من ناحية
ثانية) .

يؤمن معظم فلسطيني ٤٨ بأن الانتفاضة سوف تسفر في آخر الأمر
عن إنشاء دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ولكن
لم يبدِ أحدٌ من الذين قابلناهم من أجل هذا الكتاب أية رغبة في الانتقال
والعيش في تلك الدولة . وعلق أحدهم مازحاً : (نحن الفلسطينيون
الحقيقيون ، ولا نريد أن يأتي الفلسطينيون الأشكينازيون ليحكمونا) (١) .
وقال آخر :

(عندما كنت في الثامنة عشر من عمري كنت أعتقد بإمكانية حصولنا
على دولة مستقلة هنا (في دولة إسرائيل الحالية) ، ولكنني أعلم الآن أن
هذا الأمر غير واقعي ، فاليهود سيبقون هنا . ولكن من المحتمل قيام
دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وهي كما أعتقد
نتيجة حتمية للانتفاضة . ولكنني لن أذهب بالضرورة للعيش فيها ، فإذا
حصلنا هنا على حقوق متساوية ، وإذا أمكننا أن نصبح وزراء ورؤساء
وزارات ، فلن أنتقل عندئذ إلى الدولة الجديدة) .

(١) اليهود الغربيون القادمون من ألمانيا وبولندا وروسيا ، والذين ابتكروا الحركة
الصهيونية . هاجروا إلى فلسطين قبل اليهود الشرقيين الذين اغتالوا منهم لتفوقهم
في المجالين الاقتصادي والسياسي .

صرح طبيب من رام الله يبلغ الثلاثين من عمره :

(أنا لن أغادر مدينتي لأعيش في كنف الدولة الجديدة ، وكذلك لا أتفق مع الأشخاص أمثال أعضاء حركة أبناء البلد ، الذين يرفضون الاعتراف بوجود دولة إسرائيل ، إنها حقيقة مؤسفة يجب أن نتقبلها جميعاً ، وإذا لم نفعل ذلك ، فإننا نعطي اليهود عذراً جديداً لطردنا من ديارنا . الشيء الوحيد الذي يجب أن نفعله نحن فلسطينيين ٤٨ هو أن نحارب دون اللجوء إلى العنف للحصول على حقوق متساوية . يسألني بعض اليهود إذا كنت سأوافق على تأدية الخدمة العسكرية في الجيش الإسرائيلي في حال وجود دولة فلسطينية وسلام ؟ ما هو الجواب الذي أستطيع أن أقدمه على هذا السؤال ؟ في الوقت الحالي لا جواب عندي . ولكنني أعتقد أنه يجب طرح هذا السؤال أمام جميع الفلسطينيين ، ليس هنا فقط بل في أنحاء العالم) .

وهناك المتفائلون أمثال المدرس (عامر) من الناصرة والذي يبلغ السادسة والأربعين من عمره إذ قال :

(لا أحد يعرف العقلية اليهودية كما نعرفها نحن فلسطينيين ٤٨ ، ففي ما بين الضغوط التي نمارسها نحن على السلطات هنا ، والانتفاضة في الضفة الغربية ، وغزة ، سيجدون أنفسهم مجبرين على الاعتراف بنا كشعب ، ولن يستطيعوا أن يبقوا كالنعمات إلى الأبد) .

من ناحية أخرى ، ما تزال معظم المؤسسات الإسرائيلية اليهودية السياسية ترفض فكرة قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة كنسوية للنزاع العربي الإسرائيلي . وفي الوقت نفسه ، وبعد ظهور علامات انفصام الشخصية ، فهم يعيشون في حالة قلق من إمكانية إصرار فلسطينيين ٤٨ في الجليل على الانضمام إلى الدولة الفلسطينية في حال قيامها . فعلى سبيل المثال : قال (إيهود أولرت) مستشار رئيس الوزراء (إسحق شامير) للشؤون العربية في حديث إلى صحيفة نيويورك تايمز في ١٨ حزيران عام ١٩٨٩ .

(يقول لي المستشارون المحترفون إنه في اليوم الذي تبدأ فيه فكرة إنشاء دولة فلسطينية باكتساب الشرعية ، سيبدأ العرب داخل إسرائيل بشن حملة للحصول على الحكم الذاتي ، ثم سيطالبون بالاتحاد مع الدولة الفلسطينية ؛ عندئذ سنواجه مشكلة حقيقية ، أو ما يسمى بحالة طوارئ قومية) .

بعد انفجار الانتفاضة تحدث (إيلي ريخز) من مركز دايان في جامعة تل أبيب إلى صحيفة (جيروزالم بوست) في ١٣ نيسان عام ١٩٨٨ أنه منذ إعادة فتح (ملف ١٩٤٧ - ١٩٤٨) : (فإن الأحداث التي جرت في الضفة الغربية وغزة قد زادت من عدد الإسرائيليين واليهود والعرب على حد سواء اللذين يعيدون النظر في خطة التقسيم التي طرحت عام ١٩٤٧ باعتبارها حلاً ممكناً) ؛ - والتي تنص على ضم الجليل إلى الدولة الفلسطينية - . ومع ذلك شعر بأن لهجة المظاهرات الهادئة في يوم الأرض في آذار ١٩٨٨ كانت إشارة طيبة : (من الواضح أنه لا يمكنك أن تمحو في ساعة واحدة أربعين عاماً من التعايش بين اليهود والعرب داخل إسرائيل . إذ تسير عملية « الفلسطنة » جنباً إلى جنب مع عملية « التهويد » . وما يزال الاتجاه الرئيسي للصراع السياسي ينحصر ضمن حدود القانون وداخل النظام النيابي) .

أدت الانتفاضة بالتأكيد إلى انتشار الاضطراب بين الفلسطينيين الإسرائيليين ، وتحدث عن ذلك رئيس لجنة المتابعة حول الثقافة العربية، والمحاضر في جامعة حيفا (ماجد الحاج) إلى صحيفة (جيروزالم بوست). الصادرة في ١٦ حزيران عام ١٩٨٩ ، ونشر الحديث ثانية في الرسالة الإخبارية لصحيفة الهدف في تموز - آب عام ١٩٨٩ : (إننا نقف الآن على الخط الأخضر ، قبل الانتفاضة لم يكن من السهل أن نوازن بين العنصرين الرئيسيين لهويتنا ، ولكنه كان أمراً ممكناً . وعندما أتت الانتفاضة عملت على تعميق المواجهة بين هذين العنصرين) .

وضح (الحاج) ، على نقض ما قاله (ريخز) ، بأن الهدوء الذي خيم على المتظاهرين الفلسطينيين في يوم الأرض عام ١٩٨٨ يدل على أنهم

يمرون بمرحلة استبطان ، ورأى بأن التوتر بين هويتهم كفلسطينيين وكمواطنين إسرائيليين قد أخذ يتفاقم : (تواجه العرب مشكلة متزايدة وهي إيجاد توازن بين عنصر القومية وعنصر الجنسية ، إننا نقف على سطح مزدوج) . وأشار ، من ناحية ، بأن العرب الإسرائيليين لم يشاركوا في الانتفاضة بشكل مباشر ؛ وواجهوا ، من ناحية ثانية ، مشاكل اقتصادية في وطنهم ، زاد من تفاقمها انتشار البطالة على نطاق واسع : (وربما كان جو الكراهية السائد هو الأكثر ضرراً . . . حيث أصبحت صيحات : « الموت للعرب » ، والنداءات بنقل العرب من النجبل الى وسط البلاد أو خارج إسرائيل كلها ، أشياء مألوفة) .

يتركز السؤال الرئيس الذي يدور في خلد فلسطيني ٤٨ حول الشكل الذي ستؤول إليه دولة إسرائيل نفسها حالما تتشكل دولة فلسطينية . كتب حول ذلك (جريس) عام ١٩٧٩ : (إن مشكلة العرب في إسرائيل ليست جديدة ، بل تمثل ، ومنذ وجود دولة إسرائيل ، استمرار وضع غريب من القضايا لم يقبل فيه كل طرف الطرف الآخر بأي حال من الأحوال) . وتجلى عجز الدولة اليهودية عن تقبل وجود العرب كمواطنين يتمتعون بالمساواة والاعتراف بحقوقهم ، في قيامها بتعديل القانون الأساسي عام ١٩٨٥ المذكور أعلاه ، والذي يتضمن منع المرشحين من الاشتراك في الانتخابات إذا رفضوا (الاعتراف بوجود دولة إسرائيل على أنها دولة الشعب اليهودي) . ومن الجدير بالذكر أن الاقتراح العربي القاضي بتعديل تلك العبارة لتصبح على النحو التالي : (دولة الشعب اليهودي ومواطنيها العرب) قد قوبل بالرفض ، وما يزال اليهود يفهمون من كلمة إسرائيل : الدولة اليهودية فقط ، على عكس المواطنين العرب في إسرائيل .

وكتب (روحانا) حول هذا الموضوع الذي أصبح قضية رئيسة :

(تدل التطورات الأخيرة في ساحة الصراع الفلسطينية - التي يشعر تجاهها الفلسطينيون في إسرائيل بالحساسية الشديدة - أن سلسلة

الحلول الكاملة التي يؤيدها الفلسطينيون تتضمن التقسيم بشكل أو بآخر ، الأمر الذي يعني بأن هؤلاء العرب سيقون مواطنين في إسرائيل بغض النظر عن الحل السياسي الذي سيتم التوصل إليه . وفي هذه الحالة ، لن تكون هويتهم الحالية « كـ فلسطينيين في إسرائيل » كافية ، بل سيواجه النظام الإسرائيلي المزيد من الضغوط لاتخاذ التعديلات المناسبة لاستيعاب مواطنيه الفلسطينيين . وسيطلب هذا إعادة صياغة إسرائيل على أنها دولة قومية ، تبنى على أساس الجنسية الإسرائيلية (لجميع المواطنين في إسرائيل) وليس الجنسية اليهودية (تشمل جميع المواطنين اليهود في الدول الأخرى وتستثني المواطنين غير اليهود في إسرائيل) . ولكن في حال طالبت الأقلية العربية وبشكل فعال بإعادة الصياغة هذه ، عندئذٍ ستجبر إسرائيل على مواجهة تفاهة الإجراء الحالي تجاه مواطنيها العرب) .

(١٩٨٩ - ص ٤٦٠)

قام الكاتب الفلسطيني الإسرائيلي (أنطون شماس) في وقت سابق بتوضيح مجرى النقاش هذا ، عندما أذهل جمهور القراء في إسرائيل بإصدار روايته الأولى (الأرابيسك) باللغة العبرية وبأسلوب أكثر فصاحة من أسلوب اليهود ، كما ذكر بعضهم . وفي مقالة مطولة نشرت في مجلة (نيويورك ريفيو أف بوكس) بعنوان : « صبيحة إعلان دولة فلسطينية » ، حاول (شماس) أن يبرهن أن كلاً من إسرائيل وفلسطين ستصبحان دولة لمواطنيها . فبعد أن تفتتح الدولة الفلسطينية أبوابها أمام جميع الفلسطينيين الذين يرغبون بالعودة لفترة زمنية محددة ، يجب أن تلجأ بعد ذلك إلى تطبيق قوانين الهجرة ذاتها على الفلسطينيين وغيرهم من الذين يرغبون بالإقامة فيها . وينطبق الشيء نفسه على دولة إسرائيل التي يجب أن لا توافق بعد ذلك على هجرة اليهود غير المحدودة . وأكد شماس أن دولة إسرائيل يجب أن تولد ، فحتى الآن يوجد في إسرائيل يهود وعرب فقط (كما يبدو من بطاقاتهم الشخصية) وليس مواطنين إسرائيليين . ولن يبدأ وجود دولة إسرائيل بشكل فعلي حتى تصبح

دولة ديمقراطية حقيقية لجميع مواطنيها ، بدلاً من (دولة يهودية)
يتمتع فيها اليهود بالأفضلية .

وحدهم فقط فلسطينيو ٤٨ الذين يستطيعون السعي لتغيير النظام
الإسرائيلي الراهن ، ولا بد من مضي بعض الوقت قبل أن يتعلموا أن
يمقدوا صلحاً بين الآراء السياسية المتضاربة ، والعمل بيد واحدة في
القضايا القومية . وكما قال (روحانا) بالتأكيد : (لقد وصل العرب في
إسرائيل الى مرحلة لم يعد بالإمكان تجاهلهم سواء من قبل الإسرائيليين
أو الفلسطينيين) .

ربما ليس من الصعب أن نتخيل زمناً تتعلم فيه القوى السياسية
المختلفة كيف تشترك سوية للعمل في القضايا القومية تماماً كما تفعل
اللجنة الإقليمية لرؤساء المجالس العربية المحلية تجاه القضايا الاجتماعية
والاقتصادية . عندئذٍ سيتمكنون ، بالاقتران مع بعض الأحزاب
الإسرائيلية اليهودية ، من تشكيل قوة أكبر تكفي لدفعهم في طريق تغيير
وضعهم كمواطنين في إسرائيل . وربما سيملكون أيضاً القوة لدفع مسيرة
السلام من خلال الكنيسة الأمر الذي سيؤدي الى تأسيس دولة
فلسطينية ويضع نهاية لعذاب الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال وفي
المنفى أيضاً . عندها فقط سيصبح فلسطينيو ٤٨ بحق حجر الزاوية
في دولة كهذه من خلال كونهم مواطنين فعالين في إسرائيل ، وبقائهم كذلك
حتى الآن .

* * *

الفصل الثاني

المحافظة على الوجود

(حان الوقت لأولئك الذين يرغبون أن يعيشوا في سلام أن
يكفّوا عن تعصبهم العنصري ولو قليلاً ، وأن يمارسوا العدالة
ولو ببعض الشيء .)

« جمعية عرب يافا »

فقد فلسطينيون ٤٨ الجزء الأكبر من أئمن ما كان لديهم ، ألا وهي
الأرض ، وذلك خلال الفترة التي كانت فيها المدن والقرى العربية تحت
الحكم العسكري الإسرائيلي منذ عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٦٦ . وكما
أشار (توما) : عام ١٩٨٥ : (فقد وضعت إدارة الأرض الإسرائيلية يدها
تدريجياً على أكثر من ميلون دونم من الأراضي التي يمتلكها المواطنون
العرب في إسرائيل ، فانخفضت بذلك الملكية العربية للأرض الى حوالي
دونم واحد للشخص ، في حين كانت تبلغ حوالي ستة عشر دونماً
للشخص الواحد في فترة الانتداب البريطاني) وما تزال عملية اغتصاب
الأراضي مستمرة حتى يومنا هذا ، ولكن ليس على ذلك النطاق الواسع ،
(والسبب ببساطة هو أنه لم يعد بحوزة العرب الكثير من الأراضي) .
وكانت عملية الاغتصاب تترافق مع اتخاذ إجراءات معينة تهدف الى
تفريق التجمعات السكانية العربية وذلك ببناء مستوطنات يهودية في
مناطق استراتيجية .

في العقدين الأولين لم يكن بوسع العرب أن يفعلوا سوى القليل لإيقاف الاغتصاب الإجمالي لأراضيهم ، كما سنرى بعد قليل ، ولكن كما سيبدو لاحقاً في هذا الفصل ، بدأ العرب بعد عام ١٩٧٦ وبعد يوم الأرض بالنضال للمحافظة على النذر اليسير المتبقي .

لجأت الدولة اليهودية في اغتصابها للأراضي الفلسطينية الى استخدام سلسلة من القوانين ، بدءاً بقوانين الطوارئ البريطانية التي كانت سارية اثناء فترة الانتداب . ويعتبر (قانون ملكية الغائب) الصادر عام ١٩٥٠ من أكثر القوانين احتيالية في هذا المجال ، إذ تمّ بموجبه تحويل ملكية الغائبين الى القيم . وتشمل « ملكية الغائب » الاملاك التي تعود الى ٧٠.٠٠٠.٠٠٠ لاجيء فلسطيني أُجبروا على الهرب اثناء حرب ١٩٤٨ عندما تحولت فلسطين الى إسرائيل ؛ بالإضافة الى أملاك تعود الى ٣٠.٠٠٠ شخص فروا من مكان الى آخر داخل إسرائيل . يستطيع القيم بعد ذلك أن يبيع الأملاك الى (سلطة التنمية) التي أسست عام ١٩٥٠ ، والتي كان يعود لها فقط الحق في تحويل تلك الأراضي الى الحكومة . وبحلول عام ١٩٥٣ تحولت جميع الأملاك المتبقية بحوزة القيم الى (سلطة التنمية) .

ولجأت السلطات أيضاً الى استخدام قانون يسمي المدن والقرى الفلسطينية (مناطق مغلقة) أو (أحزمة أمان) تحت الحكم العسكري ، الامر الذي يعني حرمان المزارعين الفلسطينيين من الوصول الى أراضيهم وفلاحتها ؛ وكان مصير الآلاف الذين حاولوا خرق هذا القانون تحويلهم الى المحاكم وتكليفهم بالغرامات . وعندما تصبح الأرض مهجورة ، تضع الدولة يدها عليها وفق (قوانين الطوارئ - حراسة الأراضي البور) ، الصادر عام ١٩٤٨ .

كتب (نقارة) في دراسة تفصيلية :

(أسفرت هذه القوانين والأنظمة عن تحويل ممتلكات العرب الغائبين من قبل القيم ، بالإضافة الى ممتلكات ما يسمى بالغائبين -

الحاضرين ، من مواطني الدولة الإسرائيلية ، الى سلطة التنمية . وقد تحول بهذه الطريقة أكثر من ٥٠٠.٠٠٠ دونم من الأراضي المزروعة ، من أصل ١٦٣٢٤٠.٠٠٠ دونم (تشمل القسم الأكبر من أراضي النجف) من أملاك العرب المهجورة) .

فيما بعد أعلن وزير المالية بكل بساطة ، ووفق قانون اغتصاب الأرض لعام ١٩٥٣ ، أن أية (منطقة مغلقة) أو أرض (بور) ليست في حوزة مالكيها حتى تاريخ ١ نيسان عام ١٩٥٢ ، أو استعملت لأغراض تنمية أساسية فيما بين ١٤ أيار عام ١٩٤٨ و ١ نيسان عام ١٩٥٢ أصبحت حقاً مكتسباً (لسلطة التنمية) . قال (نقارة) : (أصدر وزير المالية ٤٦٥ شهادة في عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٤ يصادر بموجبها ١٧٤٠٢٢٥ دونماً من أراضي العرب ، وتشمل عشرات القرى العربية التي تمّ إخلاؤها بسبب الأعمال العسكرية ، بالإضافة الى مساحات واسعة من أراضي قرى أخرى مأهولة بالسكان) .

اعتراض العرب على تلك القوانين ، إلا أن اعتراضاتهم بقيت حبراً على أوراق مكدسة . فعلى سبيل المثال ، في عام ١٩٥٤ رفضت المحكمة العليا التماساً قدمه ملاك عربي اعتراضاً على قانون « استملاك » أرضه من قبل سلطة التنمية الإسرائيلية . تعني هذه السابقة بأن قرارات وزير المالية لم تعد خاضعة للجوء الى القضاء ، وانتقد يهود أيضاً في ذلك الوقت تلك القوانين بشدة . يقتبس (نقارة) حديث رئيس تحرير صحيفة (ماريف) الذي كتب في ٢٥ كانون أول عام ١٩٥٣ (ص ٢٤٠) :

(احتشد في الكنيسة كل من اشترك في السرقة . . لقد اغتصبت الأرض . . من قبل إدارات الحكومة ، والماباي ، والمابام والأحزاب الدينية . . جميعهم اشتركوا في السرقة . اجتمعوا ليقولوا : (قد اعتدنا على هذه الأرض ، ولا نريد أن نزعجنا المحاكم وتمنعنا من زراعتها ، تعالوا لنوجد قانوناً . .) ولن يكون القانون ساذجاً لينجني أمام (رغبات) العرب ، بل يبدل حقوقهم المشروعة في أملاكهم دون أن

يشركهم في الأمر ، ويذهب أكثر من ذلك فيمنح الملاكين العرب تعويضات لا تدخل جيوبهم) .

(من الجدير بالذكر أن اليهود أيضاً انتقدوا بشدة قوانين طوارئ عام ١٩٤٥ بعد أن أصدرها الانجليز وعندما تم تطبيقها على العربي واليهودي على حد سواء . صرح الدكتور (موشيه دنكلوم) الذي أصبح فيما بعد قاضي المحكمة العليا في إسرائيل بما يلي : (تحد قوانين الطوارئ حقوق الفرد وتمنح الإدارة سلطة غير محدودة) . وقال الدكتور (يعقوب شايرا) الذي أصبح فيما بعد وزيراً للعدل : حتى في ألمانيا النازية (لم تكن توجد مثل تلك القوانين) . ولكن كل ذلك لم يمنع الحكومة اليهودية الجديدة من الإبقاء على مثل هذه القوانين نافذة ، ضد الفلسطينيين في إسرائيل بادئ الأمر ، ثم ضد الفلسطينيين الواقعين تحت الاحتلال في الضفة الغربية وقطاع غزة .

لم تنحصر خسارة فلسطيني ٤٨ بفقدانهم الجزء الأكبر من أراضيهم فحسب ، بل إنهم لا يأملون في يوم من الأيام بشرائها أو حتى استئجارها ، على الرغم من أنهم مواطنون في دولة إسرائيل . فوفق قانون (الدولة الاساسي ، فقرة أراضي إسرائيل) : تعتبر الاملاك اليهودية غير قابلة للتحويل ، ولا يمكن أن تباع الا الى اليهود ، ولا يحق سوى العامل اليهودي أن يعمل فيها . ولكن في الستينات بدأ الجزء الثاني من تلك العقيدة يتعرض للاهمال ، وذلك عندما ظهرت الحاجة الى العامل العربي . ولكن الدولة بقيت دائماً على حذر لمنع عودة الاراضي التي اكتسبتها الى أصحابها العرب . وذكر (زريق) إنه في منتصف الستينات أصبح واضحاً أن العديد من المستوطنين أخذوا ينجذبون الى المراكز الحضرية ويؤجرون الاراضي للعرب ، مما حث السلطات على إصدار قانون الاستيطان الزراعي عام ١٩٦٧ للحد من خطر إعادة الأرض الى حوزة أصحابها العرب الفلسطينيين .

المعركة من أجل الجليل :

بقيت مرتفعات الجليل بشكل خاص مكتظة بالعرب الذين يشكلون حوالي نصف سكان المنطقة على الرغم من الاغتصاب الهائل للأراضي والتوجه المتزايد نحو الاستيطان ، الأمر الذي أثار قلق الدولة اليهودية منذ البداية . قال رئيس بلدية الناصرة (توفيق زياد) عام ١٩٧٦ : (قام بن غوريون ، المؤسس الأول للدولة إسرائيل ، بجولة في الجليل وصرح بلهجة عنصرية غاضبة : كل من يتجول في الجليل ينتابه إحساس بأنها ليست جزءاً من إسرائيل) . لأن أغلبية السكان من العرب .

نشرت صحيفة الفجر في ١٢ حزيران عام ١٩٨٨ رواية مختلفة عن تلك الحادثة :

(قام بن غوريون بجولة في الجليل ، بينما كان يعبر الطريق بين مكا وصفد مر يقرى عربية وسأل عن أسمائها ، وعندما قيل له إنها : مجد الكروم ، وماكير ، ودير أسد وراما ، ذكر أنه أجاب : « أسافر داخل سورية » وأصدر على الفور أوامره ببناء مستوطنة الكرمل في المنطقة) .

وتم فيما بعد تشجيع البرامج المختلفة الهادفة الى « تهويد » الجليل ، وكتب (جريس) يشرح خطة اسرائيلية مبكرة :

(في البداية كان يدعى بمشروع « تهويد الجليل » ، ثم وُصف فيما بعد بمشروع « تطوير الجليل » . وكان الهدف تمزيق الكثافة المرتفعة لسكان العرب في تلك المنطقة وذلك لتسهيل الهيمنة عليها . وتمت مصادرة المزيد من الأراضي العربية لتنفيذ هذه الخطة ، وأُشيدت ثلاث مدن جديدة ، الأولى : الناصرة العليا بجانب الناصرة ، والثانية : الكرمل ، وتقع على الطريق الرئيسي بين عكا وصفد . والثالثة : معالوت ، بجانب ترشيحا في الجليل الغربي .

ومنذ عام ١٩٥٧ وحتى اندلاع حرب حزيران عام ١٩٦٧ بذلت السلطات الاسرائيلية جهودا جبارة لتقوية تلك المدن وزيادة عدد سكانها. إلا أن أهدافها في هذا المجال لم تتحقق الا قليلا ، واصبح واضحا أن هذه المدن ، بدلا من أن تضيف السمة اليهودية على تلك المنطقة ، أصبحت نوعاً ما مراكز للسكان العرب ، وذلك بسبب توجه أعداد كبيرة من العرب للعمل فيها فسيطروا بذلك على قوة العمل المهنية) .

أولت الحكومة اليهودية مزيداً من الاهتمام الى (مشكلة) الوجود الفلسطيني الضخم ، وقد حثها على ذلك سيطرة الحزب الشيوعي على مجلس بلدية الناصرة عام ١٩٧٥ ، ومظاهرات يوم الاض عام ١٩٧٦ . وظهر هذا التفكير واضحاً في مذكرة (كوينغ) عام ١٩٧٦ التي أوصت بإجراءات عدة لاحتواء مشكلة السكان العرب ، ومن هذه الإجراءات الاسراع في استيطان الجليل . كان (اسراييل كوينغ) حاكم المنطقة الشمالية لمدة ثلاثة عشر عاماً حيث يقطن حوالي نصف فلسطيني ٤٨ ٠ وكان على اطلاع جيد على الوضع في الجليل . كتب (الزباد) بلهجة غاضبة عام ١٩٧٦ :

(انها وثيقة عنصرية قدمها كاتبها كبرنامج عمل للسلطات الاسرائيلية بخصوص السكان العرب ، ونورد فيما يلي عدداً من الافكار الرئيسية من هذه الوثيقة : ١ - انها تصف العقلية العربية بأنها عقلية شرقية وسطحية ومتخلفة . ٢ - (توصي) بالتشدد في استعمال السيطرة القوية ضدهم عن طريق رجال الشرطة والجيش والمعتقلات . ٤ - تسعى لتأسيس جهاز مخابرات متخصص للتجسس على القادة . ٥ - تسعى الى فرض إجراءات صارمة ضد زعماء الطلبة ، واغلاق أبواب الجامعات في وجه الطلاب العرب ، لوضع العقبات في طريق حصولهم على الثقافة العامة ، وفي الوقت نفسه العمل على تسهيل هجرة الناشئة العرب من البلاد ومنع عودتهم اليها . ٧ - تؤيد مبدأ فرض ضرائب وغرامات كبيرة على السكان العرب لتجريدهم من حريتهم المالية وسلبهم طاقتهم الاقتصادية التي تساعد على رفع مستواهم المعيشي . .) .

وفي الثمانينات استمرت النداءات المؤيدة لتهويد الجليل الامر الذي يدل على فشل الحكومة اليهودية في هذا الخصوص . فعلى سبيل المثال ، كتب (دافورا بن شاول) في مقال نشرته صحيفة (جيزروالم بوست) في عددها الصادر في ٢ حزيران عام ١٩٨٦ :

(تعتبر اسرائيل دولة يهودية ، ولكن في بعض المناطق الواسعة من البلاد يعد اليهود أقلية . ففي مرتفعات الجليل يشكل اليهود بالكاد ٢٠٪ من العدد الاجمالي ، أما في المنطقة الممتدة من وادي جيزريل الى الحدود اللبنانية فتصل النسبة الى ٥١٪ من عدد السكان . . . فإذا لم تتلق الجليل معاملة تفضيلية من اجل الاستيطان اليهودي والجهد القومي ، من المحتمل أن نجد ، وبعد سنوات قليلة ، أن الغالبية العظمى من سكان المنطقة يطالبون « بحقوقهم » ك فلسطينيين) .

اشارت (ياكوث فريدلر) في مقالة سابقة نشرت في ١٥ أيار عام ١٩٨٨ الى فشل المستوطنات التي أنشئت في احتواء فلسطيني الجليل : (كان الهدف من المستوطنات الثلاثين التي انشأت منذ عام ١٩٧٩ كنقاط مراقبة هو جلب المزيد من اليهود الى الجليل التي يتساوى فيها عدد السكان من اليهود والعرب على حد سواء ؛ بالإضافة الى أنها صممت لتكون مراقب مراقبة لليهود على العرب ولتشكل خطاً من المستوطنات لاحتواء توسع القرى العربية . الا أن مئات الآلاف من أشجار الزيتون ، التي زرعها القرويون هي التي تحتوي الآن مواقع المراقبة تلك) .

إن (الاهتمام) اليهودي « بالقنبلة السكانية » الفلسطينية أو « المعضلة السكانية » الناجمة عن التزايد السريع لعدد السكان العرب في إسرائيل يشير قلق فلسطيني ٤٨ ؛ وكذلك النداءات التي أطلقها (الحاخام مير كاهانا) وغيره والتي تدعو الى (نقلهم) طوعاً أو كرهاً من مكان الى آخر داخل إسرائيل ، أو خارجها ككل .

ويشعر العديد من العرب أن هذه الآراء هي سبب الادعاءات المتكررة بأن فلسطيني ٤٨ يشاركون بشكل متزايد في النشاطات المعادية للدولة ،

وخاصة منذ اندلاع الانتفاضة . فقد وجهت إليهم اتهامات بقذف الحجارة وقنابل البنزين ، ورفع العلم الفلسطيني ، والاضطلاع باندلاع الحرائق في الغابات الاسرائيلية في صيف عام ١٩٨٨ . نشرت صحيفة (نيويورك تايمز) في ١٨ حزيران عام ١٩٨٩ تعليقا لعبد الوهاب دراوشة يقول فيه : (إنهم يريدوننا أن نكون أكثر عنفاً ، ويساعدونهم كل هذا الكلام على تبرير نظريتهم بأن العرب لا يمكن أن يكونوا موضع ثقة) .

وقبل ذلك ، في آذار عام ١٩٨٨ ذكرت الرسالة الاخبارية لصحيفة « الهدف » بأن القصص المنسوجة حول قيام الفلسطينيين برفع الاعلام وقذف قنابل البنزين وغيرها (مبالغ فيها الى حد كبير) :

(انظر الى المقالة التي نشرتها صحيفة « هآرتس » : لا يوجد في أم الفحم مكتبة لكي يرسم على جدارها العلم ، ولا يوجد أيضاً علم على مبنى البلدية . ولا تتعدى « الاعلام » الموجودة في المدينة ، بعض الرسوم البسيطة التي تتألف من ثلاثة خطوط سوداء أفقية ومثلث أسود رسمت دون عناية - دون أي أثر للون الأخضر أو الأحمر . تحاول صحيفة « هآرتس » أن ترسم صورة قاسية عن سكان مدينة أم الفحم) .

تابعت الرسالة الاخبارية تقول :

(يسود إحساس قوي في أم الفحم بأن تلك التقارير المبالغ فيها تدل على أن السلطات تخطط لعمل ما في وادي آرا وترغب بتبريره مسبقاً أمام الشعب الاسرائيلي ، وذلك باقناعه بأن المدينة وانقرى المحيطة بها ما هي إلا مناطق غير مجدية . ولا يمكننا أن نتجاهل إمكانية عزم الحكومة على التحضير لاعادة إدخال الحكم العسكري ، كما طلب في الكنيست في كانون الاول . في غضون ذلك ، أعلن كل من وزير الاسكان (ديفيد ليفي) ورئيس قسم الاستيطان (ماتي دربلز) عن إنشاء ثلاث مستوطنات جديدة في منطقة وادي آرا ، الاولى : عند نقطة اتصال مجيدو في أعلى الوادي ، والمستوطنتين الآخرين بجانب مدينة أم الفحم . وتضاف هذه المستوطنات الثلاث الى سلسلة المستوطنات غير المكتظة التي تمتد على

طول الجبال على جانبي الوادي ، والمزودة بأجهزة هاتف كلملة ونظام
مجاريير وطرق معبدة حديثاً - على عكس التجمعات الفلسطينية التي
تخضع دائماً لمراقبتهم الصامتة) .

السيطرة من خلال التطور :

تواصلت أيضاً عملية سلخ العرب الفلسطينيين عن أرضهم عن
طريق تطوير المناطق اليهودية والاعاقة المقصودة لتطوير المناطق العربية ،
سواء في الجليل أو في أي مكان آخر . في عام ١٩٧٨ أشار كل من :
الرزاق وأمين وادفيس : (بأنه لا يوجد قرية عربية واحدة في اسرائيل
مصنفة كمستوطنة متطورة ، وبالتالي لا يحق لاية قرية عربية ان تحصل
على الامتيازات الهائلة التي تمنحها الحكومة للمستثمرين الراغبين
بتأسيس الشركات والمعامل في المنطقة ؛ بل يقتصر هذا الامتياز حصراً على
المستوطنات اليهودية) .

وتابعوا حديثهم مستشهدين بمثال من الاتجاه الاستيطاني في
الجليل :

(ويوجد في مناطق « دير الأسد » و « بينا » و « نحف » حالة
نموذجية وثيقة الصلة بالموضوع ، فبين عامي ١٩٦٢ - ١٩٦٣ تمّ
استملاك أراضي تلك القرى الثلاث بهدف تأسيس مدينة الكرمل اليهودية
حصراً ، وصنفت هذه المدينة كمناطق متطورة من الدرجة (T) . وتمهدت
الحكومة بتأسيس قاعدة صناعية متقدمة ورفيعة المستوى في الكرمل
أطلق عليها اسم « ميدان الكرمل الصناعي » . ويحصل المستثمرون في
الكرمل على دعم كبير لتأسيس شركاتهم ، وتمنح الشركات الكبرى اعانات
سخية وتنازلات ضريبية لتشجيعهم على تحويل مصانعهم من المناطق
الوسطى في السهل الساحلي من البلاد الى الكرمل . وتقدم الحكومة
بشكل مشابه الى المستوطنين المرتقبين في المدينة قروصاً ومنحاً سخية
وشققاً للبيع أو الايجار ، الخ . . وتقتصر هذه الامتيازات على الكرمل
فقط ، أما القرى العربية المجاورة فلم تصنف بالطبع كمستوطنات

متطورة . بالإضافة الى ذلك ، لا يسمح لأي مستثمر عربي أن يؤسس معملاً أو يشتري بيتاً في الكرمل . وعلى الرغم من أن عدد سكان تلك القرى الثلاث : دير الأسد وبيننا ونحف ، يتجاوز عدد سكان الكرمل ، إلا أنها لم تخدم كهربائياً حتى الآن ، بعد ثلاثين عاماً مضت على تأسيس الدولة اليهودية) .

قال الزباد معترضاً :

(لنلقي نظرة فاحصة على الحقائق المؤلة : ما تزال المساحات الواسعة من الأراضي المفتصة ، والتي كانت مزروعة حتى تاريخ اغتصابها ، دون فلاحه حتى الآن بسبب نقص الطاقة البشرية « اليهودية » . إذ يفضل إبقاؤها قاحلة على إعادتها الى أصحابها العرب . ولا يوجد في كافة المدن والقرى العربية أي نوع من أنواع الصناعة على الإطلاق . فعلى سبيل المثال ، يبلغ عدد سكان الناصرة (٤٥٠٠٠) نسمة وتعتبر أكبر مدينة عربية في إسرائيل ، ولا يوجد فيها معمل واحد ؛ فخلال السنوات الأولى من تأسيس دولة إسرائيل تمت تصفية المعامل التي كانت موجودة في الناصرة أثناء فترة الانتداب البريطاني . أما في مدينة الناصرة العليا اليهودية حصراً ، والتي يبلغ عدد سكانها (١٦٠٠٠) نسمة ، يوجد عشرات المعامل ، يعتبر بعضها الأكبر في مجال إنتاجها : كصناعة النسيج . والأغذية ومعامل تجميع السيارات ، وتمّ اغتصاب الأراضي من عرب الناصرة لبناء مدينة يهودية ، فيتحول بذلك عرب الناصرة مع مرور الوقت الى القسم المهمل من المدينة اليهودية) .

أقد استبعد الفلسطينيون بالطبع من الاستفادة من مؤسسات التنمية الكبيرة كالصندوق القومي اليهودي الذي يستهدف فقط مساعدة اليهود . فتحول القسم الأكبر من العمال الفلسطينيين ، بعد أن جردوا من الأراضي وحرّموا من التطور ، الى عمال متنقلين لقاء أجر يومي . كتب (الزباد) حول ذلك :

(إن الوضع في القرى العربية أسوأ من ذلك . إذ يسافر حوالي ٦٠.٠٠٠ عامل من أصل ٨٠.٠٠٠ كل صباح من مدنهم وقراهم للعمل في المدن والمستوطنات اليهودية ، ويعودون مساء الى منازلهم . ويعتبر هؤلاء العمال أن مدنهم وقراهم ما هي سوى مكانا للسكن ، وتتحصر « صناعتهم » المثمرة في خلق وتزويد الطاقة البشرية) .

بما أن القسم الأكبر من فلسطيني ٤٨ يعيشون في القرى ، فقد وصفت (مخول) وضعهم : (بالانتقال الى مرتبة العمال والاستغناء عن التمدن لأنهم أصبحوا عمالا صناعيين يتنقلون يوميا بين أماكن إقامتهم الريفية وأماكن عملهم في المدينة .) واستشهدت بدراسة شاملة جرت عام ١٩٧٤ لتظهر الوضع الذي كانت عليه (طبقة العمال) الفلسطينيين : هناك ٢٣١.٠٠ شاب يعملون بكفاءة في الصناعة والبناء والنقل ، ٩١٧٪ منهم لا يعمل آبائهم في المهن ذاتها ؛ ويعمل ٩٠.٠٠ شاب في الزراعة ، ٨٠٪ منهم لا يعمل آبائهم في الزراعة .

كتب (الخالدي) عام ١٩٨٤ يصف الصناعة الفلسطينية الموجودة :

(في عام ١٩٧٤ ، ووفق أفضل التقديرات ، كان هناك ٥٩ مؤسسة صناعية فقط في المناطق العربية ، يشارك العرب في قسم من ملكيتها ، ولا يتجاوز عدد العمال في كل منها ثلاثين عاملا ؛ بينما يصل في قليل منها الى ١٥٠ - ٢٠٠ عامل ، يعملون في مجال الرخام والمعادن . وفي أفضل الحالات لا نجد في هذه الشركات أكثر من خمس الصناعيين العرب . تقوم هذه المعامل غالبا بإنتاج الملابس والنسيج ، بالإضافة الى بعض التوسع الذي حصل مؤخراً في الصناعة الكيميائية البسيطة وصناعة الأغذية . وتعتبر هذه المعامل الموجودة في المناطق العربية بشكل عام فروعاً من مؤسسات صناعية إسرائيلية كبرى . يضاف الى ذلك انشغال القرى العربية ببعض الحرف المعينة : كالنجارة المحدودة ، والحداة والخياطة واصلاح السيارات وبعض الورشات لصغيرة الأخرى) .

اقتصرت الكثير من العقود الفرعية اليهودية المبرمة في المناطق العربية على استخدام العامل الفقير الثابت ، فحصلت النساء الفلسطينيات

على الاولوية في هذا المجال . اضاف الخالدي يقول : (في عام ١٩٨٢
أجري بحث شامل لقائمة تضم ما ينوف على ٥٠٠ مشروع تجاري
مسجل في اسرائيل ، وكانت النتيجة عدم الحصول على شركة واحدة
تعود ملكيتها الى العرب أو تأسست في منطقة عربية) .

الخطوات الاولى على طريق الصمود :

كيف تمكن فلسطينيو ٤٨ من المحافظة على ما تبقى بين أيديهم من
اساس ثرواتهم بعد ادراكهم لوضع شؤونهم الذي قطع فيه كما يبدو كل
طريق يؤدي الى التطور ، الذي يعتمد على الذات ؟ بدؤوا في السبعينات
يحشدون قواهم ببطء ولكن في الواقع لم تبدأ الجماعة بتشكيل قوة
فعالة قبل بداية الثمانينات عندما بدأ الصراع بشكل جدي للمحافظة على
شيء من السيطرة على الموارد المتبقية .

عند هذه النقطة ، شعر فلسطينيو ٤٨ بضرورة تحديد المشاكل
التي تعترضهم وفق تقديراتهم الخاصة ، أي بالاعتماد على معلوماتهم
الشخصية وتحليلهم للوضع بدلا من الاتكال على المصادر اليهودية . لذا
بدؤوا بعقد العديد من المؤتمرات التي تبحث في مواضيع مختلفة : في عام
١٩٨٤ عقد المؤتمر الاقليمي الاول حول الثقافة في القطاع العربي ، وفي
عام ١٩٨٦ حول الصحة ، وفي عام ١٩٨٧ حول الأوضاع الاجتماعية
والاقتصادية ، وفي عام ١٩٨٨ حول الزراعة ، وكانت تعقد هذه المؤتمرات
عادة بدعوة من اللجنة الاقليمية لرؤساء المجالس العربية المحلية
 بالتنسيق مع واحدة أو أكثر من الجمعيات الطوعية . (يغطي هذا
الفصل موضوع الأرض والممتلكات الأخرى ، بينما يركز الفصل الثالث
حول المجموعات الفلسطينية الفعالة في المواضيع الاجتماعية) .

في تشرين أول عام ١٩٨٨ عقد في قرية (ايبلين) المؤتمر الاول حول
الزراعة في القطاع العربي ، وتركزت مناقشاته على مشاكل الأرض والماء
والمزارعين . وتطوع لتنظيم هذا المؤتمر (اللجنة الاقليمية للدفاع عن
الأراضي العربية) التي تأسست عام ١٩٧٥ بمبادرة من اللجنة الاقليمية

لرؤساء المجالس العربية المحلية ، واتخذت مقرها في الناصرة ، ويعود إليها الفضل الكبير في تنظيم مظاهرات يوم السلام في آذار ١٩٧٦ . تابعت لجنة الدفاع من الأرض ، بقيادة (رفد شحادة شحادة) ، عملها عدة سنوات وذلك لتشجيع القرويين على مقاومة تهديدات السلطات لهم ولأراضيهم ، وكلفت محامين للدفاع عن حقوقهم ، وحاربت ضد العنصرية (اذ شاركت في عدة مظاهرات لمنع المتطرف مير كاهان من الذهاب الى القرى العربية وحث السكان على الرحيل) .

تعاونت اللجنة ، في القيام بنشاطاتها ، مع عدد من القوى السياسية الفلسطينية ، ابتداء من الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة الى جمعية أبناء البلد ، فضلا عن عدد من الفئات المتطوعة الأخرى . من مهامها الرئيسية مراقبة وضع الأراضي في القطاع العربي ، ويعتبر هذا بحد ذاته عملا يستغرق وقتا كاملا ، ووفق النشرة التي أصدرتها اللجنة في ايلول عام ١٩٨٧ ، توصلت الى اكتشاف أكثر من ثلاثين طريقة « قانونية » لاغتصاب الأراضي العربية .

أما فيما يتعلق بالمؤتمر الزراعي فقد نظمت اللجنة عدة دراسات ، وتم تشكيل خمس لجان فرعية لتقوم بتغطية مجالات مختلفة منها : التبغ ، الزيتون ، الفواكه ، الخضار ، الابقار ، الدواجن ، الجمعيات التعاونية والاحصائيات . وسبق المؤتمر عدة اجتماعات عقدت في قرى مختلفة لإيقاظ الوعي بين السكان .

حضر المؤتمر الذي عقد في قرية (ايلين) في تشرين الاول عام ١٩٨٨ عدد كبير من المزارعين قدموا من ٤٣ قرية عربية ، بالإضافة الى رؤساء وأعضاء المجالس المحلية المختلفة . أشار رئيس مجلس (راما) المحلي : (الياس قسيس) في كلمته التي القاها في المؤتمر بأن العرب في عام ١٩٤٨ كانوا يملكون ١٤٠.٠٠٠ دونم من أصل ١٥٠.٠٠٠ من الأراضي المزروعة بأشجار الزيتون ، وقد فقد الجزء الأكبر من الأرض بحجة أن ملكيتها تعود الى « غائبين » . هذا فضلا عن تدخل السلطات في شؤون الأراضي غير المفتصة ، فقد اشتكى (قسيس) على سبيل

المثال من القيود المفروضة على نوع الزيتون الذي يجب زراعته : إذ لا يحق للمزارعين أن يزرعوا الزيتون السوري الذي يقدر انتاجه من الزيت بين ٢٥ - ٣٨ ٪ ، بل فرضوا عليهم زراعة الأنواع الأخرى التي تنتج ٧ - ٨ ٪ من الزيت فقط .

أشار (محمد منصور) من قرية (طيرة) بأن أخطر مشكلة تواجه مزارعي الفواكه والخضار هي استخدامهم المحدود لمياه الري . إذ يحق للمزارعين العرب أن يحصلوا فقط على ٥٠٠٠ متر مكعب من الماء سنوياً لري خمسة دونمات ، بينما يحق للمزارعين اليهود أن يحصلوا على ٨٠٠ - ١٢٠٠ متر مكعب للدونم الواحد ، دون تحديد لمساحة الأرض . وكذلك يحتاج المزارعون العرب إلى ترخيص لزراعة البطاطا والجزر والبصل والفلفل ، وبدل عدم إنتاج العرب للبطاطا على صعوبة الحصول على هذا الترخيص . ويشتكي مزارعو التبغ من انخفاض قيمة منتوجهم بسبب الاستيراد .

بالإضافة إلى القيود المفروضة على زراعتهم ، بقي حق فلسطيني ٤٨ في ملكية أراضيهم معرضاً للخطر . فقد أشار رئيس مجلس مجد الكروم (محمد مناع) أن المدن والقرى العربية تستمر بفقدان أراضيها بسبب إجراءات إعادة توزيع المناطق ، وأن السلطات اليهودية المحلية تملك الحق في استملاك الأراضي لأغراض المصلحة العامة ، دون حاجة منها لتعويض المالكين . ولتعزيز عمله ، شكل المؤتمر لجنة متابعة تعمل جنباً إلى جنب مع اللجان التي حددتها المؤتمرات لمتابعة المواضيع الاجتماعية والاقتصادية الأخرى في القطاع العربي .

وكما هي الحال على الأرض ، كذلك الأمر بالنسبة للبحر ، ففي الثمانينات بدأ الصيادون الفلسطينيون بتنظيم أنفسهم لمواجهة الخطر الفادح الذي يهددهم ، وهو فقدان المدخل الصغير الوحيد المتبقي لهم على البحر الأبيض المتوسط . في تشرين الأول عام ١٩٨٦ ، وفي مدينة يافا العربية اليهودية المختلطة ، تحدد وجود الصيادين الفلسطينيين البالغ

عدددهم ٢٧٠ صيادا بمساحة صغيرة تبلغ ربع مساحة الميناء : وذلك بحجة أن السلطات الاسرائيلية ترغب « بتطوير » المساحة المتبقية ببناء رصيف خاص للسفن . ذكر أحد الصيادين من مدينة يافا لصحيفة الفجر في عددها الصادر في ٢١ تشرين الثاني عام ١٩٨٦ : (في ذلك اليوم ، وبينما كنا في طريق مودتنا من الصيد ، أصابتنا الدهشة عندما رأينا عددا كبيرا من رجال الشرطة الاسرائيليين وحرس الحدود . كانت القوات الاسرائيلية تتدفق من البر والبحر ، وكأنهم يحتلون المرفأ للمرة الثانية) . وحسب المعلومات التي نشرتها صحيفة الفجر ، فقد تمت العملية رغم حصول الصيادين على أمر من المحكمة العليا تمنع فيه ادارة المرفأ من القيام بأية تطورات فيه .

ارتأبت لجنة الصيادين العرب التي تشكلت حديثا بنوايا السلطات في السعي « لتطوير » العرب بعيدا عن يافا كلها ، لذا اشكت من المساعدة التي تقدم الى الصيادين اليهود من قبل وزارة الزراعة لشراء القوارب والشبكات ، في حين لا يحصل العرب على شيء من هذا القبيل ، ورغم كل ذلك كان عدد الصيادين اليهود ينخفض باستمرار . ويعتقد العرب أن (السبب في ذلك هو توفر فرص عمل لليهود أكثر من تلك المتوفرة للعرب) . قال أحد الصيادين من يافا لصحيفة الفجر : (يعتقد الناس بأن الصيد هو مهنة جيدة وتدر مالا وفيرا ، ولكن الحقيقة عكس ذلك تماما ، فمهنة الصيد ملأى بالمخاطر والمصاعب) . وتحتاج القوارب الى الكثير من العمل اليدوي الذي لا غنى عنه والذي يتطلب لإنجازه مجموعات تتألف من أربعة الى ستة اشخاص وذلك بسبب نقص الامكانيات المتوفرة لشراء قوارب صيد حديثة . ويستاء أيضا الصيادون من الأسعار المنخفضة التي يحصلون عليها من الشركات الاسرائيلية وتجار غزة مقابل رزقهم .

تمكن الصيادون الفلسطينيون في مدينة عكا العربية - اليهودية من تنظيم انفسهم بشكل أفضل من اخوانهم في يافا ، وذلك بعد أن شكلوا في عام ١٩٨٧ « جمعية صيادي عكا » للدفاع عن حقوقهم . يبلغ عدد الصيادين المرخصين في عكا حوالي ثمانين صيادا ، وربما يمارس المهنة

عدد أكبر دون ترخيص . ويعانون أيضا من حصرهم في منطقة من الميناء تزداد ضيقا يوما بعد يوم ، ولا يحق لهم ممارسة الصيد في المناطق المفتوحة من البحر لأسباب تتعلق بالأمن . وغالبا ما تفرض عليهم الغرامات لممارستهم الصيد في المناطق المحرمة ، ولكنهم يصرون على أن هذه المناطق غير محددة بشكل واضح . وكما حدث في يافا ، تخطط السلطات لتحويل المساحة المتبقية من المرفأ الى مرسى للسفن وتوفير التسهيلات الترفيهية للسفن الخاصة، لذا يخشى الصيادون أن يجبروا على الابتعاد بسبب وجود السياح الذين يتدمرون دائما من رائحة السمك . فقد تعرضت بعض منصاتهم للاحتراق ، وأغلقت (شركة تطوير عكا) المخزن الذي يحفظون فيه شباكهم وأجهزتهم . تتضمن قائمة طلباتهم ماييلي : منحهم حق الدخول الى المياه الجارية واستعمال مأخذ الكهرباء ، توسيع منطقة الميناء ، تخصيص قسم من منطقة الميناء من أجل اصلاح وصيانة الأجهزة ، الترخيص ببيع أسماكهم مباشرة ، وأخير إيجاد مكتب للجمعية .

في ١٢ ايلول عام ١٩٨٧ نشرت صحيفة الاتحاد مقالة بعنوان : (ياعرب عكا ، احذرو الخطر الجديد !) تتحدث فيه عن تصرفات السلطات ، وترتبط بين المضايقات المستمرة للصيادين والتحركات ضدعرب عكاشكل عام ؛ مستنتجة بأن الهدف المنشود إخلاء عكا من سكانها العرب . واستشهدت بحديث لعضو (يهودي) في مجلس بلدية عكا يحذر فيه بأن العرب سيصبحون الغالبية العظمى في عكا خلال الثمانية أعوام القادمة ، الأمر الذي يحتم الاسراع بايقاف الهجرة اليهودية من المدينة .

مهما كلن متواضعا :

في المدن العربية اليهودية المختلطة : كهكا ويافا وحيفا واللد والرملة، يبدو واضحا الى حد كبير تصميم فلسطيني ٤٨ على البقاء في أماكنهم لا يرحونها . فقبل عام ١٩٤٨ كانت نسبة العرب في تلك المدن الخمسة ٦٢.٥ ٪ من المجموع الاجمالي ، أما في نهاية عام ١٩٨٣ فقد بلغت النسبة ٧.١ ٪ (أي حوالي ٤٧.٠٠٠ نسمة) . على الرغم من أنه انخفاض شديد

إلا أنه يبقى أفضل من لا شيء ، وأراد العرب المحافظة على هذه النسبة على الرغم من الجهود اليهودية الحثيثة لمحو وجودهم من تلك المدن التاريخية .

في المدن المختلطة عاش العرب في مساكن (يطلق عليها بعضهم الفيت) أهملت حتى وصلت الى درجة كبيرة من التلف فأصبحت تسبب أخطارا جسدية لقاطنيها ، بسبب حجم الأعطال الموجودة في الابنية والشوارع والمرافق العامة، فضلا عن انتشار الأمراض الاجتماعية كجنوح الأحداث ، والبطالة وتماطي المخدرات . وغالبا ما تلجأ السلطات الاسرائيلية الى الجدل بأن تلك المنازل غير صالحة وبالتالي يتوجب إخلاؤها من سكانها العرب . وكان الفلسطينيون يصرون على امكانية اصلاح منازلهم اذا توفر قليل من الوقت والجهد ، لذا قاموا بتشكيل لجان للقيام بالاصلاحات بأنفسهم بعد أن أخفقوا في اقناع مجالس البلديات بتقديم المساعدة اللازمة لهم .

بلغ عدد السكان العرب في عكا في الثمانينات أكثر من ١٠.٠٠٠ نسمة، أي بنسبة ٣٠ ٪ من العدد الاجمالي . ومنعت السلطات عن تغيير الشكل الخارجي للمباني في القسم القديم من المدينة بحجة المحافظة على « شخصيتها » ، فساءت الأوضاع الى حد كبير . وصفت صحيفة (الاتحاد) في عددها الصادر في ٩ حزيران عام ١٩٨٨ المشكلة السكانية لاحدى العائلات على لسان الزوجة التي قالت :

(كنت أجلس في المنزل مع بعض جارائي نحتمي القهوة ، إذ اتين لمساعدتي في نقل الأثاث حتى نتمكن من تببيض المنزل قبل حلول عيد الفصح . وفجأة سقط حجر ، فصعقنا من الدهشة ، وبعد عدة دقائق سقط حجر آخر، فأسرعنا الى الغرفة الأخرى . وسمعنا جلبة مروعة، وخلال ثوان سقط فقط كله فوق الأثاث وفوق كل شيء) .

شكل فلسطينيو ٤٨ في عكا لجانا عرفت باسم (لجان الأحياء) لمساعدة مثل تلك العائلات المتضررة ، وفي عام ١٩٨١ انضمت هذه اللجان

مع بعضها وشكلت (المجلس) . ويعود السبب في تشكيل أولى هذه اللجان الى انتشار وباء الكوليرا في الأردن ، فخشي سكان عكا أن يصل إليهم . وقام (المجلس) بحملة تنظيف للمساكن من الاوساخ والفئران وما الى ذلك ؛ وبسبب اهمال الحكومة لهذه الأمور ، كان لا بد من اللجوء الى العمل الذاتي ، لذا استمر (المجلس) بعقد اجتماعاته .

يتألف (المجلس) من حوالي ٣٥ - ٤٠ عضوا ، وقد بادروا الى ترميم بعض المنازل ، واعادة بناء الجدران ، وسد المسارب التي يستعملها متعاطوا المخدرات ، وقاموا من ناحية ثانية بتنظيم محاضرات حول الصحة والهوية ، وعرض الأفلام في الأزقة . وتشمل مطالب (المجلس) إنهاء ترحيل العرب من عكا ، وتجديد المنازل القديمة ، وتوفير الكهرباء للمنازل المحرومة منها .

في الوقت نفسه ، تحدثت صحيفة (الاتحاد) في ١٢ ايلول عام ١٩٨٧ عن مناورات السلطات المستمرة (لالغاء الوجود العربي) من مدينة عكا القديمة . فقد نشرت نبأ قصيرا في رسالة اخبارية رسمية تحت عنوان (مأوى جديد من أجل سكان المدينة القديمة) ، تحدثت فيه عن خطط مجهزة حتى اليوم لايجاد مأوى جديد في المنطقة الشرقية المهجورة من عكا ، وتسمى منطقة (طانطور) السابقة . وذكر النبا أنه سيعقد في وقت قريب اجتماع بين شركة (أميدار) : الشركة اليهودية المسؤولة عن شؤون التطوير في المدينة ، والوزراء المعنيين للتوصل الى خطة تخرج السكان في عكا القديمة من الأبنية التي تشكل خطرا على حياتهم . وناشدت صحيفة الاتحاد عرب عكا بمقاومة تلك المحاولات التي تسعى لترحيلهم من (طانطور) والاصرار على تأمين مساكن مناسبة لهم في المدينة ذاتها ، وخاطبت الصحيفة أيضا مجالس المدن الجديدة في (ماكير) و (جديدة) - التي أشيدت مسبقا لاستيعاب مواطني عكا - بأن يتمسكوا بأراضي (طانطور) .

يبلغ عدد السكان العرب في مدينة الرملة ١٠٠.٠٠٠ مواطن من أصل العدد الاجمالي البالغ ٥٥٠.٠٠٠ مواطن ، وتعتبر من أكثر المناطق العربية

تخلفا ، فحتى عام ١٩٧٤ لم يتخرج منها طالب جامعي واحد . وفي نهاية الثمانينات ، كانت نتائج التقديرات وجود ثلثي الشباب شبه اميين أو اميين تماما . في عام ١٩٨٧ قامت مجموعة صغيرة من المواطنين المهتمين بتشكيل ما يسمى « برابطة الجامعيين » ، وأخذوا يزورون المنازل لاعلام الناس عن الرابطة ، وتلقوا ردود أفعال مختلفة تتراوح بين الاهتمام وعدم الادراك . وحاولوا الاحتجاج على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والرفع من مستوى النشاط الثقافي فلجأوا ، على سبيل المثال ، الى احضار فرقة مسرح الحكواتي الى الرملة . ولكنه كان نضالا شاقا ، إذ كان من العسير على الرابطة اقناع الناس بالخروج للتظاهر في (يوم السلام) في ٢١ كانون الأول عام ١٩٨٧ لأن معلوماتهم عما كان يجري في الضفة الغربية وغزة كانت محدودة جدا .

يعتبر (الدكتور عارف) من المؤسسين الرئيسيين للرابطة ، فقد انتقل والده الى الرملة بعد أن فقدوا منزلهم في يافا أثناء حرب ١٩٤٨ . ويعيش والد (الدكتور عارف) الآن في مساكن الفيتو العربية ، ويستعيد ذكرياته قائلا : (نحن اول عائلة عربية تنتقل الى هنا ، وكان جميع من حولنا من اليهود الذين اعتادوا على توجيه الاهانات إلينا . ثم انتقلوا الى شقق الجمعية ولم يتبق هنا الآن سوى العرب) . أما (الدكتور عارف) وعائلته فيعيشون في شقة في مبنى معظم قاطنيه من اليهود . قال (الدكتور عارف) :

(هنا في المشفى لا أواجه أية مشاكل مع زملائي من اليهود ، ولكنني أجد صعوبة في التعامل مع المرضى اليهود . دخلت مرة لمعيانة مريضة يهودية ، فقال زوجها : « اطلب الطبيب » ، أجبت : « أنا الطبيب » ، ولكنه رفض أن المس زوجته . وعندما طلبت الطبيب اليهودي الذي سأل الرجل عن سبب موقفه فأخبره : « لأنه عراقي » ؛ فما كان من زميلي إلا أن طلب منه مغادرة المشفى مع زوجته على الفور) .

في عام ١٩٨٠ كان عدد السكان العرب في يافا يتراوح بين ١٠.٠٠٠ و ١٧.٠٠٠ نسمة اي بنسبة ٣٪ من العدد الاجمالي . تأسس (حلف

عرب يافا) في عام ١٩٧٩ وفق القانون الخيري العثماني ، وأصبحت يافا جزءا من بلدية تل أبيب ، وخشي العرب من خطط (مدرون يافو) التي تهدف الى اعادة تطوير أجزاء من يافا ، ومنها المساكن العربية ، وتحويلها الى ابنية ترفيهية وتجمعات فندقية ، فيندثر بذلك أي أثر للعرب في يافا . في شهر آب من عام ١٩٨٠ أصدر الحلف نداء الى مواطني يافا يقول فيه : (اخواني وأخواتي ، حان الوقت الذي يجب أن يظهر فيه أولئك المسؤولين شيئا من التفهم لوضعنا ، وأن يمارسوا العدالة ولو بعض الشيء ؛ ومن يرغب في العيش بسلام عليه أن يتوقف عن ممارسات التمييز ولو بعض الشيء) .

في عام ١٩٨٥ بدأ الحلف بتطبيق برنامج نشط لم يد العون الى العائلات لاصلاح وتحسين اوضاع المنازل في المناطق العربية القديمة في يافا كالعجمي وجباليا . فساعدهم على بناء المطابخ والحمامات ، واصلاح الارضيات والنوافذ والابواب . وقدم الحلف بعض الاموال ، ولكن منعاً لخلق نوع من الاتكال ، اصر على أن تتحمل العائلات جزءاً من التكاليف . وفي عام ١٩٨٧ تأسس المركز الثقافي العربي في يافا كفرع عن الحلف (راجع قصة أديب في الجزء الثاني من الكتاب) ، ومهمته معالجة المشاكل الاجتماعية المختلفة لسكان يافا .

اهتم الحلف أيضا بالابنية العامة ، فقد خطط على سبيل المثال لتحويل برج مهجور لتخزين الماء ، يشرف على منظر جميل في الجزء العربي من المدينة ولكنه مليء بالنفايات ، الى مقهى لاهالي وللسواح . من ناحية ثانية ، لم يسمح لعرب يافا أن يرمموا ويجددوا ديرا قبطيا مغلقا ذا جمال آخاذ ، كانوا يرغبون باستعماله كمقر لاقامة الطلاب العرب .

ايقاف الصيانة :

ظهرت أيضا خلال الثمانينات حركة هدفها حماية الاماكن الدينية الاسلامية وتجديدها . ومن المجموعات الفعالة الطوعية في هذا المجال

الجمعية الاسلامية الاولى التي اتخذت مقرا لها في حيفا ، وعين (فتحي فوراني) أمينا للسر ، الذي أعد في ٤ ايلول عام ١٩٨٧ قائمة بأسماء الاماكن والمشآت الدينية التي خسرتها الامة :

(تم ابرام عقود وصفقات بتمثيل كاذب (عن الامة) بهدف اضعاف الشرعية على تدمير المساجد والمدافن . فقد تم تسليم مدفن (تاسو) الذي تبلغ مساحته ٨١ دونما بموجب عقد مشابه . واستأجر (غيرشون بيريز) شقيق الوزير (شمعون بيريز) مسجد حسان بك لمدة تسع وتسعين عاما بهدف انشاء مركز سياحي في الموقع . وبني في مكان مسجد (صحصاك) معمل للبلاستيك ومطعم على الطراز البلغاري وناد ليلي . وأشيد فندق الهيلتون على أنقاض مدفن عبد النبي . وبرزت بالطريقة نفسها جامعة تل ابيب على أنقاض مدفن شيخ مؤنس) .

كتب (فوراني) مقالات متعددة حول هذا الموضوع نشرت في كتاب صدر عام ١٩٨٤ باللغة العربية تحت عنوان (دفلا عن الجذور) .

تلقى فلسطينيو ٤٨ ضربة قاسية عندما خسروا الكثير من الاوقاف الاسلامية (وهي أملاك شخصية يمنحها المسلمون لتستعمل في أغراض خيرية في سبيل الله) . [لمزيد من المعلومات عن أملاك الاوقاف الواسعة راجع اطروحة (ميشيل دامبر) في جامعة لانكستر عام ١٩٨٣ تحت عنوان (الاوقاف الاسلامية الفلسطينية) ، دراسة في تحويل الرمز الديني] . فعلى سبيل المثال ، قبل عام ١٩٤٨ قدّرت أملاك الاوقاف من الاراضي الزراعية بنسبة ١٢ الى ١٨ ٪ ، بالإضافة الى ١٠٠.٠٠٠ دونم من الاراضي في المدن الفلسطينية ، و ٩٠ ٪ من أراضي عكا كانت ملكا للاوقاف قبل عام ١٩٤٨ . وكان يخصص ايراد هذه الاملاك لبناء المدارس والمستوصفات ودور الايتام والحمامات العامة والمرافق الخدمية الأخرى ، بالإضافة الى ادارة النظم الخيري . بعد وجود دولة اسرائيل اعتبر الوقف « ملكية الغائب » ، ويعود السبب في ذلك الى

حد ما الى غياب أعضاء المجلس الاسلامي الاعلى . فاحتج العرب بأن هذه الاملاك هي في سبيل الله ولا يمكن اعتبار الله (غائباً) ، ولكن دون طائل . وتحولت معظم الاملاك، بطريقة أو بأخرى الى الملكية اليهودية .

كتب (فوراني) حول هذا الموضوع بسخرية لازمة :

(في غضون ذلك يحرص علماء الاحصاء الحذررون على وجود سجلات دقيقة لحركتنا السكانية : معدل النمو السريع ومعدل الانخفاض البطيء . وبين الفينة والاخرى ، تنطلق صيحة شك تحذر من التزايد اللامحدود لهذه الاقلية البالغة الخصوبة ، يتبعها بشكل ثابت تحليل مطمئن يتضمن حقائق تثبت أن الامكانية غير موجودة وبالتالي لا مبرر لهذا الخوف ، ومع ذلك من الاسلم دائماً توخي الحذر والانتباه ، وحتى يتم ايجاد حل عملي يجب ابقاء الاقلية العربية - اذا استعملنا هذا التصريح - عند مسافة بعيدة آمنة ، عند طرف السياج . هذا يفسر سبب وجود مساكن الفيتو في بعض المدن مثل : حيفا ويافا والد والرملة . ويفسر أيضا الحصار الاستراتيجي للناصره وللعديد من القرى العربية التي ابتلعها سلسلة قوية من المستوطنات تقوم بالقضاء على اقتصادها ، واعاقه نموها وكتف أنفاسها تماماً .)

هناك بعض القصص التي تدل على اعمال ناجحة ، ففي يافا قرر العرب التمسك بمسجد حسان بك الذي اهلته السلطات عمدا حتى انهارت مثلدته عام ١٩٨٣ . وردا على صيحات الاحتجاج التي انطلقت في مختلف أرجاء البلاد ، سمح للعرب بتجديد المسجد عام ١٩٨٤ ، وجمعت الاموال لهذا الغرض من قبل الجماعة الفلسطينية . ولكن التجديد لم يكن بالمهمة السهلة ، ففي عام ١٩٨٥ تلقى العرب تهديدات مخيفة بتخريب المسجد اذا استمرت اعمال التجديد فيه ، وفي ٧ تموز عام ١٩٨٥ اقيمت قنبلتان يدويتان على المسجد . وفي عام ١٩٨٦ اصر رئيس مجلس تل ابيب - يافا على ايقاف العمل بحجة أن ارتفاع المئذنة يفوق التقديرات وفق رخصة البناء بمترو نصف ، ولكن استؤنف العمل فيما بعد .

وكذلك الامر في يافا ، فقد انتخب بعض أعضاء الجماعة للمرة الاولى في نيسان عام ١٩٨٨ جمعية اسلامية لتتحدى اللجنة التي شكلتها السلطات الاسرائيلية . واصرت هذه الجمعية على الاعتراف بها كممثلة حقيقية للجماعة الاسلامية في يافا ، وأن تكلف بمسؤولية الاوقاف . وذكرت بأن لجنة الاوقاف المكلفة من قبل الحكومة الاسرائيلية قامت مؤخرا بتوقيع عقد تبيع يوجبه مدفنا اسلاميا محليا الى مستثمري الاملاك وصرحت الجمعية (نحن لا نشق بلجنة القيمين هذه) .

وفي حيفا حاولت الجمعية الاسلامية التمهيدية في الثمانينات أن توقف عملية تدمير (المسجد الصغير) بهدف فتح طريق الى مكتب البريد ، وقدمت تقارير تثبت صلابة الاساس، وبالتالي وجوب المحافظة على البناء . وتم تحديد موعد لعقد اجتماع مع السلطات للاحتجاج على الخطة ، ولكن قبل الاجتماع بيوم واحد ارسلت البلدوزرات الى الموقع ودمرت نصف المسجد ، ولم تتوقف عن تدمير ما تبقى الا بأمر من المحكمة .

ونظمت ايضا الجمعية الاسلامية التمهيدية حملة تنظيف للمدفن الاسلامي في حيفا خلال شهر رمضان في ربيع عام ١٩٨٨ . وذكر بأنه شارك عدد كبير من الناس من مختلف الاديان في حيفا في الدفاع عن الوجود العربي التاريخي في المدينة . ومنذ ذلك الوقت لوحظ اهتمام متزايد من الشبان العرب للاعتناء بالمدافن الاسلامية وخدمتها .

القرى المقاتلة :

ليست المدن المختلفة بالمنطقة الوحيدة التي أصبح فيها الفلسطينيون منظمين وجازمين ، فقد تأسست اللجان أيضا في العديد من القرى لتقوم بنشاطات واسعة من بناء الشوارع وتنظيم المجاري الى انشاء رياض الاطفال . فعلى سبيل المثال ، في الثمانينات لم يكن في قرية (موسموس) مجلس محلي، وتقع هذه القرية في المثلث الشمالي (ويبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف نسمة) ، وكانت حجة السلطات الظاهرية أن

القرية صغيرة لدرجة لا تبرر وجود مجلس فيها ، لذا أسس سكان القرية في نهاية السبعينات (جمعية العمل التطوعية) ، وتعرض بعض أعضائها في بداية تأسيسها الى المضايقات والاعتقالات للقضاء على فكرة تأسيس هذه الجمعية ، ومع ذلك ، سُجلت (جمعية العمل التطوعية) عام ١٩٨٤ كمنظمة غير حكومية .

تحول معظم العمال في قرية (موسموس) الى عمال بالاجرة ، بعد أن خسرت القرية جزءاً كبيراً من أراضيها ، وكانت القرية تفتقر الى تسهيلات صحية جيدة ، وطرق معبدة ، ونواد رياضية ، ورياض أطفال ، مع مرور السنين ، قام أعضاء جمعية العمل التطوعيين بتسوية عدد من الطرق ، ومن ضمنها الطريق الذي يؤدي الى المدفن . وكذلك قاموا بشراء تراكتور ، وبلدوزر ، وعربة مقطورة من أجل جمع القمامة ، وإفراغ المجاري . وكان الأهالي يستأجرون هذه الآلات بأسعار زهيدة . وعندما عثروا على مقلب لنفاياتهم خارج القرية ، منعتهم السلطات من استعماله بحجة أن الأرض ملك للدولة ، وهددت بسجن السائق .

وأشادت (جمعية العمل التطوعية) أيضاً روضتين للأطفال ، ومن أفضل إنجازاتها المكتبة العمومية ، التي تحوي حوالي ٢٥٠٠ كتاب . وذكرت التقارير أنه بلغ عدد زوار المكتبة في شهر نموذجي ٧٠٩ أشخاص ، منهم ٥٤١ تلميذاً . وفي المجال الصحي قامت الجمعية بجمع التبرعات لتجهيز مستوصف ، فحتى ذلك الحين كانت تضطر الأمهات أن ينقلن أطفالهن الى المدن لإجراء الفحوص والحصول على الأدوية ، إذ لم يكن يوجد في القرية سوى طبيب واحد ولمدة ثلاث ساعات يومياً . من ناحية ثانية ، اهتم أهل القرية بحماية الإرث الحضاري (لموسموس) ، فيعتبر البشر الواقع في وسط القرية الموقع التاريخي الرئيسي الباقي لهم ، لذا قاموا بإصلاحه وبناء حديقة صغيرة تحيط به بغية تجديد (الصلة بين البشر والجيل الجديد) .

واجهت القرى أيضاً تحديات رئيسية للصحة العامة كنظام مجاري ناقص أو بالأحرى معدوم . ففي بداية الثمانينات ، لم يكن يوجد نظام مجاري مركزي في أية قرية عربية أو أية تجمعات بدوية ، فكثيراً ما كانت العائلات المتجاورة تتخاصم بسبب مياه المجاري السائلة من حفر الترشيح . وفي أواخر السبعينات تفشى وباء التيفوئيد في قرية عربا ، واكتسبت أم الفحم - التي كانت ما تزال مصنفة كقرية في ذلك الحين - شهرة سيئة بسبب ما عرف « بداء أم الفحم » ، وتجلت أعراضه بدوار وطفح جلدي نجم عن انعدام الشروط الصحية الجيدة ومياه المجاري التي تمر في مصارف مكشوفة عبر الشوارع . في الثمانينات ، تمكنت بعض القرى ، وبمساعدة «جمعية الجليل للبحوث والخدمات الصحية» ، من إنجاز المهمة ونهجت بعض القرى الأخرى مسراها من طريق قرض دائري (في الفصل الثالث توسعنا في دراسة الخدمات الصحية التي قدمتها الجمعية) . بحلول عام ١٩٨٧ تحولت شوارع أم الفحم الى مواقع بناء بعد أن كانت اقنية لمياه المجاري ، وذلك بعد إنجاز وتركيب أول شبكة المجاري فيها تحت الأرض .

تجلى مفهوم الاعتماد على النفس بشكل واضح للتعويض عن نقص مساعدة الحكومة المركزية في معسكرات العمل التطوعية التي انتشرت بشكل واسع في المدن والقرى العربية في السبعينات والثمانينات . بدأت بلدية الناصرة اتجاه العمل بـ ١٥٠٠ عامل متطوع (من العرب واليهود والزوار الأجانب) في معسكرها الأول عام ١٩٧٦ . وفي المعسكر الحادي عشر المقام عام ١٩٨٦ ارتفع العدد الى ٧٠٠٠ عامل ، في معسكر العمل الذي تم عام ١٩٧٦ ، أنجز ستة وأربعون مشروعاً تبلغ كلفتها ٢٥٠.٠٠٠ جنيه استرليني . وفي معسكر عام ١٩٨٦ أنجز تسعون مشروعاً تبلغ كلفتها ٦٥٠.٠٠٠ جنيه استرليني . وفي معسكر العمل عام ١٩٨٦ المقام في قرية (طيران) استمر العمل في المعسكر التطوعي الثالث مدة ٥٠٠ يوم ، واستعمل ٩٥٠ طن من المواد لتعبيد الطرق . وفي معسكر العمل في أم الفحم عام ١٩٨٦ قام ٦٠٠ متطوع ببناء ٢٥٠ متراً من الجدران ، وتعبيد ٤ كم من الطرقات ، وثلاثة ملاعب لكرة السلة ، بالإضافة الى

تمديد أنابيب المياه في مدرستين ، وبعض الأعمال الزراعية في حديقة مبنى البلدية التي تبلغ مساحتها خمسة دونمات .

قرى غير معترف بها ، ومنازل (غير شرعية) :

اكتشف فلسطينيو ٤٨ دون قصد منهم ، في نضالهم المستمر ، طريقة تحرك وعشرات الاعتراف في العمود الفقري الإسرائيلي : وهي خلق الحقائق . فبعد أن أثبت الصهاينة وجودهم بشكل لا يقبل الجدل ، أصبح من الصعب جداً تعرية الحقائق بعد ترسيخها . من ناحية ثانية ، تتألف الحقائق الفلسطينية ، التي ولدت نتيجة لضرورة ماسة ، من آلاف المنازل التي بناها فلسطينيو ٤٨ دون رخص لاستحالة الحصول على هذه الرخص . تتألف بعض هذه المنازل (غير الشرعية) من مجموعات تشكل ستين قرية غير معترف بها ، وتنتشر المنازل الأخرى في المدن والقرى العربية (المعترف بها) ، ومخيمات البدو . فقد تحولت تلك الاستجابة المرتجلة ، التي تمخضت بعد سنوات عن الحاجة الملحة للحصول على مكان للعيش فيه ، الى نضال منظم يجب الاستمرار به . وتعرض الفلسطينيون ، عبر هذا النضال ، الى تدمير منازلهم ، ودفع غرامات كبيرة وقضاء سنوات في السجن ؛ ولكن بقيت الغالبية العظمى من المنازل (غير الشرعية) في مكانها .

تعتبر (لجنة الأربعين) القوة المنظمة الأولى في هذه المنطقة التي تأسست خلال عامي ١٩٨٧-١٩٨٨ لتمثيل مصالح تلك القرى والنواحي الصغيرة التي لم تعترف الحكومة بوجودها . وأطلق عليها هذا الاسم لأنها ضمت بشكل أولي ممثلين عن أربعين قرية (غير معترف بها) ، وحافظت على اسمها على الرغم من أنها أصبحت تمثل في عام ١٩٩٠ حوالي ستين قرية .

تضم أصغر قرية من تلك القرى حوالي ثلاثين الى أربعين شخصاً ، بينما يأوي أكبرها حوالي ٤٠٠ شخص ، ويعتقد أن جميع هذه القرى

تضم حوالي ١٠.٠٠٠ شخص . وبما أن الحكومة لم تعترف بها ، لذا لا يوجد فيها مياه جارية أو كهرباء ، أو طرق معبدة ، أو مجاري مياه ؛ هذا إذا لم نأتِ على ذكر المدارس والمستوصفات . حاول البعض (تأمين) هذه التسهيلات من القرى اليهودية أو العربية المجاورة ، ويلجأ آخرون إلى استعمال الصهاريج أو الحيوانات لنقل المياه . وفي معظم تلك الحالات ، بُنيت تلك القرى فوق أراضٍ زراعية يملكها أصحابها أنفسهم ، إلا أن القانون الإسرائيلي لا يسمح بالبناء فوق الأراضي الزراعية .

ومضت الشرارة الأولى التي تمخض عنها تشكيل « لجنة الأربعين » من قرية (عين هود أبو الهيجا) ، التي تضم ١٦٠ شخصاً يقطنون بين جدران سبعة وعشرين منزلاً . تقع قرية (عين هود) على المنحدرات الغربية لجبل الكرمل ، وتشرف على البحر ، وتعتبر قصة كيفية إيجاد قرية (عين هود) وسبب هذا الوجود تحليلاً جيداً للوضع .

وصف (محمد أبو الهيجا) ، أحد قادة لجنة الأربعين ، ملحمتهم لصحيفة الاتحاد في ١ تموز عام ١٩٨٨ :

(أصبح المواطنون الحاليون لـ (عين هود) لاجئين بعيداً عن منازلهم في قرية (عين هود) في عام ١٩٤٨ ، وتحولت القرية بعد ذلك إلى مستعمرة للفنانين [اليهود الإسرائيليين] تحت اسم (عين هود) . وقد قدم السكان الأصليون إلى هذا المكان حيث قاموا برعي مواشيهم ، وعاشوا في أكواخ على منحدرات الجبل المطل على مدينتهم السابقة) .

وُلد (محمد أبو الهيجا) في قرية عين هود الجديدة ، وتابع يقول :

(بعد فترة وجيزة من مجئنا إلى هذا المكان ، بدأت السلطات بممارسة الضغط علينا وتشديد المضايقات لحثنا على الرحيل . وفي عام ١٩٥٨ قررت المحكمة أن الأرض التي نعيش عليها هي أملاك دولة ، وبدأت بعد ذلك المباحثات بين (سلطة الأرض الإسرائيلية) وسكان قرية

عين هود حول مصير هذه الأرض . وخلال هذه المباحثات قدمت (السلطة) الى جدي ثلاثة اقتراحات : إما أن نشتري الأرض التي نعيش عليها ، أو أن نرهنها ، أو أن نستبدلها بقطعة أرض نملكها في منطقة عين هود الأصلية . رفض جدي عرضهم ، مؤكداً أن الأرض التي نعيش عليها ما هي إلا جزء من أملاكنا المفتصة . واستمرت (سلطة الأرض الإسرائيلية) في محاولاتها لطردها ، تاركة باب المناقشات مفتوحاً . وفي عام ١٩٦٢ ، أخبر جدي المسؤول في (السلطة) عن رغبته في شراء الأرض التي نعيش عليها ، بعد أن سأم من ضغوطهم وإزعاجاتهم ، ولكن (السلطة) رفضت البيع بحجة أن أملاك الدولة لا يمكن أن تباع الى العرب . ثم قامت باستملاك مئة دونم من أراضي القرويين ، ووضعت سياجاً حول منازل القرية ، وقامت بزراعة أشجار السرو بين بساتين الزيتون ، بغية عزل القرية ومحاصرتها ومنع أهلها من حراثة أراضيهم ، فخسرنا بذلك جزءاً رئيسياً من أسباب رزقنا . واستمرت السلطات في محاولاتها ، فقد صرحت في بداية السبعينات أن الأرض التي نعيش عليها هي حديقة وطنية . وبعد بضعة سنوات — عندما كان شارون وزيراً للزراعة — صدرت الأوامر بأننا يجب أن نبيع هواشيننا ، وبذلك فقدنا مصدر رزقنا الأخير ، ولم يعد أمامنا خيار سوى العمل بالأجرة خارج القرية ، والمعاناة من الجهد اليومي في التنقل) .

استمر (أبو الهيجا) يروي قصة قريته :

(في منتصف الخمسينات بدأنا بالانتقال من الأكواخ الى مساكن حجرية ، وفي عام ١٩٦٤ كان هناك خمسة عشر منزلاً حجرياً . في ذلك الوقت لم يكن قد صدر بعد قانون نظام البناء الذي يستعمل الآن لإعطاء الأوامر بهدم المنازل . في عام ١٩٧٨ تأسست لجنة محلية في عين هود ، وبدأنا مفاوضاتنا مع مجلس (هوف هاكارميل) للحصول على بعض الخدمات . وفي عام ١٩٨٠ تم رسم خريطة لمناطق القرية ، ولكن السلطات رفضتها . وفي عام ١٩٨٥ تأسست لجنة عربية — يهودية للدفاع عن عين هود . وفي تموز عام ١٩٨٦ صدرت الأوامر بتدمير ثلاثة

منازل في عين هود ، فنفلدنا إضراباً لمدة خمسين يوماً ، قمنا خلالها بالاتصال بكافة المؤسسات الحكومية والشعبية لإيقاف التدمير ، ونجحت مساهمتنا بفضل التأييد العربي - اليهودي الواسع) .

ومع ذلك صدرت فيما بعد سبعة أوامر تدمير ضد أصحاب المنازل في عين هود .

نجح أهالي قرية (عين هود) في توفير بعض الخدمات الأساسية لأنفسهم ، فأصبحت المنازل مجهزة بأنظمة طاقة شمسية ، ويعتمد الأهالي على نظام يشبه الجمعيات التعاونية اليهودية من أجل توفير الخدمات الصحية والبريدية . وقام سكان القرية ببناء مدرسة تتألف من غرفتين ، ويحصل المعلمون على رواتبهم من الحكومة ، ويواصل حالياً خمسة شبان من القرية دراستهم الجامعية .

هناك قصص مشابهة من القرى الأخرى مثل قرية (عرب قميرات) التي لم يُسمح فيها بأي بناء جديد منذ عام ١٩٤٨ ، ويعيش في كل منزل من منازلها الأربع والعشرين ثلاث عائلات . ويذكر السكان أنهم يعيشون في هذه القرية منذ أيام الحكم العثماني ، وأنهم بدؤوا ببناء المساكن الحجرية أثناء فترة الانتداب البريطاني . وتعتبر القرية بأكملها مبنية بشكل (غير قانوني) على أرض زراعية ، وصدر أول أمر بالتدمير قبل خمسة وعشرين عاماً ، ولكن في الواقع تهدم منزل واحد فقط عام ١٩٨٥ .

نظمت لجنة الأربعين رحلات سياحية للصحفيين ولبن يهتمهم الأمر ليقوموا بالدعاية لوضع القرى . وذكرت صحيفة الفجر في عددها الصادر في ١٢ حزيران عام ١٩٨٨ :

(أثناء رحلتنا الى القرى ، خشيت أنا وأصحابي أن يكون دبلنا المهندس محمد أبو الهيجا قد ضل طريقه ، فثناء منورنا في الجزء الغربي لما يسمى (بالمنطقة التاسعة) لم نر سوى لوحات تشير إلى المستوطنات اليهودية ، وليس هناك ما يدل على وجود قرى عربية . ثم فجأة وقبل

أن نصل إلى برج المراقبة في مستوطنة عشتار اليهودية ، استدار دليلنا،
وسلك طريقاً صخرياً خطراً لا يمكن أن تمر عليه السيارات . وقرر سائق
التاكسي الذي كان يقل صحفياً يهودياً من مجموعتنا أن يعود أدراجه قائلاً
بأنه لا يرغب في المخاطرة بسيارته . رأينا أمامنا أكواخاً من الحديد المموج،
التي تستعمل كمنازل للسكن ، وعندما اقتربنا رأينا اثنين من الصبية
يحملان الماء على البعير . لقد وصلنا إلى عرب (النعيم) يوضح
لنا (نمر) أن القرية تعاني من كونها وضعت في المنطقة التاسعة ، فقد
استُملك قسم من الأراضي العربية الخصبة وخصصت لأعمال المناورات
العسكرية . وكثيراً ما يضطر القرويون للجوء إلى الكهوف والاختباء خلف
الأشجار هرباً من الرصاص المتناثر) .

استمرت لجنة الأربعين في نضالها إذ كلفت مهندسين مدنيين بإجراء
دراسات اجتماعية واقتصادية للأوضاع ، والقيام برسم خريطة موحدة
للمناطق من شأنها أن توحد القرى ضمن خطة التنمية الرسمية للبلد .
وعقدت لجنة الأربعين أول اجتماع عام لها في ١٨ حزيران عام ١٩٨٨ في
قرية شفا عمرو . وفي اليوم التالي ألغيت قرارات التدمير التي صدرت
بحق سبعة منازل في عين هود . وتأمل أبو الهيجا بالتوصل إلى حل
للمشكلة عبر المفاوضات .

الحقيقة ولو لمرة واحدة :

كما ذكرنا سابقاً ، في نهاية عام ١٩٨٦ قُدِّر عدد المنازل (المخالفة)
بـ ٤٥٠٠ منزل يقع قسم كبير منها في المدن والقرى العربية المعترف بها
رسمياً ، حيث وضعت قوانين صارمة على موضوع الإسكان ، فلم يعد
باستطاعة الشبان والشابات الزواج وتأسيس أسر ، وهناك العديد من
القرى التي لا يوجد لها مخططات على الإطلاق، حتى في حال كانت العائلات
تمتلك الأرض ، فلا يسمح لها بالبناء ما لم تكن الأرض ضمن مخطط
المنطقة . وخلال العشرين عاماً الماضية تحاول الكثير من المدن والقرى
العربية ، المنظمة وفق مخططات رسمية ، أن تعدل من تلك القوانين
لصالح التوسع السكاني ولكن دون جدوى .

وتتعرض المدن والقرى العربية إلى مزيد من الضغوط كالإجراءات التي اتخذت لمنع البناء بجانب طريق رئيسي . فعلى سبيل المثال ، لا يستطيع سكان قرية مجد الكروم العربية البناء ضمن مسافة تبعد مائة متر عن طريق عكا - صفد ، ومن ناحية ثانية ، يسمح لسكان القرية اليهودية المجاورة الكرميل بالبناء ضمن مسافة تبعد خمسة وعشرين متراً عن الطريق العام . لذا اضطرت كثير من العائلات الى البناء دون ترخيص ، بالرغم من تهديدات السلطات بفرض الغرامات ، والسجن والتدمير .

لاتتوقف السلطات الإسرائيلية عن محاولاتها المتكررة بتدمير المنازل « المخالفة » : ففي صيف ١٩٨٨ هدمت منزلين في قرية آرا ، وأوعدة منازل العرب للتدمير الفوري ؟ » وعلقت صحيفة (جيروزالم بوست) : في هورا . وفي تشرين الثاني ١٩٨٨ دمرت خمسة عشر منزلاً في طيبة - آخر قرية عربية تحولت إلى مدينة - ويبلغ عدد سكانها عشرين ألف نسمة ، وارتفعت صيحات الاحتجاج ضد التدمير الذي حصل في طيبة حتى في الصحف الإسرائيلية ، فقد تساءلت صحيفة (هاميشمار) : (لماذا تقابل انتهاكات اليهود لقانون البناء بفرض الغرامات ، بينما تتعرض منازل العرب للتدمير الفوري ؟ » وعلقت صحيفة (جيروزالم بوست) : (تتركز نظرة وزارة الإسكان الجماعية بشكل رئيس على المنازل اليهودية ، في حين لا تبذل جهداً كبيراً لتسهيل الصعوبات في القطاع العربي ... يمكن فقط أن تؤول الأمور إلى الأسوأ طالما أن مجرفة البلدوزر هي التي ترمز إلى سياسة الاسكان في القطاع العربي بدلا من رافعة البناء) .

على الرغم من ردود الافعال القوية هذه ، فقد أوقعت مشكلة البناء « المخالف » في القطاع العربي الحكومة اليهودية المبدعة في حيرة كبيرة ، فتشكلت عام ١٩٨٦ لجنة لتحديد تلك الصعوبات ودراسة المشكلة ، برئاسة نائب المدير العام في وزارة الداخلية (ياكوف ماركويتس) . فأصدرت اللجنة ما سمي آنذاك (بتقرير ماركويتس) الذي هاجمه على الفور فلسطينيو ٤٨ بشدة ، فقد كانت لجنة (ماركويتس)

واحدة من لجان عديدة شكلت لدراسة مشكلة السكن المخالف في القطاع العربي ، على الرغم من وجود المشكلة ذاتها في القطاع اليهودي أيضا . في الواقع اعترف التقرير ، في مثال معبر عن المعايير المزدوجة ، بوجود المشكلة في القطاعين العربي واليهودي ، الا أنه صرح بوقاحة : (ركزت اللجنة ، ضمن صلاحيتها ، على دراسة الوضع في القطاع الذي يضم الاقليات ، وهي بالتالي لم تتوجه الى دراسة الوضع السائد في القطاع اليهودي) . ووضحت اللجنة هذا الكلام بما يلي :

(لقد استأثر البناء المخالف في القطاع العربي باهتمام خاص ، ويبدو أنه من الأسباب الرئيسية لذلك وجود بعض حالات البناء المخالف في هذا القطاع ، ليس لأنها تخل بالشروط الموضحة في الرخصة ، بل لأنها بنيت دون ترخيص على الاطلاق) .

أشار التقرير الى ٤٥٣٢ منزلاً عربياً ، تقع خارج مخططات التطوير ، وقد صدرت بحقهم قرارات التدمير في شمال ووسط منطقتي حيفا والقدس . وفي منطقة الجنوب ، التي تضم في معظمها قبائل البدو ، أشار التقرير الى ٩٤٤٥ بناءً مخالفًا : (١٦١ مبنى و ٧٨٣ رهكوخاً) بالإضافة الى ٨١٨ خيمة . وأوصى التقرير بادخال معظم الابنية الواقعة في شمال ووسط منطقتي حيفا والقدس ضمن مخططات التطوير ، ومنع بضعة مئات من المنازل ، التي تم تهديمها ، من استعمال الطلاء الرمادي . وفي المنطقة الجنوبية ، أوصى التقرير برفع (التجميد المفروض) على البناء في مناطق البدو كهوراء ولاقية ، والموافقة على مخططات التطوير ، ثم تنفيذ قرارات التدمير وذلك بعد مضي أربع سنوات .

وضح التقرير بعض الأسباب التي دفعت الناس للبناء المخالف : (يملك عدد كبير من البدو تأكيدات خطيه من « سلطة الأرض الاسرائيلية » لشراء أراضٍ لأغراض البناء ، الا أن « السلطة » غير قادرة على تحديد وتعيين قطع الأرض المشتراة لأغراض البناء . ونتيجة لذلك ، قام البدو بإشادة مبانٍ مؤقتة دون ترخيص) .

واعترف تقرير (ماركويتس) ضمناً بأن الحقائق قد تحددت :
 (لا يمكن إلغاء النتائج ، حيث أن الآلاف من قرارات التدمير التي لم
 تنفذ حتى الآن تبرهن على فشل السلطات بكبح جملة الانتهاكات التي
 تخرق القانون) . وصرح بأنه مما لا يدعو للعجب أن (التجربة أثبتت
 أن خارقي القانون لم ينفذوا أوامر المحكمة التي طلبت منهم القيام بعملية
 الهدم) . الى جانب ذلك (ينتهز خارقو القانون فرصة وجود دملوى
 قانونية للحصول على الاعتراف بالحقائق الموجودة على أرض الواقع) .

قدم التقرير المزيد من الإيضاح على الشكل التالي :

(نشأ المعجز في فرض القانون في هذا المجال بشكل جزئي من نقص
 القوة البشرية الضرورية من أجل مراقبة البناء المخالف ومنعه ، ودعم
 هذا المعجز الصعوبة العملية والعامة المتعلقة بعملية تهديم المباني .
 وتساهم هذه الصعوبة ، التي تظهر بوضوح في تلك الحالات التي ترافق
 فيها التهديم مع أعمال الشغب والعنف ، في تقييد السلطات المحلية ،
 وربما السلطات الحكومية أيضاً ، أثناء عملية تنفيذ قرارات التدمير) .

ويمكن تقديم توضيحاً مسهباً عن مثل هذه الحالات الجامعة ، اذا
 لزم الامر ، من الانتفاضة المصغرة التي اندلعت في طيبة عندما تم تدمير
 خمسة عشر منزلاً في تشرين الثاني عام ١٩٨٨ . فقد انتشرت أعمال
 شغب القيت فيها الحجارة والزجاجات على رجال الشرطة ، وجرح
 على إثرها أربعون شخصاً .

قام شاهد عيان باستحضار المشهد بشكل حي في وصف نشرته
 صحيفة الهدف في رسالتها الاخبارية الصادرة في كانون الثاني عام ١٩٨٩
 وذلك بعد بدء غارات التدمير :

(استيقظت في التاسعة صباحاً لأسمع أصواتاً مرتفعة في الشارع ،
 وشاهدت مئات الطلبة ينطلقون في الشارع وهم يرفعون الشعارات

ويرددون الأناشيد الوطنية الفلسطينية . حاولت الاتصال بالقدس ،
إلا أن الخطوط كانت مقطوعة . كان منزل عمتي ، الذي تعيش فيه مع
أولادها الثمانية ، أول منزل يتم تهديمه ، ولم تكفّ عن البكاء وهي
تراهم يحيلون منزلها الى خراب ؛ وتجمع مئات الطلاب في المنطقة
يصيحون في وجه الجنود : (أنتم وحوش ضاربة ، وننتظر سقوط دولتكم
بقارغ الصبر !) ثم ذهب الجنود لتدمير المنازل الثلاثة الأخرى ، وكانت
منازل كبيرة ، ووقف فوق أسطحها حوالي مائة طالب يحاولون إعاقة
الجنود عن المضي في مهمتهم ، إلا أن جهودهم ذهبت أدراج الرياح ، إذ
اندفع رجال الشرطة وحرس الحدود الى المنطقة وأجبروهم على التفرق
مستعملين الغازات المسيلة للدموع . فشحرنّا وكان النار تحرق صدورنا ،
وسقطنا على الأرض لا نعي شيئا ... شكل الجنود طابورا وقف في
كل جانب ستة منهم ، وبدؤوا ينهالون بالضرب على رؤوس الفتيات ،
فسالت الدماء على وجوههن) .

في اليوم التالي توقف كل شيء في طيبة عن الحركة والعمل تعبيرا
على الاحتجاج ، ودعمت « اللجنة الإقليمية لرؤساء المجالس العربية
المحلية » الى إضراب عام في ١٥ تشرين الثاني عام ١٩٨٨ . أشارت
صحيفة الهدف الى تزامن هذا الإضراب مع اجتماع المجلس الوطني
الفلسطيني الذي أعلن عن قيام دولة فلسطينية مستقلة . وعندما لفت
نظر بعض قادة فلسطينيي ٤٨ إلى هذا الموضوع أجابوا بحدة : (لسنا
نحن من لطخ الخط الأخضر - باحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة -
بل السلطات الإسرائيلية هي التي أبادت ما يسمى بالخط الأخضر ، بنقل
أساليبهم القمعية من الأراضي المحتلة الى هنا) .

اعترض فلسطينيو ٤٨ على تقرير (ماركويتس) ككل ، مشيرين
الى عدم وجود عربي واحد في اللجنة ، ومعترضين على وصفهم بخارقي
القانون ، ويوجهون اللوم الى التأخير في الموافقة على مخططات التنظيم التي
تحدد وضعهم . ويقولون أيضا إن السلطات قد بدأت بتنفيذ البنود

المتعلقة بالتدمير ، ولكنها لم تنفذ الجوانب الأخرى من التقرير ، مثل توفير مخططات تطوير مناسبة .

تعود مسألة الأرض والملكية برمتها الى صميم الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي ، ويبدو واضحاً أن هذه المسألة ما تزال معقدة حتى الآن كما كانت عام ١٩٤٨ . ويبدو أن الأساس اليهودي غير آمن على الرغم من سيطرته على معظم الموارد الموجودة في القسم الفلسطيني الذي تحول الى دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ . وكما رأينا في الصفحات السابقة ، هناك ممانعة واضحة لقبول أي وجود عربي في إسرائيل (إذا لم نتطرق الى النمو العربي الطبيعي المطرد) . ومما لا يدعو للشك بأن الوجود الفلسطيني هو بحد ذاته يذكر بأن البلد كان ، ومنذ أربعة عقود فقط ، فلسطين ؛ وأن اليهود كانوا ، ومنذ عهد قريب ، بحد ذاتهم اقلية . فضلاً عن ذلك يعتبر الوجود العربي تحدياً في وجه إسرائيل يحيا من أجل تحقيق مطالبه بالديمقراطية ، والمعاملة العادلة لجميع المواطنين . والمعضلة التي تواجه الدولة اليهودية هي أنه حالما تصبح دولة ديمقراطية، مع الإجماع على افتراض ذلك مسبقاً ، فإنها لن تصبح بعد ذلك دولة يهودية .

من جانبهم ، لا يتمتع فلسطينيو ٤٨ برفاهية توفر المكان وراحة التسهيلات لكي يتسنى لهم التفكير في المواضيع المتعلقة بالوجود ، بل يجتهدون للمحافظة على القليل المتبقي بين أيديهم ، من خلال اللجان المتطوعة والجمعيات ، ويعملون كمجوعات أو أفراداً ضمن نظام يمارس ثقله عليهم بشدة . ولا يتسنى للمرء سوى أن يأمل ، كما أمل (محمد أبو الهيجا) من عين هود ، أن تسوى المشكلة عن طريق المفاوضات لا القوة .

* * *

الفصل الثالث

الخدمة

(ينظر الى العرب الاسرائيليين كضحايا سلبين لعراعات
« النظام الأعلى » ، وحتى تتغير العلاقات السياسية بشكل
مفاجيء ، يبقى المواطن الفرد عاجزا في وجه الصراع ... [نحن
نعم] انه ، على النقيض تماما ، من الضروري ايجاد مؤسسات
مستقلة تكون قادرة على تقديم الخدمات المناسبة لمجتمعنا وتلبية
متطلباته) .

(مربى من دار الطفل)

جهد فلسطينيو ٤٨ أيضا لتعزيز التطور الاقتصادي والاجتماعي
داخل جماعتهم الى جانب نضالهم للمحافظة على مصدر رزقهم ، فقد
تأسست عشرات الجمعيات المتطوعة خلال الخمسة عشر عاما الاخيرة
لخدمة الجماعة في شتى المجالات : كالثقافة والشباب والصحة . وفي
نهاية الثمانينات قدر عدد الجمعيات المتطوعة بحوالي ثمانين جمعية
رئيسية . ولفشلها في الحصول على الاموال من الهيئات الحكومية
الاسرائيلية ، ولكون الميزانية المخصصة للمجالس البلدية العربية ليست
سوى جزء يسير من المبالغ المخصصة للمجالس اليهودية ؛ لذا عملت هذه
الفئات على جمع الاموال من الجماعة نفسها ومن وكالات التنمية
والمؤسسات الخيرية في الخارج . ومن خلال جهدها في توليد الاحساس
الفلسطيني بالاعتماد على النفس ، عملت أيضا على توليد احترام الذات
وتعزيز الشعور بالهوية .

لقد تم توثيق سياسة التمييز التي واجهها فلسطينيو ٤٨ في المجال الاجتماعي - الاقتصادي بشكل جيد . فقد وصفت الأستاذة (إيللا ويستلاند) التي عملت مع فلسطيني ٤٨ عام ١٩٦٩ ، التغييرات التي طرأت في العشرين عاما الأخيرة ونشرتها في صحيفة (ميدل إيست أنترناشيونال) الصادرة في ١٩ كانون الثاني عام ١٩٩٠ . وذكرت بأنه يمكن تلخيص المزاج السائد بين فلسطيني ٤٨ في بداية العقد الجديد بكلمتين رئيسيتين هما : البقاء والصمود . ولكنها حذرت من امكانية شعورهم بالضجر من هذا الصراع الشاق ، وتطلعهم الى ولادة انتفاضة .

(لاحظت من خلال لقاءاتي مع عدد من الأشخاص أن مستوى الثقافة والطموح المؤثر على نحو متزايد لدى جيل ما بعد ١٩٦٧ من الطلاب العرب الذين تركوا مقاعد الدراسة ، لم يزل حاجزا واحدا من طريقهم إلا لضعفهم أمام الآخر . فقد انتشرت سياسة التمييز العنصري وخاصة في مجال العمل . فعلى سبيل المثال : يشتري (فريد) حانة من شخص يهودي باعتبارها مؤسسة تجارية ثم يكتشف حرمانه من الحصول على رخصة لاستمرار العمل . يكتب (نبيل) في مجلة الحزب الشيوعي ثم يكتشف أن المدرسة التي قدمت له العمل لا تستطيع أن تحصل على موافقة الحكومة الضرورية لاستخدامه . تحصل (ليلي) على عمل في مصرف ، ولكن بعد مضي عشرين عاما تكتشف بأن موضوع ترقية كان يهمل باستمرار . ولا يحق لأي فلسطيني ، مهما كانت مؤهلاته ، أن يجد عملا في مجال الأعمال الالكترونية ؛ فقد حُرم الفلسطينيون من الأعمال التي تعتبر بالغة الدقة وذلك لأسباب أمنية) .

كان التمييز العنصري ضد فلسطيني ٤٨ موضوعا لدراسة جديدة كلف بها (المركز الدولي اليهودي الاسرائيلي لسلام في الشرق الاوسط) ومولته مؤسسة (فورد) ، وأطلق عليه العنوان التالي : (ظروف وأوضاع العرب في اسرائيل) . وأعلنت النتائج بشكل واسع وكشفت عن بعض الاحصائيات التالية : يقع ٤٠٪ من الأسر العربية تحت خط الفقر ، ويعيش حوالي ٢٦٪ من العائلات العربية في ظروف غير

مريحة على الاطلاق ، في مقابل ١١٪ من العائلات اليهودية التي تعيش في المستوى ذاته . يضاف الى ذلك تخلف المجالس العربية المحلية على الدوام عن نظيرتها اليهودية في جميع المجالات ، وخاصة مخصصات الميراثية .

وسعى الفلسطينيون أيضا الى تحليل مشاكلهم وتدعيمها بالوثائق في المجال الاجتماعي (راجع الفصل الثاني) . لهذا السبب عقدت مؤتمرات حول الثقافة عام ١٩٨٤ ، والصحة عام ١٩٨٦ ، والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية عام ١٩٨٧ . نجح مؤتمر عام ١٩٨٧ بإثارة اهتمام واسع النطاق ، ومهد الطريق (ليوم المساواة) في حزيران ، وشارك في رعاية المؤتمر : « اتحاد خريجي الناصرة النشط » (الذي تأسس عام ١٩٧٣) ، « لجنة الدفاع عن الأرض العربية » ، و « اللجنة الاقليمية لرؤساء المجالس المحلية العربية » . وكما قال سكرتير اتحاد الخريجين الباحث الفرنسي (سروان دويري) : (يشعر الناس بأن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في القطاع العربي مؤلمة الى حد كبير) . وقامت اللجنة التنظيمية ، في اطار تحضيراتها للمؤتمر ، بعقد أربعين اجتماعا في القرى والمدن العربية ، الأمر الذي ساعد على تقييم الأوضاع في كل موقع على حدة .

وحضر المؤتمر عند انعقاده ٥٧ فلسطينيا (منهم ٣٩ شخصا من رؤساء واعضاء المجالس ، ٧٤ معلما وباحثا اجتماعيا ، و ٧٠ نقابيا واقتصاديا وطيبيا ومحاميا . وبلغت نسبة النساء الحاضرات حوالي ٣٢٪ من العدد الاجمالي) . قدر المتحدثون في المؤتمر نسبة البطالة بأنها تتراوح ما بين ٢٠ - ٢٣٪ من قوة العمل العربية . وذكروا بأن ٥٠٪ من العمال العرب يتلقون اجور تنخفض عن الحد الأدنى ، ويبلغ مستوى الاجر العربي ٦٠٪ من الاجر اليهودي . أما مشكلة السكن فقد بلغت مرحلة التآزم : إذ أن ٢٤٪ من العائلات العربية يعيش ثلاثة أو أكثر من افرادها في غرفة واحدة وذلك بالمقارنة مع ١٪ من العائلات اليهودية . وفي حي « المعجمي » في يافا كان يوجد ١٣٪ من رؤساء الاسر العربية في

السجن ، بالمقارنة مع ٦٪ من رؤساء العائلات اليهودية . وبلغت نسبة متعاطي المخدرات ٣١٪ من العرب بالمقارنة مع ١٥٪ من اليهود . ويحتاج حوالي ٣٤٪ من العائلات العربية الى خدمات اجتماعية ، بالمقارنة مع ١٧٪ من العائلات اليهودية . وبلغت معدلات التخلف عن الدراسة نسبة عالية ، حتى أن حوالي ٥٠٪ من الطلاب العرب لا يصلون الى المدارس الثانوية .

التربية والتعليم من أجل التغيير :

في الثمانينات بلغت الولادة العربية الجديدة مداها الكامل ، وانصببت المزيد من الجهود في مجال التربية والتعليم بعد أن أحس العرب بأنه عنصر حاسم في التطور السياسي والاقتصادي للفرد والمجموعة ككل ؛ وعلى أية حال ، كان من الضروري بذل المزيد من الجهد في هذا المجال . في مقالة نشرت في مجلة (المواقب) في عددها الصادر في ٢ - ١١ كانون الاول عام ١٩٨٥ ، أشار المربي الفلسطيني الراحل الدكتور (سامي مرعي) الى أنه على الرغم من انخفاض معدل الامية العربية الفعلية من ٦٤٪ في عام ١٩٦١ الى ٣٠.٥٪ في عام ١٩٧٩ ، إلا أن القطاع العربي كان متخماً بالصعوبات . في العام الدراسي ١٩٨١ - ١٩٨٢ اضطرت المدارس العربية لاستئجار ما يقارب ٥٠٠٠ غرفة لاستيعاب تلاميذها (بالمقارنة مع ١٠٠٠ غرفة في القطاع اليهودي) ؛ ومن أصل ١١٩٩٠ طالب عربي بدؤوا المرحلة الاعدادية عام ١٩٧٤ - ١٩٧٥ ، وصل فقط ٣٨٢٧ طالب الى الصف الثاني عشر ، نهاية المرحلة الثانوية .

في مقالة أخرى نشرتها صحيفة (دراسات فلسطينية) عام ١٩٨٥ ، عالّج الدكتور مرعي مضمون التربية والتعليم الفلسطيني . فبالإضافة الى مناهج الدراسة الذي يعكس الفكر الصهيوني ومعلوماته ، تعرض الفلسطينيون الى مزيد من التجزؤ بسبب إغلاق المدارس الاسلامية الخاصة بعد قيام دولة اسرائيل ، والسماح للمدارس المسيحية فقط بالاستمرار . وعلى الرغم من أن نصف الطلاب في المدارس المسيحية كانوا من المسلمين ، فقد ذكر الدكتور مرعي بأن :

(تركز هذه المدارس باستمرار على التجربة الوجودية المتعلقة بالفصل بين الطوائف المسيحية المختلفة ، إذ تحافظ كل منها على شبكتها الخاصة ، وكذلك الفصل بين المسيحيين وغير المسيحيين من مسلمين ودروز ، فيما يتعلق بالنظام التربوي العام للدولة . من ناحية أخرى ، صممت مدارس الدروز لتعزيز الطائفية باعتبار هذه المدارس منفصلة من الناحية التنظيمية . وفي الوقت نفسه ، تؤكد الهوية الدرزية ، وغير العربية ، وغير الفلسطينية ، بطريقة مباشرة من خلال مناهجها الدراسي وخطتها التعليمية) .

واختتم (مرعي) حديثه بتوجيه نداء للوحدة في الثقافة الفلسطينية .

وفي مقابلة أجرتها صحيفة (جيروزالم بوست) في ٢ أيلول عام ١٩٨٦ حول المشكلة ذاتها مع رئيس لجنة المتابعة للتربية والتعليم في القطاع العربي والأستاذ المحاضر في جامعة تل أبيب (ماجد الحاج) ، اشتكى من أن المنهاج الدراسي كان يهودي الاتجاه إلى حد كبير ، ومن تجنبه ذكر ما تعتبره المؤسسة (قضايا حساسة) مثل : الثقافة العربية ، التاريخ الاجتماعي والقومية . وأكد أنه يتوجب على المربين العرب أن يقولوا أكثر مما يقولونه الآن أثناء صياغة منهاج التدريس) .

أما في القطاعات الأخرى فقد ابتداءً فلسطينيو ٤٨ بجمع المعلومات التي تفيدهم في شن معركتهم ، وبمقدرة مؤتمرات حول التربية والتعليم العربيين . ثم بعد ذلك بدؤوا هجومهم : وأعلن عام ١٩٨٧ عام التربية والتعليم العربيين . وعقد أسبوع التربية والتعليم العربي في حزيران عام ١٩٨٧ ، وفي الأول من أيلول استهل العام الدراسي بإعلان الإضراب ليوم واحد ، عندما احتج ٢٣٠.٠٠٠ طالب عربي على مستويات الخدمات والهيئة التعليمية ، وأغلقت المجالس العربية أبوابها أيضاً احتجاجاً على هذا الوضع . كان هذا الإضراب الخامس خلال هذا العام الذي نظمته المجالس المحلية بمشاركة المدارس احتجاجاً على الأوضاع السائدة .

طالبت المجالس المحلية العربية - أسست اللجنة الإقليمية لتلك المجالس لجنة المتابعة للتربية والتعليم العربيين - ببناء ٣٠٠ غرفة تدريس كل عام ولمدة خمس سنوات لكي تستوعب ٤٠٠٠ مدرس عربي اضافي . وتظاهر العرب أيضاً أمام مبنى وزارة التربية والتعليم في القدس في ٩ ايلول ١٩٨٧ ، وهتفوا ببعض الشعارات مثل : (نرفض أن نكون عمالاً نقطع الخشب ونسحب الماء) ، تلك هي الصورة التي رسمها الصهاينة للفلسطينيين منذ الأزل وحتى يومنا هذا .

ذكرت صحيفة (الهدف) في رسالتها الاخبارية الصادرة في عدد ايلول عام ١٩٨٧ معلقة على الاحداث بأسلوب جاف : (لم يخل القطاع اليهودي تماماً من الاضراب في اليوم الاول من العام الدراسي ، فقد منع الأهالي في مدينة بيت شعن ، الواقعة شمال الضفة الغربية ، أطفالهم من الذهاب الى المدرسة احتجاجاً على نقص مكيفات الهواء في غرف التدريس . في مجتمعنا سنكون ممتنين لنعمة وجود غرف التدريس التي توضع فيها مكيفات الهواء) .

أخيراً قدمت الحكومة خطة خمسية لحل أزمة غرف التدريس في القطاع العربي ، ورحب (ماجد الحاج) بهذه الخطة ونسب تحرك الحكومة الى نضال المواطنين العرب ، كما ذكر في حديث نشرته صحيفة الاتحاد في ايلول عام ١٩٨٧ :

(اعترفت الوزارة علناً بنقص ٤٠٠ غرفة تدريس فقط ، إلا أن لجنة المتابعة قامت بدراسة ميدانية مفصلة قدمت الى الوزارة في عدة اجتماعات في الصيف الماضي ... تظهر الحاجة الى أكثر من ١٤٠٠ غرفة تدريس ... وتعهدت الخطة الخمسية ببناء ٧٤٠ غرفة تدريس ، أي بمعدل ١٤٨ غرفة كل عام ، بالإضافة الى ذلك ، في السابق كان يكفي بناء أكثر من ١٠٠ غرفة تدريس لاستيعاب الزيادة الطبيعية . إذا في نهاية السنوات الخمس سيصبح العدد الاجمالي ١٢٤٠ غرفة) .

لخص النضال من أجل التربية والتعليم النهج الذي اتبعه فلسطينيو ٤٨ ، فقد احتجوا وتظاهروا ، من ناحية ، من أجل الحقوق المتساوية التي قدمتها اسرائيل بشكل اسمي الى مواطنيها . ومن ناحية ثانية ، وكما سنرى لاحقا ، لم ينتظروا المعونات من الحكومة ، بل تبنا سياسة الاعتماد على النفس من أجل توفير التسهيلات وتطويرها .

نشأت لجان الاهالي العرب في مختلف أنحاء البلاد ، ومارست ضغوطها على السلطات الحكومية المحلية كي تتحرك . فعلى سبيل المثال ، بذل الآباء العرب في يافا جهودا كبيرة للحصول على مدرسة حكومية جديدة في نهاية السبعينات . ففي عام ١٩٧٨ لم يكن لديهم سوى مدرسة حكومية واحدة وأربع مدارس خاصة خاصة توفر الخدمات الثقافية للطلاب ، واضطرت المدارس الخاصة لرفض حوالي ٢٠٠ متقدم ، ونتيجة لذلك تم تحويل مبنى قديم الى مدرسة ابتدائية الحقت بالمدرسة الثانوية الشاملة . وفي عام ١٩٨٠ تم فصلها عن المدرسة الشاملة وأطلق عليها اسم (مدرسة الاخوة) .

نشرت صحيفة الاتحاد في عددها الصادر في ٢٦ شباط ١٩٨٧ حديثا لمدير (مدرسة الاخوة) يصف التقدم الذي أحرزته مدرسته :

(في عام ١٩٨٠ ابتدأنا بـ ١٨٧ طالبا من الصف الاول وحتى السادس ، وذلك قبل أن ننفصل عن المدرسة الثانوية وعندما بدأ العام الدراسي ، نظم أهالي الطلاب اضرابا وطالبوا مجلس البلدية بنقل أطفالهم من البناء المتداعي . وفي نيسان عام ١٩٨١ ، أي من العام الدراسي ذاته ، انتقلنا الى هذا البناء ، الذي كان يستعمل كمدرسة يهودية ، كانت قد انتقلت بدورها الى بناء آخر . كان البناء متهدما ، لذا قمنا بتجديده وتحسينه ، وهدمنا مستودعا كان في وسط فناء المدرسة . وقمنا أيضا باصلاح الجدران ورصف جزء واسع من الفناء وزرعنا حوالي خمسين شجرة ، بالإضافة الى زراعة الحديقة . وقدمت لجنة الاهالي المساعدة عن طريق تقديم مواد البناء والفراش من أجل الحديقة) .

ذكر مراسل صحيفة (الاتحاد) :

(ينسى الزائر لمدرسة الاخوة في يافا ، ولو لبرهة وجيزة ، الحالة المتهدمة للمدينة . انها حقاً مدرسة جميلة ذات فناء نظيف وواسع . ولا تزين الصور الزيتية فقط جدران الفناء ، بل غرف التدريس وبیت السلم . وتشاهد في الزوايا والشقوق « معارض » صغيرة لوقائع فنية صنعتها ايدي الاطفال) .

بحلول عام ١٩٨٧ ، بلغ عدد طلاب المرحلة الابتدائية ٤٣٢ طالباً ، وغطى مجلس البلدية جزءاً من ميزانية المدرسة ، إلا أن معظم المساعدات كانت تقدم من الأهالي والأوقاف .

وبشكل مشابه ، استوعبت إحدى المدارس الابتدائية في مدينة رام الله العربية - اليهودية ٧٣ طالباً في عدة غرف مؤجرة انتشرت في أنحاء المدينة . فقد تضرر بناءان بسبب انفجار خزانات المياه فوجب تدميرهما . فنظم الأهالي اضراباً لمدة ثلاثة أسابيع أثناء العام الدراسي ١٩٨٦ - ١٩٨٧ لاجبار مجلس البلدية على تنفيذ اتفاق يقضي بنقل الطلاب الى بناء كانت تشغله مدرسة يهودية . تقدم الأهالي فيما بعد بمساعدة من لجنة المتابعة ، بالنماس الى المحكمة العليا .

في مدرسة الأمل الابتدائية في المدينة العربية - اليهودية عكا ، حيث كان الطلاب يضطرون لحمل المظلات داخل غرف التدريس ، قدم مدير المدرسة استقالته احتجاجاً على الأوضاع التعيسة وعلى عدم رغبة السلطات بالاستجابة الى مطالبه بإجراء الإصلاحات . ذكرت صحيفة (الاتحاد) في ٨ كانون الثاني عام ١٩٨٨ :

(تعتقد للوهلة الأولى بأنك تدخل الى معسكر للتدريب أو مبنى مهجور بسبب البرد ، إذ لا يوجد في المدرسة أي نوع من أنواع التدفئة . ويعانق أسقف غرف التدريس المطر الذي يتدفق عبر السقف ويشكل بركا صغيرة تحت أقدام التلاميذ . كان المدرسون يضطرون الى دفع

جميع المقاعد الى زاوية الغرفة ، حيث لا يرشح السقف . وكان أسوأ شيء هو رؤية الطلاب يرتعشون من البرد ، وخاصة ان أحد الابنية المدرسية يقع بجانب البحر) .

أخيرا ونتيجة للضغوط التي مارستها لجان الأهالي ، بدأ العمل ببعض الإصلاحات ، وعاد المدير الى عمله .

وفي (مرابا) بني دور إضافي في المدرسة على نفقة الأهالي ، الذين شاركوا أيضا في أعمال البناء . في الواقع ، ووفق معلومات لجنة المتابعة ، خلال عقد الثمانينات تم بناء ٣٣٣ غرفة تدريس بتمويل من مصادر خاصة ، وقامت الحكومة ببناء ٣٨٣ غرفة خلال الفترة ذاتها .

وقامت لجان الأهالي بدور فعال أيضا في محاولتها تحديث التسهيلات المدرسية ، وذلك على سبيل المثال ، بشراء الحواسيب الالكترونية من أجل مدارس أطفالهم ، والتي تعتبر أمرا جوهريا بالنسبة لمهنتهم المستقبلية ، وكانت مدارسهم تفتقر الى التجهيزات بالمقارنة مع المدارس اليهودية . وقدر وقتها أن كل مدرسة تحتاج الى ما يقارب ٣٠٠٠ دولار لشراء ما يكفيها من الحواسيب الالكترونية . وعن طريق الهبات المحلية والدولية تمكن الأهالي من تجهيز ١٤ مدرسة عام ١٩٨٥ ، و ١٧ مدرسة أخرى عام ١٩٨٦ . وفي مدرسة الكرمل في حيفا ، (وطيران) في الجليل الشرقي ، تبرع الأهالي بنتاج عملهم لبناء غرفة تدريس خاصة للتدريب على الحاسب الالكتروني .

وفضلا من لجان الأهالي ، انتظمت لجان المعلمين بشكل تلقائي لتحاول الرفع من حماس الطلاب ومهاراتهم وتشجيع التفوق . ودلت النتائج على أن أي تقصير من قبل الطلاب العرب يعود سببه الى نقص الفرص أكثر منه الى نقص الحماس . في عام ١٩٨٦ قامت مجموعة من مدرسي الرياضيات بتنظيم مباريات على مستوى القطر للطلاب من المصف الرابع الى العاشر (راجع مجلة التنمية ، آذار ١٩٨٨) . كانت

الاجابة على المجموعة الاولى من أسئلة الرياضيات ساحقة ، إذ نجح في معرفة الحل ٢٧٠٠ طالب . وكما ذكر على لسان أحد أعضاء اللجنة: (لم تكن نتوقع مثل هذه الاستجابة من الطلاب ، وعلى الرغم من أن عملية تحضير الأسئلة ، وفحص الاجابات ، والرد على كل تلميذ تستغرق وقتاً طويلاً ، إلا أن اللجنة تمكنت من القيام بمهمتها على أكمل وجه) . وفي حزيران عام ١٩٨٧ اشترك ١٤٢٧ تلميذاً في مباراة للمادة الرياضيات من أكثر من مئة مدرسة ، وكوفئ حوالي سبعون طالباً منهم بشهادات امتياز في احتفال أقيم في الناصرة ، وأُرسلت شهادات امتياز الى ٣٥٠ طالب آخرين بواسطة البريد) .

ولأظهار دليل آخر على تعطش التلاميذ للمعرفة ، أسس عرب حيفا مجلة للأطفال تدعى (الحياة للأطفال) في عام ١٩٨٥ ، وسرعان ما تلقت حوالي ٣٠٠ رسالة اجابة على امتحاناتها الموجزة . وبدأ أيضاً مدرسو العلوم في المدرسة الأرثوذكسية العربية في حيفا باصدار مجلة نصف شهرية تدعى (سيفما) عام ١٩٨٤ ، وفي كانون الثاني عام ١٩٨٤ بدأت مجلة نصف شهرية أخرى بالصدور أطلق عليها اسم (الأورينتال) .

وقام الطلاب من جهتهم أيضاً بتنظيم أنفسهم في لجان على المستويين الاقليمي والمحلي . فعلى سبيل المثال ، أسست (جمعية الطلاب العرب) في عكا في عام ١٩٨٣ في مبنى استأجر من الأوقاف ، وضمت حوالي ٦٠٠ عضو وقام الطلاب بجمع الكتب من الخريجين وبيعها لطلاب آخرين بسعر مخفض لا يتجاوز شيكلاً واحداً ، وتم شراء كتب جديدة بالمبلغ المتوفر . وقاموا أيضاً بتنظيم دروس تطوع بإلقائها خريجون جامعيون لرفع المستويات التعليمية لطلاب المدرسة الثانوية . وحاول الطلاب مد يد العون الى مدمني المخدرات وعائلاتهم ، وذلك عن طريق تعليمهم مهنة ما ، وتوزيع الكتب المجانية على أطفالهم . وفي الجانب الثقافي ، قاموا بتشكيل مجموعة فولكلور فلسطينية .

الانتقال الى اشياء اعلى :

ازداد يوما بعد يوم عدد الفلسطينيين المنتسبين الى الجامعة .
فقد قدر (ماجد الحاج) بأن عدد الخريجين الجامعيين الفلسطينيين قد
ارتفع من ٣٥٠ طالب عام ١٩٦٠ الى ١٠٠٠٠ طالب عام ١٩٨٨ ، ٢٢٪
منهم من العنصر النسائي . ولكنهم أجبروا أيضا على الدراسة ضمن
الاطار الصهيوني للمرجع ، دون الاقتراب من المواضيع (الدقيقة) مثل
علم الالكترون ، واستمروا في مواجهة سياسة تمييز مقنعة ولكن فعالة
حتى في بعض المواد كالطب على سبيل المثال .

قدم كل من الرازق وأمين ودافيش مثالا مبكرا على هذا الوضع
عام ١٩٧٨ :

(في أعقاب حرب ١٩٧٣ قدمت أيضا مدرسة الطب في جامعة القدس
العبرية شرطا جديدا ينص على أنه يتوجب على كل مرشح لم يخدم في
الجيش الاسرائيلي - حيث لا يخدم العرب بشكل عام - وقبل انتمائه
الى مدرسة الطب أن يتم عامين من « الخدمة الوطنية » المقبولة) .

وفي الوقت نفسه ، اشتكى الاطباء العرب الذين تجنبوا تلك القوانين
بدراسة الطب في الخارج ، من المعاملة الجائرة التي يتلقونها نتيجة قرار
اتخذ في اواخر عام ١٩٨٨ يقضي بأنه يتوجب على الطلاب الذين درسوا
في الخارج أن يجتازوا امتحانا في اسرائيل لكي يتسنى لهم ممارسة
الطب ، وذكروا بأن ٤٪ فقط من الاطباء العرب اجتازوا ذلك الامتحان :

(لم ينجح احدهم من الطلاب العرب الذين تخرجوا من الاتحاد السوفياتي
وتشيكوسلوفاكيا أو هنغاريا ، بينما نجح حوالي ٨٥٪ من اليهود
المهاجرين من تلك الدول . وطالبت اللجنة ووزارة الصحة التي اعترفت
بهذه الارقام ، بأن تلغي هذا الحكم الاستبدادي وتتبع طريقة جديدة
غير متحيزة لتدريب الاطباء العرب . (صحيفة الفجر ، ٢٣ كانون

الثاني ١٩٨٩) . وهناك المزيد من الحوادث فعلى سبيل المثال في أيار عام ١٩٨٧ اصدرت الحكومة قرارا يقضي بأنه يتوجب على طلاب الجامعة الذين لم يؤدوا الخدمة العسكرية أن يدفعوا مبلغا اضافيا من المال - وهي وسيلة خفية لفرض رسوم أعلى على العرب الذين لا يؤدون الخدمة العسكرية . فكان على الطالب العربي أن يدفع رسما مقداره ٥٥٠ دولارا ، في مقابل ١٠٥٠ يدفعها الطالب اليهودي ، الامر الذي اثار صخبا بين العرب واليهود على حد سواء . وفي الحال اعلنت ثلاث جامعات : حيفا والقدس وبئر شبعاء ، عن رفضها تنفيذ هذا النظام المزدوج للرسوم . وتقلت صحيفة الاتحاد في عددها الصادر في أيار عام ١٩٨٧ عن رئيس جامعة تل ابيب قوله : (ان الجامعة التي تحترم نفسها سترفض التقيد بالجهود التي تنوي تحويلها الى وسيلة لتنفيذ اجراء ينطوي على تمييز عنصري واضح) . وأرسل العديد من اساتذة الجامعة اليهود برقيات احتجاج الى الحكومة ، ونقل عن لسان أستاذ في جامعة بئر شبعاء قوله : (سوف القي اليوم محاضرة عن القوانين المتبعة في نورمبرغ ، أنا مواطن صهيوني فخور بانتمائي هذا ، الا أنني أشعر بالخجل والاهانة من قرار الحكومة العنصري) . وبعد حوالي شهر تنازلت الحكومة عن مطلبها وقررت أن تحدد رسما ندره ٣٥٠ دولارا للطلاب كافة . عارضت السلطات الجهود الفلسطينية لاشادة جامعة عربية تجنب طلابها سياسة التمييز ، وذكر (مرعي) :

(ان الافتقار الى مثل هذه المؤسسة يحد من وصول العرب الفلسطينيين في اسرائيل الى مرتبة البحث والانتاجية العلمية ، وبالتالي يكبت معرفتهم الشخصية ودراستهم للقضايا الاجتماعية ، وكذلك يقلل من قدرتهم على التعرف ، ولو بطريقة علمية ، على المشاكل الاجتماعية للتغلب عليها بهدف تحضير الاسس الصحيحة في الحاضر للحصول على مستقبل مرتجى) .

١٩٨٥

الحصول على الحاجات التربوية والتعليمية الخاصة :

قام فلسطينيو ٤٨ بدور فعال أيضا في بعض القطاعات الخاصة المهمة كليا مثل تعليم رياض الاطفال وأساليب التربية والتعليم التكنولوجية . ففي مجال رياض الاطفال . كانت الهوة شاسعة بين القطاعين العربي واليهودي . إذ تدل الأرقام الواردة باستمرار أن ١٠٪ فقط من الاطفال اليهود لم يلتحقوا برياض الاطفال ، في حين نجد أنه حوالي ١٠٪ فقط من الاطفال العرب قد التحقوا بتلك الرياض . فضلا عن ذلك نجد أن الرياض الموجودة في القطاع العربي قد تم تأسيسها لهذا الغرض بالذات ، من قبل متبرعين أو كمشاريع تجارية استثمارية واعتمدت في الاغلب على هيئة تدريسية غير مؤهلة .

قدمت رياض الاطفال في القطاع العربي فرصة لعمل رياضي قادته مجموعة من النساء العربيات الجريئات تحت لواء (جمعية نساء عكا العربيات) أو AAWA برئاسة الدكتورة (مريم مرعي) . ثم تأسست الجمعية عام ١٩٧٥ ، كما ورد في قسم المعلومات التابع لها : (باعتبارها منظمة مستقلة غير حزبية لتلبية حاجات النساء العربيات في مسيرتهن للتحويل من تجمع تقليدي الى آخر معاصر ، دون فقدان هويتهن الثقافية والوطنية .

عند المستوى العملي ، واجهت الجمعية المشكلة التي تعاني منها نساء العالم اجمع ، فعندما يحين موعد الاجتماع ، لا تجد معظمهن مكانا لاطفالهن ، فقمين برعاية الاطفال بالتناوب بينما تحضر الاخرى الاجتماعات . لفت هذا الموضوع انتباههن الى غياب التسهيلات الضرورية للاهتمام بالطفل ، وذلك بالنظر الى التغييرات الحاصلة داخل العائلة العربية وفي دور المرأة الاقتصادي بعد أن انتقلت من المنزل الى نظام الاجرة الاقتصادي . الا أن أعضاء (جمعية نساء عكا العربيات) اردن تحقيق المزيد ، فالبعض منهن مربيات ويدركن أن السنوات

الاولى من حياة الطفل هي الاكثر تأثيرا في التكوين ، في حين لا يتلقى اطفالهن الخدمات اللازمة لذلك . (راجع قصة سهام في الفصل الخامس) .

فقامت الجمعية بتأسيس مشروع رائد : (دار الطفل العربي في عكا) وذلك لتربية الطفولة المبكرة والعناية بالاطفال دون سن السادسة . يعتبر (دار الطفل العربي) مركزا اقليميا هاما يوفر التدريب اللازم للمعلمين والموجهين في رياض الاطفال ، بالاضافة الى أنه ورشة عمل لتصنيع وسائل الايضاح التربوية بتكاليف منخفضة ، ويقدم دورات توعية للاهالي ، ورياض اطفال نموذجية يمكن أن تختبر فيها الاساليب والمواد المقدمة . قام المركز في بداية الامر بفحص شامل للوضع ووجد أنه من أصل ٤٣ صفا في دور الحضنة ، جميعها تحت اشراف ٨٧ معلما هناك ٩٩٪ من المعلمين الذين يتعاملون مع اطفال دون الرابعة من العمر لا يملكون أية مؤهلات على الاطلاق ، وقد عبر جميع المعلمين عن رغبتهم الشديدة بتلقي دورات تدريبية .

استهلت الجمعية نشاطها بدورات تدريبية مكثفة امتدت ٤٠٠ ساعة لجميع المعلمين في رياض الاطفال شملت الـ ٣٠٠ ساعة الاولى اعطاء تعليمات في المركز ، والـ ١٠٠ ساعة الاخرى عبارة عن ملاحظات ميدانية شملت : الموسيقى والفنون والمسرح ، بالاضافة الى ملاحظات عن الصف ودراسة نفسية الطفل . وعند نهاية العام الاول تم تدريب ما يزيد عن مئة معلم ، وخلال السنوات الثلاث الاولى ، قام مركز دار الطفل العربي برفع رهن عن منزل تديم وجهزه لاستعماله الخاص ، فتم تأسيسه وتجهيزه بالمعدات المكتبية وكذلك أجهزة لورشات العمل التربوية ومن ضمنها : آلة تصفيح وجهاز تكبير ، وأجهزة تلفزيون وأشرطة تسجيل وجهاز لتسليط الصور على الشاشة ، ومسجلة وماكينة للخياطة .

بالاضافة الى اعادة تأهيل المعلمين ، والعباب التطوير والمواد التربوية والتسهيلات الانشائية ، باشر مركز دار الطفل باقامة دورات للاهالي

امتدت ثلاثة اشهر . ولاقت ترحيبا كبيرا لدرجة أن الكثير من الاهالي طالب بتمديدتها ثلاثة اشهر اضافية . وفي زيارة للروضة النموذجية في دار الطفل يمكنك أن ترى الاولاد والبنات يتعلمون طريقة عمل (فطائر البيتزا) العربية المفضلة بزيت الزيتون والزعر ، اذ يدرك المربون أهمية مشاركة كلا الجنسين في مسؤولية ادارة المنزل .

وبدما كان الجانب الاكثر تأثرا في (جمعية نساء عكا العربيات) و (دار الطفل) هو أن الكثير من النساء المشاركات في العمل فيهما هن من المتطوعات ، والمنطق الذي يقودهن جميعا ، كما قالت إحدى المربيات ، هو :

(انه ينظر الى العرب الاسرائيليين على أنهم ضحايا سلبين لصراعات (النظام الاعلى) ، وحتى تتغير العلاقات السياسية بشكل مفاجيء ، سيبقى المواطن الفرد عاجزا في وجه الصراع . وقد رفضت (جمعية نساء عكا العربيات) هذه الخلاصة باستمرار ، مؤكدة انه ، على النقيض تماما ، من الضروري ايجاد مؤسسات مستقلة يمكنها أن تقدم الخدمات المناسبة لمجتمعنا ومتطلباته) .

وكانت المحاولة الهامة التالية في مجال التعليم الخاص تأسيس الصندوق المالي من أجل تنمية التربية المهنية والتقنية في القطاع العربي . نادى لهذه المحاولة الطوعية المربون العرب وعلى رأسهم : (ابراهيم عودة) ، ودعمتها اللجنة الاقليمية لرؤساء المجالس العربية المحلية ذات الوجود الكلي . ففي المؤتمر التقويمي الذي عقد في ١٨ تشرين الثاني عام ١٩٨٥ تم جمع حوالي ١٢٠.٠٠٠ دولارا . ولا سبيل للشك في حماس فلسطيني ٤٨ لفكرة الصندوق . فعلى سبيل المثال في ايلول عام ١٩٨٥ تحول عرس جرى في قرية (موشيه رفح) بجانب ام الفحم الى حدث عفوي لجمع الاموال لصالح صندوق التكنولوجيا بعد أن تحدث أحد الشعراء عن نشاطات ذلك الصندوق . وللصندوق هدفان متكاملان ، الاول : تطوير الفلسطينيين على المستويين التربوي والتدريسي ،

والثاني : تطوير الصنعة التقنية الرفيعة ، فمن الواضح أن العرب تخلفوا كثيرا في هذا المجال ، إذ أعلن الصندوق أن ٦٠٪ من الطلاب الاسرائيليين في المدارس الثانوية يتلقون الدراسة التكنولوجية ، بينما تبلغ نسبة الطلاب العرب في هذا المجال ٦٪ فقط من العدد الاجمالي . اذ لا يوجد في القطاع العربي سوى مدرستين للدراسة التكنولوجية ، ومدرستين للدراسة الزراعية .

في نهاية دورة الحواجز ، اعطى (عدنان الرزاق) مثالا معبرا عن المصاعب التي واجهها العرب في مجال العمل بعد أن تمكنوا من التسجيل في دورات التكنولوجيا والتخرج منها :

(لتوضيح الوضع : منذ عامين تقريبا تم تأسيس لجنة خاصة بالتكنولوجيا برئاسة العميد السابق للطلاب ، « الاستاذ دوري » ، وذلك بهدف تسهيل تعيين الخريجين التقنيين العرب في مجال الهندسة في المعامل والشركات الصناعية الاسرائيلية . عملت اللجنة بجد لمدة ستة أشهر دون أن تنجح في تعيين خريج تقني عربي واحد في مجال الهندسة في أي عمل مناسب في مصنع اسرائيلي ، لذا انحلت تلك اللجنة) لذا لا تدهشنا التقديرات الصادرة في منتصف الثمانينات والتي تفيد بأن ٤٢٪ من المهندسين العرب لم تسنح لهم الفرصة للعمل ، أو يعملون في مجالات لا تمت لاختصاصاتهم بصلة .

وفي عام ١٩٨٦ قدم الصندوق قروضا بفائدة مخفضة الى ٢٣ مدرسة عليا من أجل تحسين مستوى التسهيلات المتوفرة لديهم في مجال العلوم والتكنولوجيا . وفي عام ١٩٨٨ قدم الصندوق المساعدة الى عشر مدارس في عشر قرى لتأسيس أقسام كهربائية وإلكترونية . وتلقت المدارس الابتدائية في قريتي جسر الزرقا وكفر قنا مبلغ ٢٠.٠٠٠ دولاراً من ألمانيا الغربية ، عن طريق الصندوق ، لشراء أجهزة لأقسام الخياطة وورشات المعادن . فضلا عن ذلك ، أرسل الصندوق ١٦ مديراً من مدرء المدارس الثانوية الى ألمانيا الغربية لدراسة المناهج والطرق المتعلقة بالتعليم التقني .

لم يكن الصندوق قادراً في ذلك الوقت على بذل المزيد لتحسين الصناعة التقنية العالية ، على الرغم من وجود إدراك شديد بأن هذه الصناعة يمكن أن تكون سبيلاً للتعويض عن خسارة الأرض الزراعية ، والتخفيف من مشكلة البطالة العربية الخطيرة . وكما ورد في عدد (الاتحاد) الصادر في ١٨ حزيران عام ١٩٨٦ ، كان الكثير من الرأسماليين العرب على استعداد لتأسيس عدد من الأعمال الصناعية في حال توفر تسهيلات مشجعة ومناطق تطور ، كما هو الحال في القطاع اليهودي .

ولكن في الثمانينات ، لم يكن هناك سوى معلمين كبيرين يعودان للملكية عربية ، الأول لأعمال الحديد والفولاذ تملكه عائلة (قضماني) ، ويقع في قرية الجليل في يرقة ويضم ١٥٠ عاملاً . والثاني : معمل للرخام تملكه عائلة (بولس) ويضم ٦٥ عاملاً في مدينة الكرمل . وذكرت الصحيفة أن عائلة (بولس) كانت ترغب بتأسيس مقلع للحجارة بجانب قريتهم ، ولكنها لم تتمكن من ذلك لأن المنطقة لم تكن منطقة تطوير ، لذا لا تتمتع بالشروط التشجيعية في مجال الضرائب ، والتمويل والتسهيلات ، الميزات التي لم تحرم منها مدينة الكرمل اليهودية . وواجهت عائلة (بولس) صعوبات كبيرة في مدينة الكرمل ، إذ كان يحرم على العرب دخول المدن اليهودية ، ولكنها تمكنت في النهاية من شراء قطعة أرض وبناء معمل في منطقة التطوير . كانت الحكومة في بعض الأحيان تدعم مثل هذه المواقف لتظهر بأنها لا تتحيز ضد الصناعيين العرب . على أية حال ، يبقى هذا الموقف استثنائياً وليس قاعدة (انظر أيضاً الفصل الثاني) .

البطالة ، المخدرات والشباب :

لقد أدى تدهور الوضع الاقتصادي في القطاع العربي الى تفشي مشكلة البطالة القاسية بين فلسطيني ٤٨ ، وقد قام مراسل صحيفة (الاتحاد) بجولة في الناصرة وفي المناطق المحيطة بها (في ٢ آذار ١٩٨٦) ، وذكر بأن منطقة النشاط الرئيسية تقع أمام مكاتب الممل ، حيث تمتد

طواير الشبان في الشوارع . قال (فخري) عامل " من قرية « مشهد »
يبلغ الأربعين من عمره (ولكن يبدو وقد تجاوز الخمسين) ، بأنه قد
طرد من عمله في عيد رأس السنة لعام ١٩٨٥ :

(أتقدم للتسجيل للعمل ثلاث مرات في الأسبوع الواحد ، مرة في
كفر قنا ، ومرتين في الناصرة ؛ وأدفع أجره المواصلات من جيبى ، وحتى
الآن لم أحصل على وظيفة . أعيش بالدين من الحوانيت ، وأترك الباقي
على الله . نريد أنا وزملائي عملاً ، أي نوع من العمل ؛ لا نريد أن نبقى
على هذه الحالة من المعاناة والبطالة) .

ولدى سؤال عامل آخر عاطل عن العمل عن الطريقة التي يدبر فيها
معيشته صاح : (من قال لك إننا نعيش ؟ فأنا أخجل أن أواجه صاحب
الحانوت الذي أستخدم منه ، وأخجل من مواجهة أطفالي) . (صحيفة
الاتحاد في عددها الصادر في ٢٤ شباط ١٩٨٦) . وقد بلغ الحزن بأحد
العمال الى درجة دفعته لمحاولة إضرام النار في مكتب البطالة .

تفشيت البطالة في جميع فئات العمال ، فقد علقت مجلة (البىادر
السياسية) حول خريجي الجامعات العاطلين عن العمل : (أتم الشاب
حنا غريب من مدينة الناصرة دراسته وحصل على امتياز في هندسة
الطيران لدى معهد الهندسة التقنية التطبيقية في حيفا . ولكنه لم يحصل
على عمل في مجال دراسته ، لذا فتح حانوتاً لبيع أنابيب الألمنيوم في
مسقط رأسه تخرج الطالب (محمد أبو سمرة) من مدينة بئر
المقصور وحصل على شهادة متقدمة في علم السياسة من الجامعة العبرية،
واضطر بعد فشله في الحصول على عمل في مجال اختصاصه ، الى العمل
في فندق في القدس ، ويتابع في الوقت نفسه دراسته للحصول على درجة
الماجستير على أمل أن هذا سيحسن فرص حصوله على وظيفة
مناسبة حصل الطالب (عبد الله غارا) من قرية جيت في المثلث على
شهادة الدكتوراه في علم الأحياء من جامعة تل أبيب ، وبعد أن فشل في
الحصول على عمل مناسب ، اتجه لدراسة الطب) .

(٢٩ آب ١٩٨٧)

تعتبر البطالة عاملاً مساهماً في مشكلة المخدرات (اقرأ قصة أديب في الجزء الثاني) التي تحولت الى مشكلة خطيرة جداً في السنوات الأخيرة حتى تأثرت بها القرى الصغيرة أيضاً . والعامل الآخر الذي أدى أيضاً الى تفاقم هذه المشكلة انحلال القيم التقليدية نتيجة الاحتكاك مع الحضارات الأخرى ، ومع ثقافة مدينة ذات طابع استهلاكي . فانتسعت الفجوة بين الأجيال مما أدى الى نشوء الخلافات العائلية ، ويرجع عدد كبير من الفلسطينيين سبب التغيير الاجتماعي السريع الى خسارتهم لأرضهم . فعندما كانوا يعملون في الزراعة ، كان الوالد هو كبير العائلة دون منازع والمسيطر على أملاكها الرئيسية . أما الآن وبعد أن تحول معظم العمال الفلسطينيين الى عمال بالأجرة ، ويلتزمون يومياً بالتواجد في مكان عملهم ، فقدوا بذلك الوقت الذي يجب أن يخصص للحياة العائلية ، لذا ضعفت السلطة الأبوية ، ولم يعد بالتالي احترام الكبير قاعدة سلوكية متبعة . وعبر ذلك أحد الفلسطينيين بقوله : (إن التطور التدريجي والطبيعي كان أفضل الى حد كبير وأقل تخريباً من التغييرات المفاجئة التي خلقت نزاعات حادة ضمن العائلة) .

ويعتبر جيل الشباب ، الذي يشكل الهاجس الرئيسي لفلسطيني ٤٨ ، الفئة الأكثر تأثراً بهذه المشاكل .

إذ تبدأ مشاكل الشباب عند النظام التربوي ، وكما رأينا سابقاً ، كانت التسهيلات المتوفرة لهم غير وافية على الإطلاق ، وبالتالي ارتفعت نسبة المتخلفين عن الدراسة . وقد ورد في تقرير من أم الفحم بأن (١٠٧) طالباً (٥١٦ فتى ، و ٤٩١ فتاة) لم يلتحقوا بنظام المدرسة الرسمي ، وذلك من أصل العدد الإجمالي البالغ ٦٢٠١٠ طالب تتراوح أعمارهم بين ١٢ و ١٨ عاماً . أما فرص العمل الجيدة المتوفرة للشبان الفلسطينيين فهي قليلة جداً ، وهم أول من يعاني من ظروف الأزمة الاقتصادية السيئة . والذين ينهارون نتيجة الضغط الشديد ، لا يجدون ملجأ لهم سوى سبعة مراكز إصلاحية ، لذا ينتهي عدد كبير من الشبان الأثمين الذين يتعاطون المخدرات في السجن .

في عام ١٩٨٨ بدأ فلسطينيو ٤٨ بالتحرك ، فتم تأسيس (جمعية الهلال لمكافحة المخدرات في القطاع العربي) ، وأنشئ خط سريع لمعالجة مدمني المخدرات . والتقت الجمعية التي اتخذت مقرها في القدس مع اللجنة الإقليمية لرؤساء المجالس العربية المحلية لمناقشة خطة العمل . وقد أكد عضو الكنيست آنذر (توفيق طوبي) في اجتماع لأعضاء الكنيست أنه يجب تضمين (جمعية الهلال) كوحدة من ٤٣ جمعية معترف بها في البلاد باعتبارها سلطة تحارب انتشار المخدرات .

وشهد المستوى المحلي أيضاً جهوداً لا بأس بها ، ففي ١ نيسان عام ١٩٨٨ أنشأ (مركز للمعالجة من استعمال المخدرات) في قرية (طيرة) ، وذكرت التقديرات أنه استوعب حوالي ٥٠٠ الى ٦٠٠ مدمن ، وذلك تحت إشراف طبيب وباحث اجتماعي ، ويستهدف مدمني الكوكايين بشكل خاص . اعتمدت المعالجة على نظام الوحدات التي بلغت حوالي الخمسة ، وانضم للمركز آنذاك اثنا عشر مدمناً للمعالجة . وقد تحملت وزارة العمل ٧٥٪ من التكاليف ، أما النسبة الباقية والبالغة ٢٥٪ فقد تحملها المجلس المحلي الذي بذل نشاطاً ملحوظاً في هذا الموضوع . فقد قدم البناء ، وأعطى مكافآت تشجيعية للشبان ، منها اشتراكات مجانية في بركة السباحة ، وتحمل ٥٠٪ من نفقات رحلة الى مصر لعشرة مدمنين تحت المعالجة . ولكن واجه المركز مشكلة وهي أن ١١٠ من المدمنين الذين حصلوا على شهادات إدمان ، تمنحهم الحق بالعلاج بالإضافة الى (راتب) شهري ، خافوا من فقدانهم لتلك المكافآت بعد تماثلهم للشفاء ، إلا أن المركز تعهد بمساعدتهم للحصول على عمل مناسب فيما بعد .

وقام فلسطينيو ٤٨ في العقد الأخير ، وكجزء من رد فعلهم تجاه الأزمة الناشئة بين الشبان ، بتنظيم مراكز شبيلية وثقافية في مختلف أنحاء مدنهم وقراهم . وكان هدفهم الرئيسي اجتذاب الشبان لانتزاعهم من الشوارع ومنحهم الاحترام الذاتي ومساعدتهم على تعزيز هويتهم .

ويعتبر مركز (الهدف) نموذجاً جيداً للمركز الثقافي النشط ، فقد تأسس ما بين عامي ١٩٨٤ - ١٩٨٥ في أم الفحم ، حيث ارتفعت نسبة البطالة الى حد كبير ، وبدأ العديد من الشبان باللجوء الى المخدرات وتشكيل العصابات .

قدم مركز (الهدف) للشبان نشاطات متنوعة الى حد كبير ، فقد وجه دعوة لبعض المخرجين السينمائيين الفلسطينيين أمثال (ميشيل خليفي) لعقد ندوات (حضرها ٢٠٠ شخص في شباط ١٩٨٦) ، وكذلك دعا بعض الموسيقيين مثل (مصطفى كرد) لإقامة حفلات موسيقية (حضرها ٣٥٠ شخصاً في عام ١٩٨٦) وقدم دروساً في الموسيقى . ولا تنسى النجاح الكبير الذي حققته دورات الكمبيوتر ، إذ قدم المركز خدمات فائقة عندما حول سبعة أجهزة إلكترونية الى المدارس العليا في القرى المجاورة . فضلاً عن ذلك ، قام بتنظيم رحلات يومية عام ١٩٨٧ ، منها رحلة ضمت ٥٨ طالباً من طلاب دورات الكمبيوتر الى مرتفعات الجولان المحتلة . وقدم بعض المتطوعين البريطانيين لإعطاء دورات باللغة الإنجليزية ، شملت أيضاً ثمانية قرى مجاورة .

وبدا المركز بتنظيم نشاطات تهتم النساء بشكل خاص ، تشمل دورات لمحو الأمية للبالغات ، ودروس في الحاسبة ، والخياطة ، بالإضافة الى بعض المحاضرات والمناقشات . ثم اتجه بعد ذلك للعمل حول موضوع إثارة الوعي بين النساء تجاه حقوقهن . فعلى سبيل المثال ، نظم في نهاية عام ١٩٨٩ سلسلة من المناقشات حول موضوعي الزواج والعائلة ، وتم التأكيد على ضرورة وصول النساء (الى درجة من الكفاءة والشعور بالمسؤولية) داخل العائلة طالما أن العائلة تشكل مفتاح المجتمع ، ورد في الإخبارية الصادرة عن مركز (الهدف) في شباط - آذار ١٩٨٩ ما يلي : (أشار أحد المتحدثين أنه ازداد في الوقت الحاضر عدد النساء في أم الفحم اللواتي يستمعن الى الأخبار من وسائل الإعلام المختلفة . ورغم مسألة أهمية هذا الأمر بحد ذاته ، إلا أنه يدل على أن الإدراك السياسي المتعمق

للمجتمع الفلسطيني ككل يولد نتائج خاصة وحتمية بالنسبة للعنصر النسائي الفلسطيني (. وبذل متطوعون من مركز الهدف ما بوسعهم لإنشاء دار حضانة ، حيث يمكن للأمهات أن يتركن أطفالهن ، وشعروا بسعادة غامرة عندما تحققت الفكرة عام ١٩٨٨ ، وضمت الدار ٢٤ طفلاً . وقد ورد في الرسالة الإخبارية : (يدفع كل طفل ١٥٠ شيكلاً شهرياً ، ويحصل على ثلاث وجبات يشرف على تحديدها أخصائي في التغذية . ولا تتضمن الوجبة اللحوم بسبب ارتفاع أسعارها ، ولكننا نعتزم إدراج هذه المادة في الوجبة عندما ترتفع الميزانية) .

بدأ أيضاً مركز (الهدف) يعمل على محور وثائقي ، واستهل نشاطاته بتقديم مجموعة من الصور الجوية أخذت لفلسطين عام ١٩١٨ من قبل القوات الجوية الألمانية ، فأرسل بطلبها من ألمانيا . ولكن يعتبر بناء أول مكتبة عمومية في أم الفحم أضخم إنجاز يبعث على الفخر حققه مركز (الهدف) ؛ وتضم هذه المكتبة ١٠٠٠٠ كتاب ، وذكروا بأنها أكبر مكتبة في القطاع العربي ، ولم تكن المهمة سهلة على الإطلاق .

(كما كان مخططاً ، سافر ممثلان عن مركز الهدف الى مصر لشراء كتب من معرض الكتاب في القاهرة لتجهيز المكتبة . استلمنا بادية الأمر إجازة استيراد بمبلغ ٢٠٠٠٠ دولار لشراء الكتب ، ولكن بسبب عدم استقرار الوضع السياسي الراهن قررنا أنه يجب في المرتبة الأولى أن نحضر أكبر قدر ممكن من الكتب من مصر طالما الفرصة سانحة لذلك ، لذا حصلنا على إجازة استيراد لمبلغ إضافي وهو ١٠٠٠٠ دولاراً ، وقمنا بابتياح ١١٠٠٠ كتاب ، ويتوجب الآن تسليمها الى سلطات مراقبة المطبوعات المصرية والإسرائيلية) .

(الرسالة الإخبارية من مركز الهدف - آذار ١٩٨٨) .

ذكرت الرسالة الإخبارية الصادرة في تموز عن مركز الهدف ما يلي :

(وصلت أخيراً الى مطار الدّ منذ ثلاثة أسابيع الكتب التي ابتعتها في كانون الثاني من مصر لتجهيز مكتبنا ، بعد أن أمضت فترة إقامة مؤقتة طويلة لدى السلطات الدينية المصرية في الأزهر ، التي قامت بمراقبتها والبحث فيها عن طرق غير مناسبة لعرض الإسلام ، وذلك قبل السماح بتصديرها ، ولحسن الحظ لم يجد شيوخ الأزهر أية طرق غير مناسبة لعرض الإسلام في مختاراتنا ووصلت جميع مشترياتنا الى مكان إقامتها الجديد في أم الفحم . ثم جاء دور سلطات المراقبة الإسرائيلية التي رغبت في إلقاء نظرة على مشترياتنا ، فهم أيضاً يحبون القراءة .

وفي الواقع لاقت مختاراتنا إعجاب السلطات الإسرائيلية حتى أنها احتفظت بـ ٥١ كتاباً منها . ولاحظنا أن اهتمام سلطات المراقبة قد انحصر في أنواع محددة ، فعلى سبيل المثال ، أبدوا اهتماماً شديداً بالكتب التي تتحدث عن التاريخ وعلم السياسة الفلسطيني . ونأمل بأن يستمتعوا بمعرفة المزيد عن الحضارة وعلم السياسة الفلسطينيين من الكتب الـ ٥١ التي (استلفوها) . لقد انتهينا تقريباً من تحضير البناء الذي سنستعمله للمكتبة ، ونأمل أن يقرأ جميع الناس ، الى جانب السلطات المصرية والإسرائيلية ، تلك الكتب منذ بدء العام الدراسي) .

من المواضيع الاجتماعية والصحية الأخرى التي اقلقت فلسطينيين ٤٨ قضية المسنين . نتيجة للتغيرات التي أثرت على العائلة الواسعة ، التي اعتادت الاعتناء بأفرادها المسنين أو المرضى ، ظهرت الحاجة لوجود تسهيلات جديدة . وبما أن المسنين أصبحوا يحصلون على رواتب تقاعدية ، لذا فهم ليسوا بحاجة للاعتماد على أولادهم كما كانت حالهم من قبل . ومع ذلك ، فالتسهيلات المتوفرة لأولئك المسنين قليلة جداً ، وكان موضوع دخول العرب الى دور المسنين اليهودية أمراً أشبه بالمستحيل . لذلك ثامت مدينة الناصرة ، ومن خلال جهود تطوعية ، ببناء دار للمسنين فوق أرض تملكها الأوقاف الإسلامية بجانب مسجد

السلام ، تم جمع المساهمات من رواد المساجد ومن مصادر أخرى ، وبوشر البناء عندما توفرت الإمكانيات المالية . (انظر مجلة التنمية ، عدد آذار ١٩٨٧) .

وفي مدينة (طيبة) انشأ نادٍ للمسنين أطلق عليه (بيت الرازي لجمعية المسنين) يستوعب ١٥٠ شخصاً من أصل ٩٠٠ مسنٍ في المدينة . وتقوم حافلة صغيرة بنقل المشتركين الى النادي ، حيث تقدم لهم التسهيلات التي تشمل : الاستشارات ، العناية الطبية ، وجبات جاهزة ، خدمات التنظيف ، ورشات للمهن اليدوية ، زهات ، محاضرات واحتفالات . وأسس أيضاً المجلس المحلي في عجلون نادٍ للمسنين عام ١٩٨٠ ، كان معظم أعضائه (١٤٠ رجلاً وامرأة) من العمال المتقاعدين الذين قاموا أنفسهم بتأسيس هذا النادي ليجدوا مكاناً بعد تقاعدهم يجتمعون فيه مع أصدقائهم ويتبادلون العلاقات الاجتماعية ويملأون أوقات فراغهم . تضمنت نشاطاتهم تنظيم محاضرات حول برامج التقاعد ، والقيام برحلات ترفيهية الى الضفة الغربية والى مناطقهم الخاصة ، والمشاركة في بعض ضروب التسلية كالورق والنرد ، ومتابعة برامج الرائي والمدياع .

وهناك قطاع آخر من المجتمع العربي لقي اهتماماً واضحاً هو السجناء ، الذين يعتبر معظمهم ، في نظر الفلسطينيين ، سجناء سياسيين . ففي عام ١٩٨٤ قام أحد مؤسسي حركة الأرض (منصور قردوش) بتأسيس ما سميّ (بجمعية أصدقاء السجناء) التي ضمت ١٨٥ عضواً حتى نهاية عام ١٩٨٨ . حاولت الجمعية تحسين أوضاع السجناء ، ومساعدة عائلاتهم مادياً واجتماعياً ، وخاصة الزوجات غير العاملات ، والعائلات التي تضم عدداً كبيراً من الأطفال . واجتمع أعضاء الجمعية مع الزوجات الراغبات بالانفصال عن أزواجهن المحكومين لفترات طويلة ، وحاولوا إقناعهن بأن أسباب السجن هي النضال من أجل العدالة وحقوق الشعب الفلسطيني ؛ فإذا تخلت الزوجة عن زوجها

السجين ، فسيعاني من خيبة أمل أشد مرارة من التي يعيشها الآن . كانت الجمعية تنفق كل ثلاثة أشهر خمسين دولاراً على معالجة وإطعام ولباس كل سجين ، وأسس أيضاً صندوقاً دورياً لمساعدة السجناء وإعادة تأهيلهم عند إطلاق سراحهم للعودة الى أعمالهم . إلا أن الخلافات الداخلية أدت الى انقسام المؤسسين وحلت الجمعية في نهاية الثمانينات؛ فقام (قردوش) بتأسيس (جمعية حقوق الإنسان) و (جمعية التنمية) . وإدراكاً لأهمية الدعم المادي من وكالات التنمية في ما وراء البحار ، سعت (جمعية التنمية) وحسب ما ورد في سجل معلوماتها (لوضع حدٍ للعرف السائد الذي يؤدي الى شلّ الكثير من الجمعيات الصغيرة هنا بسبب مطالبة المنظمات الواهبة بتقديم عروض تفصيلية ومن ثم الانتظار فترات طويلة لوصول الدعم المادي) .

وفي بداية الثمانينات ، قام مؤسس آخر من حركة الأرض (صالح برانصي) بتأسيس (مركز البحوث للتراث العربي) في (طيبة) ، وقام هذا المركز بتنظيم عددٍ من الاحتفالات عن الموسيقى الفلسطينية والرقص الشعبي ، بالإضافة الى بعض النشاطات الثقافية الأخرى . وفي آب من عام ١٩٨٧ نظم المركز (المؤتمر الدولي الاول) عن التراث الفلسطيني ، الذي عقد في مدينة القدس ، وحضره عددٌ كبير من الفلسطينيين من مناطق ٤٨ ، والضفة الغربية وقطاع غزة . وقد أشار العالم الفلسطيني الشهير الدكتور (اسحق موسى الحسيني) : (المرة الأخيرة التي شهدت فيها القدس هذه الحشود الكبيرة كانت في يوم جنازة جمال عبد الناصر) . حضر المؤتمر أيضاً بعض الزوار من الخارج والقوا مقالات مختلفة منها : مقالة عن التجربة الأمريكية الهندية ؛ إلا أن الفلسطينيين لبسوا بحاجة لمن يحثهم على رؤية أوجه التشابه .

وقام (برانصي) أيضاً بعقد مؤتمر في الناصرة عام ١٩٨٨ حول المجتمع الفلسطيني (بعد مضي أربعين عاماً على النكبة وعشرين عاماً على احتلال الضفة الغربية وغزة) . فوضع نتيجة لذلك تحت الحجر الإداري (سجن دون محاكمة) لعدة أشهر .

العمل على الجبهة الصحية :

علاوة على النشاط الفعال في مجالي الشباب والثقافة ، عالج فلسطينيو ٤٨ أيضا بعض القضايا الاجتماعية المهمة الأخرى مثل الصحة . وتعتبر (جمعية الجليل للبحوث والخدمات الصحية) ، التي تأسست عام ١٩٨١ كمنظمة غير رابحة ، من أكثر المنظمات فعالية في هذا المجال . وكما ورد في كتيب المنظمة ، لقد تأسست (نتيجة التوافق التلقائي بين أفكار أربعة من الأطباء الذين يقيمون ويعملون في مناطق الجليل الريفية ، ومع مرور الوقت وسعت هذه الجمعية دائرة أعضائها لتشمل أساتذة الصحة المحليين المهتمين بالقضايا الصحية المتعلقة بحياتهم اليومية . وهكذا يستجيب أعضاء الجمعية الأخصائيين في الكيمياء الحيوية وطب الأسنان والطب البشري وعلم النفس والصحة العامة والأعمال الاجتماعية والهندسية ، لادراكهم الحسي للمشاكل الصحية الفريدة والملحة في المناطق الريفية المجاورة ، وذلك بتخصيص أوقاتهم ومهاراتهم ، وبشكل طوعي ، للمساعدة في إيجاد الحلول المناسبة وتطويرها) .

أحرز ثمانية تقدم هائل بهدف جمع المزيد من الحقائق ، فقد قام كل من جمعية الجليل ، وحلف خريجي الناصرة ، واللجنة الإقليمية لرؤساء المجالس العربية المحلية برعاية المؤتمر الأول حول القضايا الصحية في القطاع العربي ، وذلك في شهر نيسان عام ١٩٨٦ ؛ وشارك فيه حوالي ٤٢٠ شخصا : (٢٠ رئيساً من رؤساء المجالس المحلية ، ١٧٠ طبيباً ، ٤٩ صيدلانياً ، ٢٩ ممرضة ، و ٦٣ مربياً وباحثاً اجتماعياً) .

وهاجم المشاركون تدهور الشروط الصحية في القطاع العربي ، وأشار الدكتور (حاتم كنانة) ، رئيس جمعية الجليل ، الى أن معدل وفيات الأطفال في القطاع العربي بلغ ضعف مثيله في القطاع اليهودي ؛ وأن عدد الوفيات (لأسباب مجهولة) في القطاع العربي بلغ ثلاثة أضعاف

نظيره في القطاع اليهودي . وقام أيضاً الدكتور (عماد مخول) بدراسة الوضع الصحي لمستوطنة عربية وأخرى يهودية في (وادي تمرة) واستخلص بأن : ٣٩٪ من الأطفال العرب عانوا من التهابات معوية في مقابل ١٤ر٦٪ من أطفال اليهود . وأشار المهندس (رامز جرايسي) الى أن حصة القطاع العربي من ميزانية الخدمات الصحية بلغت ٢٪ فقط ، على الرغم من أن العرب يشكلون ١٣٪ من السكان . وذكر الدكتور (نبيل جرايس) بأن العرب يشكلون ١٣ر٧٪ من أعضاء اتحاد تجار هيسنادروت ، ومع ذلك فإن نسبة المستوصفات التي يمولها صندوق مرضى الهستادروت ، والتي توفر لهم الخدمات الطبية بلغ ٧ر٩٪ فقط من العدد الاجمالي . إذ أنه هناك طبيب واحد لكل ٢٩٠٠ عضو في القطاع العربي ، في مقابل طبيب واحد لكل ١٨٠٠ عضو في القطاع اليهودي (راجع مجلة التنمية ، عدد حزيران ، عام ١٩٨٦) .

وخلال الثمانينات قام الأعضاء المتطوعون في جمعية الجليل بتقديم ملحوظ في الأوضاع الصحية في القطاع العربي . فقد ركزوا اهتمامهم على الطب الوقائي وكذلك العلاجي ، وعلى الشروط البيئية ؛ مولين اهتماما خاصاً الى أربعة أطراف تحتاج الى رعاية ملحة وهي : البدو ، الأطفال ، المسنين ، والمعاقين .

فعلى سبيل المثال ، عملت الجمعية على توفير مستوصف متنقل لجماعات البدو في الجليل التي تعاني ، كما ورد في كتيب الجمعية ، من ظروف صحية أشد سوءاً من الاقلية العربية الباقية : (هناك القليل من المعلومات المنشورة التي تؤكد صحة هذه المقولة الأخيرة ، إلا أن ملاحظتنا الشخصية ، الى جانب الفحص الأولي الذي قامت به جمعية الجليل ، تجعلنا نؤمن بصدق هذه المقولة تماماً) . فقد وجدت الجمعية أن الشخص في حال مرضه عليه أن ينقل :

(مسافات كبيرة بواسطة الجرار او سيارة جيب او ربما على ظهر حيوان ما ، ثم ينقل الى سيارة خاصة او بواسطة حافلة الى أقرب وسيلة

نقل ، التي يمكن أن تكون على بعد عدة دقائق أو ربما ساعة ؛ حسب نوع الاهتمام المنشود . بشكل مشابه ، من أجل الوصول الى أقرب مستوصف يعتني بصحة الأم أو الوليد ، لمعرفة وزن رضيع أو امرأة حامل ، أو لتلقيح طفل ، تستعمل نفس انواع وسائل النقل المرتجلة ؛ أو يلجأ عادة الى السير عبر طرق صخرية ، قبل التطفل على احدى وسائل النقل للركوب مجاناً والوصول الى القرية التي يوجد فيها مستوصف) .

ثم وصلت أخيراً العربية المخصصة للمستوصف المتنقل بعد تأجيلات طويلة الأمد من الموردين والجمارك ومكاتب الترخيص ؛ فتمكنت أخيراً جمعية الجليل من إعلان ما يلي :

(مع اقتراب يوم الاثنين الواقع في ٢٨ آذار ١٩٨٨ ، ترددت المخاوف بأن الشتاء الطويل سيستمر بأمطاره وكآبته ، ولكنه كان في الواقع يوماً ربيعياً جميلاً في الجليل ، وذلك من حسن حظ جميع الذين حضروا مراسم افتتاح المستوصف الطبي المتنقل لخدمة الجماعات البدوية . . . وفي تمام الساعة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر انضم أعضاء هيئة الادارة لجمعية الجليل الى الآخرين لتشكيل قافلة والتوجه بعد ذلك الى جماعة البدو في الحسينية ، إحدى الجماعات السبعة التي سيخدمها المستوصف المتنقل . وعلى الرغم من أن الطريق كان جافاً وسالكاً الى حد مقبول ، فقد بدا واضحاً للجميع أن سيارة الطوارئ ذات الأربع عجلات هي حاجة ماسة على مدار العام . . . وخاصة اثناء فصل الشتاء . رجب « أبو زاهر » ، مختلر جماعة الحسينية ، بأعضاء القافلة ودعاهم الى منزله حيث قدمت لهم المرطبات والفواكه والجوز والقهوة السوداء الشهيرة) .

(تقرير شهر أيار ١٩٨٨)

أما بالنسبة للمعاقين ، فلا يوجد في منطقة الجليل الريفية العربية سوى معهدين للمتخلفين عقلياً ، يقدمان الخدمات اللازمة لأربعين شاباً . لذا قامت جمعية الجليل بدعم مبادرة رائدة بدأ بها مجلس (سخنين)

المحلي لتأسيس روضة أطفال نموذجية لتقديم العناية اللازمة لأطفال أربع قرى تبعد كل واحدة عن الأخرى خمسة كم وهي سخنين وعرابا ودير حنا وكوكب .

وكان لجمعية الجليل الدور الفعال بشكل خاص في موضوع المصارف الصحية للمدن والقرى العربية ، إذ ساعدت المجالس المحلية بقرض دوري لتغطية كلفة المخطط الرئيسية للمجلس المحلي في كل قرية. وحتى اليوم لا تزال القرى العربية تعاني من وضع حرج للغاية (فقرة ٢٢): إذ دعت الضرورة لوجود المخطط قبل أن تتمكن المجالس المحلية من الحصول على حق جمع الضرائب أو استئانة الأموال اللازمة لأعمال البناء . ولم يتمكنوا من الاستمرار في العمل لأن تكاليف المخطط تبلغ ٥٥٠٠٠ دولاراً ، ولا يملكون الأموال اللازمة لتغطية هذه الكلفة . وعندما تم وضع المخططات والموافقة عليها ، باشرت الجمعية اتصالاتها مع منظمات التنمية العالمية لتأمين الأموال اللازمة لأعمال البناء .

وبحلول عام ١٩٨٧ . تم توزيع القروض على إحدى عشر قرية ، وبدأت الجمعية تستلم الدفعات الأولى ؛ ولكن كان هناك عدد من الصعوبات التي تواجه القروض الدورية : فقد منعت وزارة الداخلية المجالس المحلية من استلام قروض من مصادر لا تقع تحت سيطرتها المباشرة — علماً بأنها لم تقم بتوفير الأموال اللازمة لمساعدة المجالس المحلية . وأخيراً ، وكما ورد في التقرير السنوي للجمعية الصادر في عام ١٩٨٦ :

(استلم ثمانية من المجالس المحلية من أصل إحدى عشر ، تمت الموافقة على طلباتهم ، قروضهم بشكل فعلي . وذلك بعد تدخل اللجنة القومية لرؤساء البلديات العرب ، وبعد التهديد بالجوء الى المحكمة العليا لإصدار إنذار يجبر وزارة الداخلية على السماح للمجالس باستلام تلك القروض) .

أقليات ضمن أقليات :

تشير إسرائيل الى (عربها) ، بالأقلية ، وقد تم تقسيمها فيما بعد إلى أربع فئات : العرب (مسلمين ومسيحيين) ، الدروز ، البدو والجركس . وتم تجنيد الدروز في الجيش عام ١٩٥٦ ، وكذلك الجماعة الجركسية الضئيلة عام ١٩٥٧ . أما بالنسبة لجماعة البدو فقد « سمح » لهم بالخدمة في الجيش منذ عام ١٩٤٨ ، بينما لا يخضع العرب من مسلمين ومسيحيين للخدمة العسكرية . ويتمتع المجندون في الجيش بعدد من الميزات لا تتوفر لغيرهم من الذين لا يُطبق عليهم قانون الخدمة الإلزامية . ومع ذلك تحتج شرائح كبيرة ومتزايدة من جماعات الدروز والبدو على إبعادهم عن إخوانهم العرب الفلسطينيين ، رغم (الميزات) التي يتمتعون بها ، ويدّوا فعلا بتنظيم أنفسهم ضد سياسة التمييز هذه ، فقد ادعت تلك الجماعات بأنهم يعاملون أيضاً معاملة غير عادلة بالمقارنة مع جماعات اليهود المساوية لهم .

يقدر عدد البدو بـ ٦٠٠.٠٠٠ نسمة تقريباً في منطقة النجف ، و ٣٥٠.٠٠٠ نسمة في الجليل (أي حوالي ١٢٪ من فلسطيني ٤٨) . كان عدد البدو في منطقة النجف حوالي ١٥٠.٠٠٠ شخص حتى عام ١٩٤٨ ، ولكن أثناء حرب ١٩٤٨ بين العرب وإسرائيل وبعدها ، انخفض عددهم إلى ١٣٠.٠٠٠ نسمة ، بعد أن أجبر الآلاف منهم على الهرب إلى غزة والضفة الغربية ، وإلى المدن التي كانت ستصبح إسرائيلية . وبالعكس جماعات البدو الأخرى الشرق الأوسطية ، أُجبرت جماعات البدو الفلسطينية على الإقامة عند نشوء دولة إسرائيل ، وتحول معظم أفرادها إلى مزارعين . وكما حصل مع فلسطيني ٤٨ ، فقدت هذه الجماعات أجزاء كبيرة من أراضيها إلى الدولة الإسرائيلية ، وواجهت منذ البداية سياسات التبريد وأُجبرت على العودة إلى الاستقرار .

كتب الدكتور (غازي فلاح) ، عالم جغرافيا بدوي ، وهو من القلائل الذين حصلوا على شهادة الدكتوراه :

(يعتبر بدو النجف القسم المهمل من الفلسطينيين ، وبواجهون المصاعب لأنهم عرب قبل كل شيء ، وثانياً لأنهم بدو) . وذكر (د. فلاح) عام ١٩٨٩ بأن الحكومة قد نفذت سياستها تجاه بدو النجف على مرحلتين : فمند أوائل الخمسينات وحتى منتصف الستينات ، أجبرت كثير من القبائل على الانتقال إلى شمال ووسط النجف ، حيث عاشت تحت الحكم العسكري الإسرائيلي ، ومنعت من مغادرة مناطقها دون تصريح . ومنذ منتصف الستينات حتى الآن ، جرت محاولة (الحشد) البدو في مناطق جديدة بنيت لهذا الغرض مثل : تل شيفا ، راحات ، قصيفي وعرازا ، وأجبروا هنا على أن يصبحوا بشكل فعلي عمال ميأومة بلا أرض في المناطق الإسرائيلية ، إذ لا يحق لهم الاقتراب من الأراضي القابلة للحرث ، ولا يوجد أيضاً أي نوع من الصناعة في تلك المناطق ، وفي عام ١٩٨٦ قدرت صحيفة الفجر في عددها الصادر في ١٢ ايلول : ان نسبة البطالة في أكبر مدينة : (راحات) ، والتي يبلغ عدد سكانها ١٦٠٠٠ نسمة ، تتراوح بين ٣٠-٥٠ ٪ .

رفض حوالي ثلثا البدو الانتقال الى المناطق الجديدة ، ومازالوا يعيشون في مستوطنات (بدائية) - منتشرة في ٢٠ قرية وناحية صغيرة غير معترف بها رسمياً (راجع تقرير ماركو فيتس ، الفصل الثاني) . فهم يرفضون مغادرة مكانهم ليس بسبب الظروف السيئة في المناطق الجديدة فحسب ، بل لأن انتقالهم سيؤدي حتماً إلى التنازل عن مطالبتهم بأرضهم ، إذ ما يزال عدد كبير منهم يطالبون بالأراضي التي كانوا يملكونها عام ١٩٤٨ . وذكر د. فلاح ان الخلافات تشمل ٢٤ مليون دونم من أراضي البدو ، وفي عام ١٩٧٩ أشارت إحصائيات (إدارة استيطان الأراضي) الى ٧٧٦٨٥٦ دونم ، وهي المساحة التي تعود ملكيتها الى (٢١) مجموعة من البدو بموجب إيصالات رسمية مصنفة موجودة بحوزتهم .

ذكر د. فلاح عام ١٩٨٩ :

(لم تستثن الدولة عملياً ، في نطاق رغبتها لاكتساب أراضي البدو ، أية عائلة بدوية من بعض أشكال المواجهة مع السلطات . وتحدث الإحصائيات الرسمية عن نفسها : ففي عام ١٩٧٩ سجلت ٣٢٢ حالة نزاع حول الأرض بين البدو ودولة إسرائيل . ووفق التقرير الرسمي الصادر عام ١٩٨٦ ، اعتبر ٥٩٤٤ منزلاً للبدو في منطقة النجف منازل غير نظامية ، وانخفضت للتدمير في الوقت الذي تحدده السلطات . وتذكر تلك الإحصائيات أن واحداً من كل ثمانية عشر بدوياً نجفياً يواجه مشكلة مع السلطات بخصوص الأرض ، وواحداً من كل عشرة من البدو يواجه مشكلة تتعلق بالسكن) .

تخلف البدو عن غيرهم من العرب في المجال التربوي والخدمات الأخرى ، ومما يدعو للسخرية أن الخدمات التربوية قبل عام ١٩٤٨ في مدينة بئر شبعاء - العربية آنئذ - كانت ، كما قال البعض ، أفضل من الخدمات الموجودة في المناطق الأخرى من البلاد . وقد ورد في مجلة (البيدر السياسي) الصادرة في ٣٠ آب ١٩٨٦ أن أول مدرسة للفتيان وجدت عام ١٩٠٨ (في زمن الحكم العثماني) ، وبُنيت مدرسة أخرى للفتيات أثناء فترة الانتداب البريطاني .

وفي عام ١٩٤٨ ، وصل عدد المدارس في منطقة النجف إلى ٣٦ مدرسة ومع ذلك لم تكن تستوعب جميع الراغبين في طلب العلم . ولكن بعد عام ١٩٤٨ (اختفى) التعليم الثانوي من منطقة النجف ، وتحولت مدرسة بئر شبعاء الثانوية إلى مراكز قيادة عسكرية إسرائيلية عام ١٩٥٠ . وفي الستينات فقط افتتح ثمانية صفوف لطلاب الثانوية العرب في المنطقة ، وفي الثمانينات انخفض عدد المدارس عما كان عليه قبل عام ١٩٤٨ بـ ٢٧ مدرسة ، وكانت بعض المدارس عبارة عن أكواخ خشبية كانت قد استعملت كأماكن إقامة مؤقتة للمهاجرين اليهود . وكانت المستويات التعليمية منخفضة جداً ، فعلى سبيل المثال ، في عام ١٩٨٥ تقدم ٢١٠ طالباً من (راحات) لامتحانات القبول بالجامعة ، نجح منهم

خمسة طلاب فقط . لذا حاول العديد من طلاب البدو التماس العلم في المدارس العربية في الجليل والمثلث ، الامر الذي يعتبر استنزافاً لموارد المنطقة قدره د. فلاح بنصف مليون دولار سنوياً .

في عام ١٩٧٩ تأسست في بئر شبعما (جمعية لدعم حقوق البدو والدفاع عنها) في اسرائيل ، وصل عدد اعضائها عام ١٩٨٦ الى ٣٠٠ عضو ، واستهلت اعمالها بمحاولة اكتساب تأييد الهيئة التشريعية لاعادة ملكية الارض الى البدو والحصول على خدمات أفضل . تمكنت الجمعية من تأسيس ثلاث رياض للاطفال ، وقدمت دورات تعليمية خاصة للطلاب الذين يجابهون بعض الصعوبات في المدارس ، فضلا عن توفير منح دراسية لبعض طلاب الجامعة . ومن ناحية أخرى ، قامت الجمعية بشراء الزيتون من مالكي الاراضي مقابل خمسة شيكللات وبيعها الى الفقراء مقابل شيكل واحد فقط . وعندما اندلعت الانتفاضة ، جمعت الاموال النقدية والسلع المختلفة من أجل فلسطيني غزة والضفة الغربية.

في منتصف الثمانينات ، حاولت الجمعية استعادة مسجد في بئر شبعما كانت السلطات الاسرائيلية قد حولته الى متحف وطني (يهودي) ؛ ويلاحظ الزائرون لهذا المسجد رسماً بيانياً زمنياً ممتعاً فوق الجدران حيث يتوقف فيه التاريخ في القرن السابع بعد الميلاد (اي عند دخول المسلمين الى فلسطين) ، ويعود للاستمرار في القرن العشرين فقط (مبتدءاً بالعهد الصهيوني) .

حثت الجمعية الناس على الذهاب لاداء فريضة الصلاة في المسجد كشكل من اشكال الاحتجاج ، وذلك في محاولة واحدة لاعادة التأكيد على ارتباط البدو بمسجدهم ، وفي تلك المناسبة ، قام أفراد الشرطة بجمع الاحذية التي خلعها البدو خارج المسجد / المتحف (وهو امر يتوجب فعله قبل الدخول الى مكان ديني مقدس للصلاة) ، ونقلوا تلك الاحذية الى قسم الشرطة . فضحك البدو كثيراً من قيام الشرطة 'بالقبض على الاحذية' . وفي محاولة ثانية ، في كانون الاول عام ١٩٨٦ ،

تمكنت اللجنة الاسلامية في النجف من استصدار امر قضائي بايقاف بلدية بئر شبعان عن تدمير الجدار المحيط بالمسجد / المتحف .

وكثيراً ما كانت الجمعية تحتج على محاولات الاستيلاء على أملاك البدو ، فقد صرحت في مؤتمر صحفي عقد في ١٢ شباط ١٩٨٦ :

(في فجر يوم الاربعاء الموافق الرابع من شباط عام ١٩٨٦ قام عمال من « ادارة الاراضي الاسرائيلية » باستئصال اشجار زيتون من بستان يقع على بعد عشرة كيلو متر تقريباً شمال بئر شبعان . . . وتعود ملكية هذا البستان الى رجل يدعى البحري سلمان . يبلغ الستين من عمره ، وقد ورث الارض عن والده ، وكانت في حوزته ويعمل بها قبل وجود دولة اسرائيل وبعده دون انقطاع . . . وفي اليوم التالي لاستئصال اشجار الزيتون ، توجه البحري الى قسم شرطة بئر شبعان ليكتب شكوى ضد عمال ادارة الاراضي . ولكنهم لم يستطيعوا مساعدته وارسلوه الى قسم الشرطة المحلية في تل شيفا ، وهناك قيل له : (اذهب الى مكتب ادارة الاراضي الاسرائيلية) . وعندما اجاب بأنه قدّم لكتابة شكوى حول الخسارة التي اصابته على ايدي عمال ادارة الاراضي ، اجيب بانهم لا يستلمون شكوى . ولم توافق الشرطة على استلام الشكوى من البحري إلا بعد أن تدخلت الجمعية في الموضوع في ٦ شباط عام ١٩٨٦) .

والامر الآخر الذي يثير قلق البدو هو بشكل خاص نشاطات (الخفر الخضر) كما يطلقون على انفسهم دون وجه حق ؛ وهم وحدة تأسست ضمن وزارة الزراعة ، وتزعم أنها من الشرطة ، وتحمي اراضي الدولة والبيئة . وصدر بيان عن الجمعية في ٢٧ تشرين الأول عام ١٩٨٧ هاجم فيه (الخفر الخضر) لقيامهم بعمليات استئصال الاشجار :

(قامت الجرافات ، بناء على امر من « الخفر الخضر » ، بتدمير بساتين زيتون تعود ملكيتها الى ٣٥ عائلة من قبيلة النصاصرة في اللاقية . . . ومزارع خضار زرعها تلك العائلات ، وكذلك مساحات

صغيرة مزروعة بالبادنجان والفلفل الأخضر تقع ضمن ساحات المنازل . تمت مصادرة أشجار الزيتون بعد استئصالها ، وأعيدت زراعة قسم منها في مستعمرة (بتح تيكفا) وغيرها من المدن ... كانت قبيلة الناصرة الفرعية ، والتي كانت تعتبر فرعاً من قبيلة (جديرات السنّا) ، قد طردت عام ١٩٥٢ من أرض أجدادها وأجبرت على الانتقال بالقوة الى (تل عراد) حيث عاش أفرادها حتى عام ١٩٧٤ . ثم قررت السلطات للمرة الثانية ، أن « تنظف » منطقة (تل عراد) وتنقل منها قبائل البدو . واقترحت عليهم الحكومة العودة الى أراضيهم - التي تمت مصادرتها دون وجه حق وفق قانون ملكية الأراضي الصادر عام ١٩٥٣ ، بزعم أن المالكين كانوا « متغييبين » ولا يعيشون عليها آنذاك . وذلك علماً بأن قبيلة الناصرة تمتلك وثائق تثبت ملكيتها لتلك الأراضي يعود تاريخها الى أكثر من تمانين عاماً ، ولديهم طلبات بهذا الخصوص مسجلة لدى محكمة الأراضي . وحتى هذا التاريخ ، لم تتم معالجة طلب واحد مقدم من البدو أو اتخاذ قرار بشأنه ضمن إطار إجراءات تسجيل الأراضي) .

٣١ تشرين أول ١٩٨٧

وفي بيان آخر « غير مؤرخ » حول الأوضاع في النجف حذرت الجمعية من هدم المنازل .

(تنفذ على الاغلب قرارات الهدم على المنازل التي تم بناؤها بدون ترخيصات رسمية ، علماً أن هذه الترخيصات الرسمية لا تمنح الى العرب سكان النجف الا اذا رغبوا في البناء داخل المناطق الجديدة التي خصصتها لهم الحكومة . أما أولئك الذين يرفضون الانتقال الى تلك المناطق فلا يمكنهم شرعياً بناء مبانٍ دائمة فوق الأرض التي يعيشون عليها .

وفي ١٨ نيسان عام ١٩٨٧ عقد اجتماع يهودي - بدوي مشترك كبير في قرية لاقية الصغيرة الواقعة شمالي النجف احتجاجاً على سياسة تدمير المنازل . ويخشى أن أكثر من ٨٠٠٠ منزل للعائلات البدوية قد حكم عليها بالهدم الفوري من قبل (الخفر الأخضر) في حال

تنفيذ توصيات تقرير ماركوفيتش الحكومي ، ونادى المتحدثون في هذا الاجتماع الذي اعتبر من أكبر الاجتماعات التي عقدت في النجف على الإطلاق ، الى اجراء تحقيق حكومي دقيق عن المفاسد التي يرتكبها (الخفر الخضر) .

لخصت الجمعية مطالبها على الشكل التالي : انتهاء سياسة اغتصاب الاراضي ، انتهاء برنامج « مناطق الاعتقال » ، تسوية مشكلة ملكية الاراضي ، (تقديم المساعدة الحكومية والمخصصات المائتة بشكل متساو الى كل المزارعين البدو واليهود على حد سواء ، بغض النظر عن المنشأ الديني العرقي ، اجراء تحقيق دقيق حول نشاطات الخفر الخضر ، وأخيراً إعادة مسجد بئر شيبعا تحت تصرف الجماعة الاسلامية .

ومن المجموعات البدوية الأخرى التي اتبعت أسلوب الاعتماد على الذات مجموعة (أبناء لاقية) التي تأسست عام ١٩٨١ ، واستهلت نشاطها عام ١٩٨٢ بتأسيس ناد صغير (انظر نصة عامر في القسم الثاني) . وفي شهر أيار من عام ١٩٨٦ حصلت منطقة (راحات) على حقها في انتخاب ممثلها للمجلس البلدي بعد دعوى قضائية رفعها أحد المواطنين ، بعد أن كان يحكم المدينة في السابق مجلس عينته السلطات الاسرائيلية .

في عام ١٩٨٨ بدأت مجلة عربية اسبوعية تسمى (اخبار النقب) - اخبار النجف - بالصدور بشكل نصف شهري ، ولم تدل منشوراتها على أي نوع من التحيز السياسي الحزبي ، بل كانت تنشر بأسلوب لبق اعلانات لجميع الاحزاب العربية خلال فترة انتخابات عام ١٩٨٨ ، بالإضافة الى حزب « حقوق المواطنين اليهود » ، و « حزب الاصوليين المسلمين » ، ولكنها كانت تناصر بشدة حقوق المجموعات البدوية . فقد كتبت في إحدى مقالاتها ضد عمليات تهديم المنازل :

(منذ اسبوعين اتجهت البلدوزرات نحو هدفين اثنين ... الاول في الجنوب حيث قامت السلطات بهدم ثلاثين منزلاً تعود جميعها لعائلة

(أبو كوش) ، والثاني حيث (قامت السلطات بهدم) ثلاثة منازل لعائلة الزبارقة في طيبة في المثلث . وعلى الرغم من المسافة الشاسعة بين المثلث والنجف ، إلا أن البلدوزر لا يعترف بالبعد ، بل يتذكر بأنه استأصل عائتي أبو كوش والزبارقة من موطنهما الأصلي في تل الملح . وما أن بدأت هاتان العائلتان تبرآن من الجراح الناجمة عن ماضٍ مأساوي حتى عاد البلدوزر يلاحقهما ليبرهن بأن هذه السياسة لا تميز بين المثلث والنجف) .

(١٦ تشرين الأول ١٩٨٨)

ويعتبر الدروز الجماعة الرئيسية الأخرى التي تسمى (أقلية داخل أقلية) ، وتقدر بحوالي ٦٠.٠٠٠ نسمة ، يعيش معظم أفرادها في منطقة الجليل . وفي عام ١٩٧٢ تأسست اللجنة التمهيدية الدرزية الصغيرة لتحمي جماعتها وتعزز هويتها العربية الفلسطينية ، واعتبرت هذه اللجنة أن جماعة الدروز هي أكثر الجماعات التي تتلقى (معاملة غير عادلة) في البلاد : (فقد فرضت علينا الخدمة الانزامية بشكل اجباري مع ما يرافقها من مآسٍ وصعوبات ، بالإضافة الى مصادرة القسم الأكبر من أراضينا ، والمعاناة التي نواجهها من تفشي البطالة وظروف المعيشة المكتظة) . وقدرت اللجنة بأن حوالي ٧٠٪ من أراضي جماعة الدروز قد فقدت منذ انشاء دولة اسرائيل . علاوة على ذلك ، (لا يوجد أية مشاريع تنمية ، أو صناعات ، أو نواد ، أو مجاري صحية ، أو طرق جيدة ، أو مخططات للمدينة ، أو أساليب زراعية حديثة) . وادعت اللجنة أيضا أن ميزانية قرية الدروز تعادل ١/٧ ميزانية القرى اليهودية المجاورة ، وذكرت أيضا أن المكاسب التعليمية للجماعة في المستوى الجامعي كانت منخفضة حتى أنها أقل من المستويات الموجودة في البرازيل : (حيث يوجد ١٢ تلميذا في كل ١٠٠٠ نسمة ، بينما يتراوح لدينا عدد التلاميذ بين ٤ - ٦ في ١٠٠٠ نسمة) .

افتتحت اللجنة مركزها الرئيسي (بيت المبادرة) في نيسان عام ١٩٨٧ في قرية يرقه ، حيث قصده مئات الاشخاص من جميع أنحاء المنطقة . وذكرت مقالة نشرت في صحيفة اللجنة التي تصدر بين الحين والآخر ما يلي : (قمنا بشراء مبنى ونعمل الآن على تجهيزه لكي يصبح شوكة في حلق كل من يبتلع حقوقنا) .

(نسخة نيسان عام ١٩٨٧)

وكان للجنة دور فعال في موضوع الخدمة العسكرية الإلزامية التي فرضت على جماعة الدروز ، فقد اشارت في إحدى كراسياتها بأنه عندما صدر قانون تجنيد الدروز عام ١٩٥٦ - والذي وصف بأنه « مأساة » قام ١٠٧٤ شخصا درزيا بتوقيع عريضة احتجاج على هذا القانون ، ولكن وافق عليه ستة عشر شخصا من قادة الجماعة ، فأصبح ساري المفعول . وبدأت اللجنة ما يوسعها لاقتناع شبان الدروز بأن يتخلفوا عن الخدمة . وفي مقابلة مع صحيفة (الراية) في ٣ حزيران عام ١٩٨٨ ذكر رئيس اللجنة (شيخ جمال الماضي) بأنه بلغ عدد السنوات التي قضاه الدروز في السجن ٣٠.٠٠٠ سنة بتهمة تخلفهم عن الخدمة العسكرية ، اذ يوجد في السجن دائما من ٦٠ - ٧٠ شخصا في أي وقت من الاوقات ، وصرح بما يلي :

(تحاول سلطات الاحتلال الاسرائيلية (في الضفة الغربية وغزة) على الدوام أن تشوه سمعة جماعة الدروز ، وذلك بتسليط الضوء على الجنود الدروز ، كما لو أنهم وحدهم المسؤولون عن مجابهة الانتفاضة ولكن يمكن في الحال أن تنكشف تلك المحاولات ، اذ يبلغ العدد الاجمالي من حراس الحدود من جماعة الدروز ١٥٠ شخصا ، موزعين في لبنان والضفة الغربية وغزة ، بالإضافة الى الجنود الموجودين داخل اسرائيل . إذا كيف يمكنهم أن يكونوا مسؤولين عن كل ذلك ؟ هناك عدد كبير من الجنود اليهود الذين يتكلمون اللغة العربية ويدعون بأنهم من الدروز ، وذلك لكي يلطخوا سمعتنا) .

وفي مقابلة مع صحيفة (المواقف) في عددها الصادر في ٢٢ آذار ١٩٨٦ ، اعترف (الشيخ جمال) بأنهم لم يكتسبوا بعد تأييد غالبية جماعة الدروز البالغة ٦٠.٠٠٠ نسمة ، ولكنه أضاف بأن مفهوم النضال ضد التجنيد العسكري كان يحرز تقدماً ملحوظاً . وكان هناك ثمة محاولة قام بها عضو الكنيست (توفيق طوبي) لالغاء قانون الخدمة العسكرية الإلزامي . وقدم عريضة الى الكنيست تتضمن ٧٠.٠٠٠ توقيع وقامت اللجنة ايضاً بتشكيل لجنة فرعية تشمل كل من يعارض الخدمة العسكرية .

من المحاولات الأخرى التي قامت بها جماعة الدروز لمقاومة سياسة التمييز : اعلان المجلس البلدي في قرية بيت جن في الجليل عن اضراب مفتوح في ١٣ نيسان عام ١٩٨٧ احتجاجاً على القيود المفروضة على استخدام أراضي القرية (التي كانت قد اعلنت منطقة محمية بيئياً) وعلى التمييز في تخصيص الميزانيات ، وتبع ذلك اضراب جميع المدارس في ٢٨ نيسان من العام ذاته . استمر اضراب بيت جن لمدة ١١٠ أيام ، وتحول الى مادة خصبة للأساطير بين فلسطين ٤٨ . وفي شهر تموز تم القبض على عدد كبير من القرويين في « معركة » قاموا بها دفاعاً عن أراضيهم في منطقة الزبود . وفي الشهر ذاته اصدر وزير الزراعة قوانين خاصة تجيز لاهالي قرية بيت جن زراعة أراضيهم . وعلى الرغم من الغاء الاضراب ، الا أن القرويين ذكروا بأن ذلك ليس كافياً : فهم يريدون قانوناً يعيد الأراضي الى مالكيها . وضماناً يكفل لهم حقوقهم في تلك الأراضي — وليس احكاماً وزارية يمكن الغاؤها فيما بعد .

ومن ناحية أخرى اعترض أفراد جماعة الدروز على مناهج التدريس التي تعلم في مدارسهم ، وفضلوا استخدام البرنامج العربي على (البرنامج الدرزي) الذي قدمته السلطات عام ١٩٧٥ ويتضمن تاريخ وحضارة الدروز . وفي عام ١٩٨١ أعلن رئيس مجلس « موغار المحلي » ، وهو عضو في الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة ، أن قريته أصبحت قرية عربية (يشكل الدروز ٦٠٪ من سكانها) ، وستلجأ

المدارس من الآن فصاعدا الى تطبيق البرنامج العربي وايس (البرنامج الدرزي) الموصى به من قبل السلطات فطرد نتيجة لذلك ، الا أن الاعتراضات استمرت ضد البرنامج ، فعلى سبيل المثال في عام ١٩٨٦ اعترضت عليه « لجنة خريجي المدارس » في دالية الكرمل .

ان الممارسات العنصرية ضد جماعات البدو والدروز - التي تخدم في الجيش - تدحض أكاذيب المدافعين الرسميين الذين يعززون المعاملة السيئة التي يتلقاها فلسطينيو ٤٨ الى (خيانتهم) للدولة . يمكن وصف هذه المعاملة بقلة التبصر في حال اعتقد المرء بأن هدف الدولة كان خلق مجتمع اسرائيلي متماسك . ولكي نجد أن سياسة التمييز تتخلل كافة قطاعات المجتمع الفلسطيني ، حتى أنها تعتبر سياسة عنصرية . ولا يسع المرء الا أن يفترض بأن هدف الدولة البعيد الامد هو ابقاء أولئك المواطنين في عزلة ، على أمل أن يقتنعوا يوما ما بأن مستقبلهم لا ينتظرهم في اسرائيل .

لقد اعتمد رد فعل فلسطيني ٤٨ ، كما رأينا في الفصل الثاني والثالث ، على المقدمة المنطقية التي تؤكد بأن مستقبلهم (يقبع) في اسرائيل ، حيث وطنهم الام . لذا عملوا على مستويين اثنين ، الاول : الضغط على السلطات لتفي بمسؤولياتها نحوهم كمواطنين مكلفين بدفع الضرائب ، والثاني : العمل على تطوير اعتمادهم الذاتي اقتصاديا واجتماعيا . وعلى الرغم من أن الطريق لا تزال طويلة أمامهم ، الا أنهم حققوا نجاحا ملحوظا ، حتى أن الدولة اليهودية لجأت كما سنرى في الفصل الرابع ، الى ابتكار أساليب جديدة لاعاقبة مسيرتهم .

* * *

الفصل الرابع

العد العكسي ؟

(هذا يعني إطلاق النفلد الآخر في وجهنا . فالحكومة لا تعطينا المال لدعم مجالسنا المحلية ، وإذا لجأنا الى الوكالة اليهودية يقولون لنا : « هذا المال آتى من الشعب اليهودي لمساعدة الشعب اليهودي » . أما الدول العربية فهي تعتبر دولاً معادية ، وإذا حاولنا الاتصال مع الفلسطينيين في الخارج ، فهذا يعني بأننا إرهابيون بالمعنى الذي تعرف به الحكومة الأشياء) .

(عضو الجمعية العامة للثقافة والفنون في إيلين)

لقد حقق النضال الذي قاده فلسطينيو ٤٨ ضد سلب الاملاك والتميز تقدماً هائلاً في السنوات الخمسة عشر الأخيرة . وكما رأينا في الفصول الثلاث السابقة ، لقد اتخذ هذا النضال شكل النشاط في المجال السياسي من خلال الأحزاب المنظمة ، بالإضافة الى المبادرات الطوعية العفوية المعتمدة على ذاتها على مستوى المدينة أو القرية ، والتي يمكن أن يكون لها لونها السياسي تعهد بتوفير حقوق متساوية وهوية فلسطينية عربية محددة وواضحة .

في صميم دافع فلسطيني ٤٨ لتنظيم صفوفهم حول القضايا الاجتماعية كان هناك تصميم على البقاء وحماية هويتهم العربية الفلسطينية المتميزة . وإذا قامت منظمة خاصة بمعالجة أية مشكلة عادية كشبكات المجاريير على سبيل المثال ، فإن الجهد المبذول لتنفيذ

هذا الموضوع سيتخذ معانٍ إضافية للهوية الثقافية . وبدأ واضحاً أن فشل الدولة اليهودية في توفير مثل تلك الليات كان أكثر من مجرد إهمال بسيط ، بل انطوى على ممارسة الضغط على فلسطيني ٤٨ ليرحلوا ، ويتخلوا عن أراضيهم وجذورهم . ليس من الغريب إذاً أن يشرب فلسطينيو ٤٨ إجراءاتهم الانتقامية بجدول أعمال مضاد ، وتصميم على البقاء والمحافظة على حضارتهم الخاصة .

كتب (روحانا) عام ١٩٨٩ يقول :

(هناك ثلاثة دوافع رئيسة كانت تكمن وراء السعي من أجل التنظيم على مستوى الجماعة ، ويختلف التأكيد عليها من منظمة الى أخرى : - الاستجابة الى بعض المطالب والحاجات المعينة لقطاع من السكان تهمل السلطات المعنية اهتماماته أو لا توليها العناية الكافية ؛ - المشاركة في الجهد العام الذي يبذله السكان العرب للحصول على المساواة ؛ - ودعم نضال الشعب الفلسطيني لتقرير المصير والاستقلال . في كثير من الحالات كانت المنظمة تبدأ بالهدفين الاولين ، أو الهدف الأول فقط ؛ ولكن في نهاية الأمر تحيط بالاهداف الثلاثة معاً) .

كانت أساليب العمل المتنوعة التي طورها فلسطينيو ٤٨ تتشابه مع الأساليب التي اتبعها إخوانهم في الضفة الغربية وغزة قبل الانتفاضة ، الذين قاموا بتأسيس عشرات المؤسسات والمنظمات الطوعية واللجان في مختلف المجالات : كالعناية الطبية ، والتربية والتعليم ، والزراعة ، والثقافة ؛ وذلك لمواصلة تقديمهم الاجتماعي بشكل مستقل عن بنى الاحتلال الإسرائيلية . والفارق الوحيد هو أن فلسطيني ٤٨ يناضلون ، حتى الآن ، ليس من أجل الاستقلال بل من أجل المساواة .

لقد اكتسب الفلسطينيون الى حد ما خبرة جيدة باستعمال لفة اليهود الإسرائيليين الخاصة ضدهم وتحديثهم بأساليبهم الخاصة ، مما يؤدي الى خلق شعور عميق بالقلق لديهم . وقد سجل (خليل نخلة)

مثالاً عن هذا القلق في إحدى مقالاته : (نقد للكتابة السوسولوجية عن الفلسطينيين داخل إسرائيل) التي نشرت في صحيفة دراسات فلسطينية عام ١٩٧٧ :

(بعد أن أقيت جزءاً من مناقشاتي الحالية في المنتدى الإداري في الجامعة العبرية في القدس ، وذلك في كانون أول عام ١٩٧٥ ، انتقد بعض زملاء اليهود المهتمين بعلم الإنسان آرائي الهجومية . واتسم ردّ الفعل العام لزملائي الجامعيين في جامعتي حيفا والقدس ، حيث قدمت بعض تلك الآراء ، بالاشمئزاز والإنكار . وأتت إحدى التعليقات كما يلي : « لقد صُدمت بحديثك وشعرت بخيبة أمل كبيرة ؛ لماذا أشعر كلما تحدثت مع فلاح عربي بسيط في القرى بأمل كبير بأننا يمكن أن نعيش سوية بسلام ، وعندما أستمع إلى حديثك يا زميلي أفقد ذلك الأمل ؟!) .

تمكن فلسطينيو ٤٨ بكافة فئاتهم ، من « الفلاح البسيط » إلى المفكر المثقف ، من تفهم النظام والاستفادة منه لتنفيذ أهدافهم . فالأحزاب السياسية ، والنوادي الثقافية ، ومعسكرات العمل الطوعية ، ولجان الأهالي في المدارس ، ورياض الأطفال ، وعمليات جمع الأموال لخدمة الجماعة ، ومحاولة اكتساب تأييد الكنيسة ، والحملات الإعلامية ، والدراسات الميدانية ، والإضرابات والمظاهرات ، كلها نشاطات مشروعة تحتمي في ظل نظام ديمقراطي .

وبما أن نضال فلسطيني ٤٨ هو نضال مشروع ، فإن الدولة اليهودية تبحث ، باستمرار ، عن طرق (مشروعة) لتقف في وجه هذا النضال . فعلى سبيل المثال ، عندما اشتد عود الحزب الشيوعي وأصبح قادراً على كسب رئاسة المجلس البلدي في الناصرة عام ١٩٧٥ ، أصدرت الحكومة (تقرير كويننغ) الذي أوصى ، كما ذكرنا في الفصل الثاني ، بعدة قرارات مضادة من شأنها أن تدعم الوجود اليهودي في الجليل .

وفي منتصف الثمانينات ، ظهرت على مسرح الأحداث قوى اجتماعية

وسياسية عربية جديدة ، وبدأ النضال من أجل تحقيق تطور اجتماعي - اقتصادي ذاتي. واتى رد فعل الحكومة مستتراً وراء (تقرير آرينز)، الذي تسربت تفاصيله ونشرت في صحيفة (هآرتس) الإسرائيلية اليومية في تشرين الأول عام ١٩٨٦ . وذكر بأن تقرير « آرينز » (الذي أصدره عضو الكنيست في حزب الليكود « موشيه آرينز » عندما كان وزيراً للشؤون العربية) قد حذر بأنه من المتوقع أن تصل نسبة (الأقليات في إسرائيل) الى ٢٩ ٪ من مجموع السكان بحلول عام ٢٠٠٠ . وأوصى التقرير بتحريم وجود أي حزب سياسي مستقل يتصل مع منظمة التحرير الفلسطينية ، ومنع قيام أية هيئات تعمل من أجل إيجاد حكم ذاتي للعرب داخل إسرائيل . وكذلك أوصى التقرير بمنع تحويل أية أموال أجنبية الى الهيئات العربية إلا بإذن مسبق من هيئة نظامية أو وفق قانون جديد يضمن عدم دخول الأموال من مصادر لا توافق عليها الدولة ، بالإضافة الى ذلك أوصى التقرير بضرورة دمج الهيئات العربية المحلية داخل المؤسسات الحكومية الرسمية ، وإلا عدم الاعتراف بها كلياً . وأخيراً تخصيص بعض البرامج التي تشجع (الأقليات) على التطوع للخدمة في جيش الدفاع الإسرائيلي .

(مقتبس عن الرسالة الإخبارية التي نشرت في صحيفة الهدف في تشرين الثاني ١٩٨٧) *

واجهت المنظمات والتجمعات التي أسسها فلسطينيو ٤٨ أخطر تهديد لها حتى الآن ، وتحية خفية للنجاح الذي حققته وذلك بسبب إحدى التوصيات التي وردت في تقرير (آرينز) وهي : القيود المفروضة على الأموال الأجنبية . وفي عام ١٩٨٩ ، اقترح إصدار تعديل خطير (لقانون الإرهاب) الذي صدر عام ١٩٤٨ ، بهدف فسخ المجال للسلطات الإسرائيلية لمصادرة الممتلكات والقيام بحملات اعتقال واسعة النطاق وإغلاق المؤسسات ؛ كل هذا بحجة الاشتباه بأنهم تلقوا أموالاً من منظمات « إرهابية » ، أو يمكن أن يفعلوا ذلك في المستقبل .

اعتبرت المذكرة الصادرة في ٢٢ أيار عام ١٩٨٩ (التعديل ٣ لقانون منع الإرهاب - ١٩٤٨) تادييباً ، إذ عرفت الملكية على أنها : (قطعة أرض ، أو ملكية متنقلة ، أو عملة متداولة ، أو حقوق من أي نوع ، وكذلك تشمل الأملاك التي تم شراؤها مقابل أملاك أخرى أو بالتبادل معها) . وذكر في القانون إنه في حال (اشتبه ضابط شرطة ، من رتبة مفوض ثاني فما فوق ، بأن هذه الملكية قد أتت من منظمة إرهابية ، يحق له أن يستصدر أمراً خفياً بوضع اليد عليها بهدف مصادرتها) . فضلاً عن ذلك ، يحق لضابط الشرطة الذي ينفذ أوامر المصادرة أن (يلجأ الى استعمال الإجراء الذي يراه مناسباً وضرورياً لتنفيذ تلك الأوامر ولمنع قيام أعمال شغب أثناء تنفيذه لمهمته ؛ وفي هذه الحالة ، يحق له دخول المباني ، ومنها المنازل وأماكن العمل) . ويحق أيضاً للمحكمة أن تصدر (أية أملاك أخرى تخص الشخص الذي صدر بحقه أمر المصادرة) . ويمكن أن يرفض طلب الهيئات بالتسجيل في حال الاشتباه بوجود أية علاقة لها مع (الإرهاب) ؛ والأسوأ من هذا ، يمكن تصفية الهيئات القائمة إذا كان لها علاقات مشبوهة . علاوة على ذلك ، وكما كان العرف السائد في كثير من القضايا الموجهة ضد فلسطيني ٤٨ الذين عانوا من القوانين العرفية الموروثة من الانتداب البريطاني :

(يمكن لهيئة المحكمة أن تقبل أي دليل يقدم في غياب صاحب العلاقة الذي تأثرت مصالحه أو في غياب وكيله القانوني ، ويحق لها أن تخفي عنهما ماهية هذا الدليل . . . إذا اقتنعت هيئة المحكمة أن كشف الدليل لصاحب العلاقة أو لوكيله القانوني يمكن أن يلحق الضرر بالحالة الأمنية للدولة أو المصلحة العامة) .

(لا بد من التنويه هنا أن التعديل الثاني لقانون منع الإرهاب عام ١٩٨٦ حرم الاتصال مع أعضاء أو ممثلي حركة التحرير الفلسطينية ، وقد استخدم هذا القانون ضد اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين على حد سواء) .

احتجت صحيفة (الهدف) ، والمطبوعات الفلسطينية الأخرى ،
بلهجة حادة على هذا القانون في شكله التمهيدي :

(كشف توضيح وزير العدل ، أمام لجنة العدل والدستور في
الكنيست ، لضرورة وجود هذا القانون الملحق ، عن المعنى المخيف
المستتر وراءه . إذ يشك من عجز العناصر الأمنية عن الحصول على
نتائج مرضية بموجب القانون السائد حالياً لأن القوانين الإجرائية
تقيدهم ويضطرون للاعتماد على حسن تمييز المحكمة ! فعلى سبيل
المثال ، من الضروري الكشف عن الدليل وتوضيحه وإحضار الشهود
أمام المحكمة واستجوابهم بدقة . ومن المؤكد أن عناصر الأمن في كثير من
الدول سيطيب لها أن تفتنم مثل تلك الفرصة وتلقي تلك الإجراءات
(المتعبة) ، ولكن في أنظمة الحكم الديمقراطية تعتبر قاعدة القانون ،
التي تشمل النظام القضائي القادر على حماية الحقوق والحريات المدنية
الأساسية . مثل : حق معرفة القضية الموجهة ضدك والإجابة عليها ،
مقدسة) .

(تموز - آب ١٩٨٩)

أشارت لجنة المحققين الدوليين في تموز عام ١٩٨٩ بأن عبء إثبات
[بأن الملكية أتت من منظمة إرهابية أمر] ضروري في القانون المدني (أي
اعتماداً على توازن الاحتمالات) وليس وفق القانون الجنائي (أي بعيداً
عن الشك المقبول) [. كما أشار إلى ما يلي :

(عندما أثبتت مثل تلك القضايا في مواضيع أخرى أمام المحاكم
الإسرائيلية ، قبلت المحكمة شهادة سلطات الأمن بأنهم يعلمون أن هذا
الفرد أو المنظمة تعمل لصالح منظمة محظرة أو تتصل بها ، ولكن لأسباب
أمنية لا تستطيع تلك السلطات الكشف عن مصدر المعلومات . إذا تبعت
المحكمة مثل هذا الإجراء في تلك القضايا ، ستجد الأطراف الأخرى في
الدعوى القضائية نفسها عاجزة عن دحض مثل هذه الادعاءات) .

عندما انتشر خبر اقانون المقترح ، تحركت اللجان الطوعية العربية ، واجتمع عدد منها في ٣٠ نيسان عام ١٩٨٩ وشكلوا (لجنة الدفاع عن العمل الطوعي) ، واتفقوا على (رفع الاعتراضات على أي تعديل للقانون للبحوث والخدمات الصحية ، جمعية حقوق الإنسان ، وجمعية المتاحف للعمل الطوعي) ، واتفقوا على (رفع الاعتراضات على أي تعديل للقانون يهدف الى ايقاف المساهمات المالية التي تصل إلى المؤسسات الطوعية في القطاع العربي من الجمعيات الاجنبية التي تم تسجيلها في بلادها بشكل قانوني) . واكدوا على (حق تلك المؤسسات في الحصول على مساهمات مالية لتتمكن من تحقيق أهدافها المسجلة كما تفعل مئات المؤسسات الطوعية اليهودية . وحتى الآن يعاني القطاع العربي ضمن الخط الأخضر من إجراءات الحكومة العنصرية ، ولا يتلقى الدعم المادي من الحكومة من أجل تطوير أوضاعه) .

بعد التلاوة الاولى (من أصل ثلاثة) للقانون في الكنيست في ٢٣ ايار عام ١٩٨٩ ، قامت خمس وخمسون وكالة طوعية وهيئة تهتم بالشؤون المحلية وتخدم الفلسطينيين في اسرائيل باصدار مناشدة دولية، وجمعت آراءً مختلفة ضمت الاحزاب اليسارية واليمينية ، وكذلك آراء الاصدقاء والاعضاء في « الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة » ، و « أبناء البلد » ، و « الحلف الإسلامي » في أم الفحم ، و « القائمة التقدمية للسلام » ، و « الحزب الديمقراطي العربي » . إذ يشكل هذا التعديل تهديداً لجميع الأطراف قاطبة ، ونصت المناشدة على مايلي : (على الرغم من أن الهدف الظاهري لهذا التعديل المقترح مكافحة الارهاب ... إلا أنه سيعطي بشكل فعلي جهازبي الشرطة والامن في اسرائيل قوى مطلقة لاغلاق المنظمات المحسنة ومصادرة موجوداتها والقبض على العناصر الفعالة) .

أنت مذكرة التعديل هذه نتيجة اقتراح تقدم به وزير العدل (دان مريدور) ، ونشرت صحيفة (جيروزالم بوست) المناقشة التالية التي دارت في الكنيست ، إذ قال عضو الكنيست (محمد معياري) من القائمة

التقدمية للسلام ، والذي صوت ضد القرار : (يهدف هذا القانون الى غرض معين وهو توجيه ضربة قاسية لعرب اسرائيل) . فأجابه (مريدور) بأنه : (لا علاقة ليهود اسرائيل بخلق الوضع الذي استوجب اصدار مثل هذا القرار) . واوردت الصحيفة تقديرات المحامي (حسين ابو حسن) التي قال فيها بأن هناك ثمانون جمعية طوعية عربية ، تتلقى ٩٠ ٪ من مخصصاتها المالية من الخارج ، وأن هذا التعديل سيدمر عملها تماماً . ونشرت الصحيفة أيضاً ما ذكره عضو في « الجمعية العامة للحضارة والفنون » ، وهي جمعية في « ايبيلين » تعمل على مبدأ الاعتماد الذاتي :

(هذا يعني اغلاق المنفذ الاخير لنا ، فالحكومة لاتقدم لنا المال لدعم مجالسنا المحلية ، واذا لجأنا الى الوكالة اليهودية ، فانهم يقولون لنا : « لقد أتى هذا المال من اليهود لمساعدة اخوانهم اليهود » . أما الدول العربية فتعتبر دولا معادية ، واذا حاولنا الاتصال مع الفلسطينيين في الخارج ، هذا يعني بأننا ارهابيون حسب اللغة التي تعرف بها الحكومة الاشياء) .

وفي صيف عام ١٩٨٩ قامت وكالة تنمية اوروبية تعمل على مساعدة الفلسطينيين بارسال نداء استغاثة الى الاصدقاء والزعماء تقول فيه :

(الأمر الذي يثير القلق في المسودة المقترحة هو التعريف الشامل والغامض لما تسميه المسودة (بالمنظمة غير الشرعية) ، وكذلك حرية التصرف الواسعة التي أعطت الى الهيئات الادارية ، وتغيير عبء الإثبات والتقليل من أهميته . علاوة على ذلك ، تمنح المسودة سلطات واسعة الى الشرطة لمصادرة الممتلكات قبل ان يتسنى للسلطة القضائية أن تقرر فيما اذا كانت تلك الاملاك تعود فعلا الى هيئة غير شرعية أم لا) .

وتوقعت هيئات كثيرة أنه حالما تتحول المذكورة الى قانون ، فإن سلطات الاحتلال العسكرية الاسرائيلية في الضفة الغربية وغزة سوف تصدر على الفور أمراً عسكرياً يقضي بأن تتعامل المناطق المحتلة الممتدة

على الخطوط ذاتها مع القطاع الطوعي الرأح تحت الاحتلال والذي يتعرض دائماً لانتهاكات وحشية .

في أواخر عام ١٩٨٩ قدمت عدة منظمات عربية ويهودية مجتمعة اعتراضاً على القانون المقترح ، وعقد اجتماع في ٥ تشرين الثاني في تل أبيب حضره أكثر من ١٥٠ شخصاً ، ونظمت لجنة الجمعيات الطوعية العربية بالاشتراك مع المركز الدولي للسلام في الشرق الأوسط . وذكر رئيس « اللجنة الإقليمية للمجالس المحلية العربية (إبراهيم نمر حسين) بأن : (هذا القانون سيلحق أضراراً لاتحصى بالشاربع التي تعتبر على درجة كبيرة من الحيوية للجماعات الفلسطينية هنا ، وذلك بسبب نقص الدم المادي الحكومي) . وأضاف (حسين) بأنه (عندما طلب الفلسطينيون الدم المادي من الحكومة لمشاريع التطوير أجيبوا بأن الأموال المخصصة لهذا الغرض تأتي من المحسنين اليهود في الخارج ، وأن عليهم أيضاً أن يحدو حذوهم ويبحثوا عن المال من الخارج - ولكن الآن ، وبعد أن أخذ العرب يطبقون ذلك بالفعل ، بدأت الحكومة تحاول إعاقة حركتهم) .

(الرسالة الاخبارية المنشورة في صحيفة

الهدف عدد رقم ١٠٢ ، بلا تاريخ)

وعندما بدأ مجلس النواب بالتحضير لاستئناف المناقشات حول هذا الموضوع ، قام ائتلاف يضم ١٠٢ مجموعة عربية ويهودية بالاعتراض على هذا الاجراء . ونشرت صحيفة (نيويورك تايمز) في عددها الصادر في ١٢ تشرين الثاني عام ١٩٨٩ مقتبسات من حديث الدكتور (حاتم كنانة) من جمعية الجليل للخدمات الصحية والبحوث : (يهدف هذا القانون إلى إعاقة تطوير القطاع العربي لنبقى معتمدين كلياً على الحكومة والاحزاب السياسية الرئيسية) .

وعلقت صحيفة (نيويورك تايمز) على الحدث بقولها :

(يدل الاقتراح الاسرائيلي على القلق من احتمال ازدياد الاعتمادات المالية لمنظمة التحرير الفلسطينية لتشمل عرب اسرائيل . ويظهر أيضاً عدم الثقة التي يشعر بها العديد من الزعماء اليهود تجاه ال ٧٠٠.٠٠٠ مواطن عربي الموجودين في اسرائيل . وتدرك السلطات الاسرائيلية بأن الاعتمادات الحكومية المخصصة للخدمات الاجتماعية في المدن العربية اقل بكثير من تلك المخصصة لمثيلاتها من المدن اليهودية) .

ضغط لا يلين :

في نهاية الثمانينات ، واجه فلسطينيو ٤٨ تحدياً جديداً مع الانباء الواردة من الاتحاد السوفياتي والتي تفيد برفع القيود التي كانت مفروضة على الهجرة اليهودية . في السابق كان معظم اليهود الروس الذين يسمح لهم بمغادرة الاتحاد السوفياتي يتوجهون مباشرة إلى الولايات المتحدة الامريكية ، ولكن بعد تسهيل عملية الهجرة من الاتحاد السوفياتي ، اقترحت الولايات المتحدة بأن اليهود لن يعتبروا بعد اليوم جملة مضطهدة تستحق معاملة خاصة ، وعليهم منذ الآن أن يقفوا في طابور طويل مع كل شخص يرغب في دخول الولايات المتحدة . لذلك سيحول معظم المهاجرين اليهود السوفيات وجهتهم نحو اسرائيل (ولكن حالما يصلونها ، سيحاول الكثيرون منهم تقديم طلبات لدخول الولايات المتحدة) . وفي كانون الثاني عام ١٩٩٠ قدرت صحيفة (نيويورك تايمز) نسبة اليهود السوفيات الوافدين إلى إسرائيل بأكثر من ١٠٠٠ شخص اسبوعياً .

سيؤدي طوفان المهاجرين هذا الى مزيد من الضغط على اكثر الموارد قيمة ألا وهي الارض ، وكذلك على اموال التنمية الواردة من الخارج . لا مجال للشك بأن فلسطيني ٤٨ ، الذين يكابدون الآن ألوان العذاب في تلك المناطق ، سيواجهون مزيداً من الضغوط ؛ ولا مخرج لهم من ورطتهم تلك إلا بتحقيق تسوية سلمية بين العرب واسرائيل وتأسيس دولة فلسطينية - الامر الذي سيضع نهاية لآمال الليكود بتوطين اليهود

في الضفة الغربية وغزة . ويجب أن تأوي الدولة الفلسطينية المرتقبة أكبر عدد من اللاجئين الفلسطينيين العائدين من لبنان والقطار الأخرى . ولكن ، على أية حال لا يرغب فلسطينيو ٨٠٠ بالانتقال الى دولة فلسطينية ، لأن مدنهم وقراهم في إسرائيل هي موطنهم ، وهم مصممون على البقاء فيها .

من المحتمل نشوب مواجهة بين الفلسطينيين واليهود داخل إسرائيل ، ويتوقع أن تكون مواجهة دامية ، ولكن حتماً لن يكون الفلسطينيون هم أول من يلجأ الى استخدام العنف . فباستثناء العقد ، أو نحو ذلك ، الذي تلى نشوء دولة إسرائيل ، لم يكن (الكفاح المسلح) عملاً مألوفاً بين فلسطيني ٨٠٠ ، وشهد العقدان الأخيران استخداماً رفيعاً متزايداً للأساليب الديمقراطية للتوصل الى التغيير ، وعلى أية حال ، إذا أغلق اليهود الإسرائيليون جميع المعابر الديمقراطية ، ولجأوا الى استخدام القوة ضد الفلسطينيين ، سيكون الناتج العنف .

المخرج الوحيد من الأزمة هو أن يواجه يهود إسرائيل التناقض الأساسي في كون إسرائيل دولة يهودية وديمقراطية في آن واحد . فعند المستوى القاعدي ، يجب أن تتحول إسرائيل من « مأوى » لليهود المضطهدين الى دولة طبيعية حيث تنطبق ، كما يقترح الروائي (أنطون شماس) ، معايير الهجرة ذاتها على الجميع ، وعلى أساس عدد الوافدين الجدد الذي تستطيع الدولة استيعابه ، مع استمرارها بتقديم فرص متساوية لمواطنيها المقيمين . ويجب حتماً التخلي عن استخدام مبدأ اللاسامية (المعاداة لليهود) كحجة لوجود إسرائيل . وسيستمر المواطنون اليهود في دول أخرى بمحاربة اللاسامية لوضع حد لأي تمييز في المعاملة يمكن أن يواجههم في تلك الدول . ويجب أن تكون الروابط التي تشد اليهود الى إسرائيل روابط دينية ، كذلك التي تربط الكاثوليك بالفاتيكان ؛ أو روابط عاطفية ، كالتي تربط الأمريكيين « بالوطن الأم » . ويجب أن لا ينظر الى دولة إسرائيل على أنها وطن بديل - الوضع الذي يعرض اليهود المقيمين في الدول الأخرى الى اتهامهم بالخيانة المزدوجة .

وحالما تكف اسرائيل عن كونها مأوى يهودي ودولة يهودية ،
ستنتقل الى فترة ما بعد الصهيونية . لذا فالجواب على مشكلة المساواة
والتعايش السلمي بين اليهود الاسرائيليين والعرب هو دولة إسرائيل
(الخالية من الصهيونية) . وطالما أن غالبية اليهود الاسرائيليين ما يزالون
بعيدين عن رؤية الأمور بهذه الطريقة ، يبدو أن العقد التالي يحمل بين
طيّاته مأساة .

وعلى أية حال ، يؤمن الآن كثير من الفلسطينيين بإمكانية نجاح هذا
الحل ، فقد مرت مسيرة تطور الكفاح الفلسطيني عبر ثلاث مراحل .
المرحلة الأولى وهي : (النضال المسلح) الذي قاده الفلسطينيون في
المنفى كرد فعل على قيام إسرائيل بطردهم من وطنهم ، وأدى هذا النضال
الى إبقاء الأمور جارية بنشاط ولكنه لم يحل المعضلة . أما المرحلة الثانية
فهي : التنظيم المدني ومقاومة التوسع الاسرائيلي في الضفة الغربية وغزة ،
وبلغت ذروة هذه المرحلة باندلاع الانتفاضة . أما المرحلة الثالثة ، والتي
هي قيد التبلور ، فتعود الى فلسطيني ٤٨ الذين يناضلون على المدى
الطويل للوصول الى دولة إسرائيل الخالية من الصهيونية ؛ وإنشاء دولة
تعمل ، ووفق ديمقراطية حقيقية ، من أجل صالح كافة مواطنيها .

في الوقت الحالي ، يتركز اهتمام فلسطيني ٤٨ على السبل الكفيلة
بإنهاء سياسة التمييز وتحقيق الاعتراف بهويتهم كعرب فلسطينيين .
في القسم الثاني من الكتاب نلتقي بعدد كبير من المواطنين العرب
الفلسطينيين في إسرائيل لنستمع الى المشاكل التي يواجهونها ، وإلى
الحلول التي يبتكرونها . ويروون لنا قصصهم بكلمات وأقعية تكفي
لوصف شؤون حياتهم اليومية ، وعاطفية لرسم حلم المستقبل .

* * *

القسم الثاني

صورة عن بناء المؤسسات

(منذ حوالي خمس سنوات) أو نحو ذلك ، اتخذت قراراً جازماً ألا أستعمل كلمة عبرية واحدة أثناء تكلمي العربية . وفي إحدى المناسبات كنا في اجتماع مع بعض اليهود اليساريين ، الذين يتكلمون العبرية فقط ، لذا قررنا ان نلجأ الى شخص يترجم لنا اللغة العبرية الى العربية ، على الرغم من أننا نتحدث جميعاً العبرية بطلاقة . ثم ، وبعد انتهاء الاجتماع ، ذكر احداً كلمة باللغة العبرية فصعق اليهود من الدهشة ، وصاحوا محتجين : (عجباً ، إنكم عربنا نحن برغم كل شيء !)

مروان - ١٩٨٩

الفصل الخامس

المستشارة : سهام في عكا

(لقد سألتهم : هل تترهبون على وجود مؤسسة تربوية ،
ام مؤسسة عربية تربوية ؟)

« سهام »

قال أحد المواطنين وهو يحدق في البحر وفي الشمس التي تستعد
للرحيل : (لا يوجد مشهد غروب أجمل من مشهد الغروب في عكا) .

يبلغ عدد سكان مدينة عكا ٥٠,١٠٠ نسمة ، منهم حوالي ١٥,٠٠٠
عربي ، يعيش ١٠,٠٠٠ عربي في عكا القديمة ، وهي منطقة جميلة تشرف
للأسف على الانهيار . ولكن على الرغم من حالتها المضطهدة ، إلا أن هالة
من الجلال تحيط بها وكأنها تقول : (كان لي يوماً ما ماضٍ مجيد) .

ويؤمن المواطنون العرب بأن مجلس البلدية يترك المنطقة تنهار بهذا
الشكل حتى يضطر السكان للرحيل ؛ عندئذ يمكن أن تتحول المنطقة الى
مكان يجتذب السياح ، ومناطق اقامة لليهود ؛ خاصة أن العديد من
يهود تل أبيب يودون الانتقال الى عكا .

وقامت السلطات بالفعل باقناع بعض الفلسطينيين بالانتقال الى
مدينة يطلق عليها (ماكير) ، ونجحت في التأثير على العائلات المعدمة التي

تقطن في منازل منهارة ، وكذلك الشباب الذين يرغبون بتأسيس أسر جديدة ، بأنها قد بنت لهم شققاً جديدة وفخمة . وعندما أصبحوا في مدينة (مكير) ، وجدوا أنفسهم يعيشون في شقق صغيرة تشبه علب الكبريت ، وذلك فضلاً عن الاستياء الذي قابلهم به السكان العرب المحليين الذين شبهوهم باليهود الذين استوطنوا الأراضي العربية بدون دعوة من أصحابها . لذا يتشوق الكثيرون من الفلسطينيين الذين انتقلوا الى (مكير) للعودة الى ديارهم القديمة .

فسر أحد المواطنين بلهجة غاضبة : (تقوم السلطات بمصادرة عكا القديمة شيئاً فشيئاً ، فعلى سبيل المثال ، كان الشاطئ العربي منطقة عامة ترتادها العائلات للتنزه والرحلات . أما الآن فقد صدره اليهود ، وبناو عليه المطاعم والنوادي الليلية ، وأشادوا حوله سياجاً يمنع السكان المحليين من الاقتراب ويمنع الدخول الا لمن يدفع أربعة شيكلات) .

وتحاول السلطات اليهودية الاسرائيلية أيضاً نقل الصيادين ، ولكنهم يبذلون مقاومة شديدة (تفوق ، على ما يبدو ، مقاومة صيادي يافا) ، لذلك لجأت السلطات الى ممارسة ضغوط أخرى كتحويل المنطقة الى مكان سياحي وتخصيص مرسى للسفن والمراكب الشراعية ؛ الامر الذي حصر المناطق المخصصة لارساء قوارب الصيادين ، وأبقم لهم مكاناً محدوداً لشباكهم ، فضلاً عن ذلك ، فرضت السلطات قيوداً صارمة على امكنة بيع الاسماك .

خارج الجدران المطلة على البحر ، يعيش بعض الفلسطينيين في منازل قديمة عربية الطراز ، والبعض يعيش في فيلات فخمة ؛ ويعيش آخرون في شقق للجمعيات كانت تقطنها في السابق عائلات يهودية انتقلت الى مكان آخر ، ويسكن عدد قليل أيضاً في شقق سكنية مستقلة .

تبلغ (سهام) الثانية والأربعين من عمرها ، وتعمل مستشارة في (دار الطفل) ، وعضواً في (اتحاد نساء عكا العربيات) ؛ وهي الى جانب

ذلك تعمل مدرسة في مدرسة ثانوية ومحاضرة في جامعة حيفا . تبدأ (سهام) يومها في الثامنة صباحاً ، وغالباً ما ينتهي في الحادية عشرة ليلاً . إنها سيدة طويلة القامة ، وقورة ، ولا ينقصها حرارة وعبت الفتيات ؛ وتظن في شقة سكنية مع ولديها : (أحمد) في العشرين من عمره ، و (عليا) في الخامسة عشر من عمرها . يضم المبنى الذي تقطن فيه ٣٢ شقة ، يشغل سبع منها عائلات عربية ، والباقي تشغله عائلات يهودية . وتتألف شقة (سهام) من ثلاث غرف نوم ، ومكتب ، وغرفة جلوس واسعة ، ومطبخ وحمام .

تختلف شقتها الى حد كبير عن المنزل الذي نشأت فيه ، حيث ما تزال والدتها وشقيقتها الكبرى العزباء (ليس) تعيشان فيه . يتألف منزلهما ، ذو الطراز العربي ، من ست غرف فسيحة وحديقة كبيرة شهدت أياماً أفضل من هذه الأيام . ويحرس المنزل كلب أزرابي ضخمة ، يبقى مقيداً طوال النهار الى احدى الأشجار ، ولا يكف عن ترويض أطرافه الممتلئة في دورات حول نفسه بقدر ما يسمح له قيده ، ويطلق في الليل ليتجول في الحديقة . ولا يسمح له بدخول المنزل في النهار أو في الليل لأن الكلاب ، وفق التقاليد ، حيوانات غير طاهرة .

تقوم (سهام) يومياً بزيارة شقيقتها ووالدتها العجوز البالغة من العمر ٨٤ عاماً ، وهي سيدة عاجزة عن الحركة ولكنها تملك ذهنًا حاداً وروحاً مرحة . أما (ليس) فهي في بداية العقد الخامس من عمرها ، وهي مسلمة ملتزمة ولكنها ليست أصولية ؛ إنها امرأة لطيفة وترحب دائماً بالزوار الذين لا يتوقفون عن التدفق طوال اليوم من أقارب وجيران وأصدقاء .

وصلت (سهام) بعد الظهر الى منزل والدتها قادمة من (دار الطفل) ، كان الجو حاراً ومشبعاً بالرطوبة ، قبلت والدتها وشقيقتها ، ثم ألقت بنفسها في كرسي ، وقد بدأ عليها التعب والجوع .

قالت لميس : (سأسخن الطعام) .

قالت سهام مبتسمة : (في الواقع لا أملك الوقت الكافي لطهي الطعام بسبب مواعيدي المزدحمة ، لذا عقدت اتفاقاً مع لميس : إذ أشارك في نفقات الطعام ، وهي تحضر كمية كبيرة تكفيني أنا وولدي . وأتناول كل يوم طعامي هنا ، ولكن لا يحضر أحياناً ولداي . لذا أخذ حصتيهما معي إلى المنزل ، وفي بعض الأحيان يحضر (أحمد) لنفسه وجبة بسيطة بالطبخ) .

سألتهما والدتهما إذا كان ولداها سيحضران لتناول الطعام .

أجابت سهام : (لا ، ما يزال أحمد يدرس من أجل الامتحانات ، وقدمت (عليا) اليوم آخر امتحاناتها وخرجت للقاء صديقاتها قبل أن تسافر إلى أمريكا لقضاء عطلة الصيف) .

حدثت (سهام) في لوحة كبيرة على الحائط تمثل صورة رجل عجوز ذي وجه وسيم ، ثم قالت :

(إنه والدي ، كان رجلاً طيباً وعاقلاً جداً أيضاً . اتعلمين أنه بسبب بقاءه في عكا أثناء كل المشاكل التي حدثت تمكن من المحافظة على هذا المنزل ؛ فقد حافظ على أوراق ملكيته وأخذ منزله .

وكانت لديه أملاك أخرى بالاشتراك مع صديق له كان قد غادر البلاد ومعه أوراق الملكية ، فقام اليهود بعد ذلك بمصادرة بعض الأملاك بحجة عدم وجود أوراق رسمية تثبت اشتراك والدي في الملكية .

عندما وقعت البلاد تحت الاحتلال ، لبست النساء ثياب الحداد ، وامتنعن عن الذهاب إلى الحمام العمومي ، وكذلك عن تسريح شعورهن ، وأصبحن أكثر عزلة بسبب خوفهن مما قد يفعله اليهود لهن . وأخرجت الفتيات من المدارس في سن مبكرة فتزوج بعضهن ، ومكثت الأخريات في

منازلهن ، دون زواج بسبب مغادرة أقاربهن البلاد ، ولا يسمح الآباء بزواج بناتهم للغرباء .

لم يكن الناس واقعيين تجاه الوضع ، واعتقدوا أن المحتلين سيقبضون فقط لفترة وجيزة ، ولكن في نهاية الامر كان عليهم أن يواجهوا الحقيقة . لذا عندما أصبح التعليم مجانيا في الخمسينات ، سمحت العائلات للفتيات باتمام الدراسة ، مع العلم أن ذلك لم يكن من أجل التعليم فحسب ، بل كان حلا أفضل من بقاء الفتيات عاطلات . من ناحية أخرى ، أخرج الفتيان من المدارس في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشر لكي يعملوا ويساعدوا عائلاتهم ماديا ، إذ عانى معظم الناس من خسائر اقتصادية فادحة. فجع والدادي، كما حصل للجميع وقتذاك ، من خسائرتهم للأرض ، ولكنهما لم يعلما في الواقع النتائج القومية لذلك ، إذ انحصرت معاناتهما على المستوى الفردي والشخصي الى حد كبير ، ولم يكن شغلهم الشاغل كيفية تحرير البلاد بل كيفية حماية العائلة) .

ردت والددة سهام بضحكة خافتة: (ربما أصبح الناس اليوم أكثر وعيا ولكنهم ليسوا أكثر تهديبا . فقد كافحنا نحن أيضا في الماضي ، والتذكر حتى الآن كيف بقي الناس في عكا تحت الحكم التركي دون طعام أو لباس وكنت أسير من عكا الى حيفا لأجلب الطعام وأحمله فوق رأسي وعلى ظهري وذراعي ، وأسير به طوال طريق العودة .

كان معظم رجالنا يخدمون في الجيش التركي ، ومن بقي في عكا كان يخجل من البحث عن الطعام وجلبه ، لأنها كانت مهمة النساء . ثم بعد ذلك ، وخلال فترة المقاومة ، كان بعضنا يحمل الطعام والشاي للمقاتلين في الجبال ، وكنا نمضي الساعات ونحن نحاول إزالة الصدا عن الدخيرة الحربية التي كانت ترسل من مصر) .

قطع الحادثة وصول (حسين) ، أحد أشقاء (سهام) ، وهو في الثانية والخمسين من عمره ، ويمتلك مطعما يشرف على البحر . قبل (حسين) والدته واستفهم عن صحتها ، وقالت وعلى وجهها ابتسامة عريضة : (تريدان الحصول على معلومات عن الماضي) .

تابعت (سهام) روايتها : (في عام ١٩٤٨ ، كانت والدتي تشعر بالخوف الشديد علينا ، لاننا كنا اطفالا ، وخاصة على شقيقي الذي كان مهددا بالاعدام على أيدي اليهود . ففي تلك الايام ، كانوا يلقون القبض على الشبان اليافعين ويضعونهم في السجن ، ويهددونهم بالاعدام ليشبطوا عزائمهم عن الدفاع عن بلدهم . أرادت والدتي وقتل ذلك أن نفادر جميعا البلاد ، الا أن والدي أبى ، وقال أن الاتراك احتلوا بلادنا ثم غادورا ، وأنى بعدهم الانجليز ورحلوا ، والآن قدم اليهود ولكنهم سيرحلون أيضا ، وأن هذا وطنه ومنزله ولن يغادرهما . وقال لها أنه لا يستطيع أن يتحمل وزرها هي والاولاد ، فاذا كانت تشعر بالخوف الى هذا الحد فلتفادر مع الاولاد .

وهكذا بقي والدي ، وذهبنا نحن الى لبنان لمدة عام او نحو ذلك . ثم أذن له باستعادة عائلته ، ولكن ليس جميع أفرادها : بل زوجته وبناته العازبات ، والفتيان الذين لا تتجاوز أعمارهم السادسة عشر لذا لم تستطع شقيقتاي المتزوجتان العودة ، وكذلك شقيقي اذ تجاوز أحدهما السادسة عشر عاما ، والثاني بلغها ، ففترقنا للمرة الاولى في حياتنا وما نزال كذلك حتى الآن) .

قال (حسين) : (لم يكن هناك وعي سياسي في تلك الايام ، وكان شعورنا عاطفيا بحتا. اذكر عندما عدنا من لبنان انني اضطرت لتل المدرسة من أجل العمل ، وعملت وقتذاك نجارا في الكيوتز (مزرعة جماعية يهودية) ، أبني منازل مسبقة الصنع لليهود ، وأمضيت في هذا العمل قرابة عام ، كنت خلاله في غاية السعادة. فقد كان الكيوتز بالنسبة لي مثالا نموذجيا عن الاشتراكية التي تأثرت بها كثيرا . وهكذا

كنت هناك أبني المنازل من أجل الأشخاص أنفسهم الذين اغتصبوا أرضي ووطني ، ولكنني لم أكن أعلم بذلك - فقد كنا نجهل قضيتنا من الناحية السياسية إلى حد كبير . كل ما كان يهمني هو أن عددا من أفراد عائلتي قد غادورا البلاد ولم يسمح لهم بالعودة) .

قالت والدته متنهدة : (نعم ، لقد فرق اليهود بيننا ، وسببوا لنا الماكبرا) .

تابع (حسين) قائلا : (اعتدت وقتذاك أن أنام في الكيبوتز ، وأذهب بعد ظهر يوم الجمعة إلى المنزل ، ثم أعود إلى العمل يوم الأحد أدرك والدي ، الذي كان رجلا حكيما ، أنني تأثرت بالحياة في الكيبوتز وبأنه قد بدأ يفقد سيطرته علي . فقرر أن يجد وسيلة لابقائي في عكا بما أنني سأكون المسؤول عن العائلة بعد وفاته . كان في تلك الأيام يملك مقهى مع شريكه ، وأخبرني أن أتولى نصيبه في المقهى لأنه أصبح مسننا وتعب من العمل .

رفضت عرضه في البداية لأنني كنت أرغب في البقاء في الكيبوتز ، ثم استسلمت لرغبته ، فتوليت نصيبه في المقهى . وبما أنه لم يكن هناك حينذاك مطاعم جيدة في عكا ، قمت باقناع شريكي بأن نحول المقهى إلى مطعم . ثم اشترت كامل حصته . وعندما استقرت أقامتي في عكا ، بدأت أقرأ صحيفة (الاتحاد) الشيوعية ، واستمع إلى خطابات عبد الناصر ، وأخذت تدور في مخيلتي أسئلة كثيرة عما كان يجري حولي ، وهذا بدأ إدراكي للأمور يتطور) .

قالت (سهام) معلقة : (وكان والدي رجل دين تقليديا ، ولكنه كان حكيما ولديه أفكار سليمة عن العدالة . فقد تزوج أربع مرات ، ولكن ليس في وقت واحد ، فقد كان يقول دائما أنه لا يعتقد بأنه قادر على تقسيم وقته بشكل متساو بين عدة زوجات . وأنجب ثلاثة عشر ولدا ، أنا أصغرهم وكان يؤمن بأن الأولاد هم مسؤوليته الوحيدة ، لذا

نشأنا جميعا في بيت واحد تحت رعايته ورعاية والدتي - زوجته الاخيرة
 وكان دائما يحرص على معاملتنا جميعا بشكل متساو ، وان لا يستغل
 احدا الآخر . لقد بدأ شعور والدي بالمسؤولية في سن مبكرة جدا ،
 فقد توفي والده وهو في الثانية عشر من عمره ، فاضطر لمغادرة (الكتاب)
 المدرسة التقليدية والبحث عن عمل ليعيل زوجة ابيه وأخوته وأخواته .
 ولكنه كان يتوق كثيرا لاكمال دراسته ، لذا كان يرشي أقرانه الذين
 بقوا في (الكتاب) بالحلويات والنقود ليساعدوه في حفظ ما يتعلمونه (
 توقفت (سهام) عن الكلام وابتسمت وهي تقول : (انني أتكلم كثيرا)
 وركزت اهتمامها على الطعام برهة ، ثم تابعت روايتها : (كان التشتت
 الذي أصاب العائلة ضربة قاسية له ولنا جميعا . في البداية كان ادراكي
 ينحصر ايضا عند المستوى العاطفي ، ثم عندما تولى (ناصر) الحكم ،
 بدأ الوعي العاطفي يتطور الى وعي قومي ، وخاصة لدى الشباب .
 وتطلعنا الى (ناصر) وكأنه يمثل رمز ثورتنا ، وملأت خطاباته نفوسنا
 بالثقة في القضية العربية . ففي تلك الايام ، لم تكن القضية الفلسطينية
 قضية منفصلة ، بل كانت تشكل جزءا من العالم العربي الكبير ، وخاصة
 مصر . وهكذا بدأ وعي ينمو وأنا اصغي الى خطابات (ناصر) وخطابات
 قادتنا الوطنيين .

يستطيع ولداي اليوم مناقشة اهتماماتهما السياسية معي ، ولكنني
 لم اكن استطيع أن أحذو حذوهم في الماضي مع والدي ، لأنهما ، وكغيرهما
 من الآباء ، كانا يطلبان مني التزام الصمت خشية ان اورط نفسي
 وعائلي بالمشاكل . لقد أدى خوف الجيل السابق ، الى جانب عجزهم عن
 مواكبة التغيرات الحاصلة في مواقف الشباب ، الى خلق خلافات
 داخل محيط العائلة ، فقد واجه الجيل السابق وضعاً مجهولاً تماما
 بالنسبة لهم ، ليس فقط فيما يتعلق بالاحداث التي كانت تجري في
 المجتمع الاوسع ، بل فيما يتعلق بفلذات اكبادهم .

في حوالي عام ١٩٦١ ، قام اليهود بقتل بعض الفلسطينيين وهم
 يحاولون الهرب الى الاردن ، فقامت على اثر هذه الحادثة مظاهرة ،

وقمنا انا وصديقاتي ، بتحدي المديرية وغادرنا المدرسة ، واشتركنا في المظاهرة . وعندما ألقى القبض علي ، لم أكن صدقا أعلم وقتذاك فيما اذا كنت فزعة من رجال الشرطة أو مما سيقوله أهلي عندما يعلمون بالامر. ولكن ايماني بما فعلته زودني بالقوة عندما واجهت رجال الشرطة. كنت في الواقع اكثر خوفا من موقف أهلي تجاه ما حدث .

وأطلق سراحني في اليوم نفسه . وعندما عدت الى المنزل اضطرت الى اختلاق كذبة تبرر غيابي ، ولكن سرعان ما انفضح امري عندما حضر رجال الشرطة الى منزلنا في منتصف الليل لاستجوابي . وغضب والدي واخوتي الاكبر سنا لانني كذبت عليهم اكثر من غضبهم من مشاركتي في المظاهرة . بعد ذلك بفترة وجيزة ، جرح احد اخوتي على يد يهودي مغربي ، فأدرك والدي أخيرا ان الوضع أكثر خطورة وتهديدا مما كانا يتوقعانه ، لذا توصلا الى تفهم كامل لمشاركتي السياسية .

وفي عام ١٩٦٧ عندما استمعنا الى اذاعة القاهرة وعلمنا بالانتصارات التي حققها الجيش المصري صدقنا بالطبع ما قالوه وشعرنا بفرح غامر وفخر شديد . في ذلك الحين فقط سمعت والدي وللمرة الاولى تتحدث علنا عن الفلسطينيين ، وقالت انها ستفتح بابها امام جميع الفلسطينيين الذين سيعودون ولن يجدوا مأوى يظلمهم . أدركت عندئذ انه برغم الخوف الذي يسيطر على والدي الا انهم فلسطينيان في الاعماق .

انت كاتبة ١٩٦٧ غيرت مواقفنا ، فقد واجهنا أخيراً الحقيقة التي علمتنا بأن الشعب الوحيد المسؤول عن القضية الفلسطينية هو الشعب الفلسطيني نفسه) .

أوما بقية أفراد العائلة رؤوسهم في تأييد كامل .

تابعت سهام قائلة : (مع ان والدي كان رجلاً تقليدياً ، إلا ان ذهنه لم يكن مغلقاً . كنت في أغلب الأوقات أتصرف وفق رغبته كي لا أحرّم

من مواصلة دراستي ؛ فقد اضطر شقيقي لمغادرة المدرسة بحثاً عن مصدر للرزق ، وكذلك فعلت شقيقتي (ليس) . كان لدى والدي بعض الأملاك ، ولكنه كان يفتقر الى السيولة النقدية بعد أن اضطر الى إقفال طاحونة الدقيق ، التي كانت تعتبر في الواقع مصدر دخله الرئيسي) .

تأبعت (ليس) وهي أيضاً عضواً في (جمعية نساء عكا العربيات) قائلة: (نعم ، لقد تركت المدرسة وأنا في نهاية الصف السادس . وكنت في الخامسة عشر من عمري وأكبر سناً من جميع رفيقاتي في الصف ، لأنني ابتعدت عن المدرسة مدة عام ونصف تقريباً بسبب ذهابنا الى لبنان . وعندما تركت المدرسة ، عملت في مركز (كوايكر) الذي كان يضم نادر وروضة أطفال ومستوصفاً . وكنت أرغب بأن أصبح ممرضة ، ولكن والدي رفض لأنه لم يكن يُسمح في تلك الأيام لفتيات العائلات المحافظة أن يلتحقن بمهنة التمريض ، إذ كانت تعتبر عملاً وضعياً .

لذلك التحقت بالعمل في روضة الأطفال ، ثم تعلمت كيفية وزن الأطفال ، والمساعدة في تقديم الإسعافات الأولية في المستوصف . ومع أن مغادرتي المدرسة كانت بسبب وضعنا المالي ، إلا أن والدي رفض أن يأخذ قرشاً واحداً من المال الذي كنت أحصل عليه ؛ فقد كان يشعر بالذنب في أعبائه لمنعي من مواصلة تعليمي . عملت في المركز مدة عشر سنوات ، تعلمت أثناءها الخياطة أيضاً مع أنني كنت أكرهها . ولكن عندما أقفل المركز أبوابه ، قررت أن أمتن الخياطة ، وأعمل الآن في المنزل ولدي زبونات من المدن والقرى : عربيات ويهوديات) .

قالت (سهام) معترفة : (كنت محظوظة جداً لأنني تمكنت من متابعة دراستي . في البداية ، عندما كنت في السادسة من عمري التحقت بمدرسة ابتدائية كنت أكرهها لأنهم كانوا يضربوننا ويوخزوننا بالإبر إذا أفسدنا الخياطة ؛ كنت أشعر بالفزع الشديد من تلك المدرسة لذا لم أتعلم شيئاً . تفهمت (ليس) هذا الوضع ، وكذلك شقيقي ،

فأقنعا والديّ بالحقاق بمدرسة أخرى ؛ فأرسلت الى مدرسة للراهبات وبقيت فيها حتى الصف العاشر عندما أغلقت المدرسة .

ثم أراد والديّ أن يقياني في المنزل لأتعلّم الخياطة بحجة أنني قد نلت نصيباً كافياً من العلم ، ولكنني شعرت بفزع شديد ، ولجأت الى مختلف الأساليب لإقناعهما بالسماح لي بمواصلة تعليمي . حاولت إقناعهما أولاً بالحجة والمنطق ، ثم لجأت الى أسلوب العزوف عن الكلام ، ثم حاولت التزلف إليهما حتى أذعنا أخيراً لمطلبي . وأرسلت الى مدرسة داخلية في حيفا ، حيث كان يحضر شقيقي في عطلة نهاية الأسبوع لاصطحابي الى المنزل ثم إعادتي في نهاية العطلة . إذ لم يكن يسمح للفتيات في تلك الأيام أن يسافرن بمفردهن ، ولا يعود السبب الى التقاليد الاجتماعية فحسب ، بل الى خشية الآباء من تأثير المجتمع الأكبر ، وما يمكن أن يفعله اليهود لنا . أما اليوم فتذهب ابنتي بمفردها الى مدرستها في حيفا يومياً .

هزت والدة (سهام) رأسها ثم قالت وعلى وجهها ابتسامة عريضة: (كنت أذهب أنا أيضاً الى المدرسة ، ولكنني كنت كثيراً ما اتغيب عنها دون إذن ، إذ كنت ألعب في الشارع حتى يحين موعد الذهاب الى المنزل . وعندما اكتشفت والدتي أمري ، انهالت عليّ بالضرب ، وكذلك فعلت المعلمة . وأصبح شقيقي يصطحبني كل يوم الى المدرسة كيلا اتغيب ثانية . ولكن عمي (كان والدي متوفى) أشار على والدتي أن تخرجني من المدرسة ، وقال إنني يجب أن لا أتعلم القراءة والكتابة حتى لا أقوم بكتابة رسائل غرامية الى الفتیان) وفهقته عالياً من الفكرة ، ضحكت (سهام) وضمته الى صدرها متابعة : (لم أجد صعوبة في إقناع والديّ بالالتحاق بالجامعة ، فقد أدركا قيمة التعليم بالنسبة لي ؛ فضلاً عن شعورهما بالفخر للدرجات الممتازة التي حصلت عليها في امتحان القبول بالجامعة . وكانا على ثقة تامة من أنني لن أسوء الى القيم العائلية أو الحق بهما العار . وعلى الرغم من أنني عشت حياتي

كما يرغب والدي ، إلا أن هناك عادة واحدة لم أستطع أن أجبر نفسي على تقبلها ، وهي : الزواج التقليدي) .

انقطع الحديث مع (سهام) بسبب وصول بعض الزوار ، وبعد برهة قصيرة ذهبت لحضور اجتماع في حيفا ؛ وفي طريق عودتها عرجت على منزل والدتها . كانت العجوز تغالب النعاس في كرسيها المخصص للمقعدين ، و (لميس) تشاهد برامج التلفاز ؛ أما الكلب فقد حصل على حريته لهذا المساء .

وعلى الشرفة كان الصمت يلف المكان ، ويهب من جهة البحر نسيم مشبع بالرطوبة . بعد هينة بدات (سهام) تتكلم : (كنت أقول في وقت سابق بأنني لم أقبل فكرة الزواج التقليدي ، لم أستطع الموافقة على الزواج من رجل لا أعرفه تقدم لخطبتي من أهلي ليس بدافع احترامه لشخصي ، بل لأنني ابنة هذا أو شقيقة ذاك . لقد كان هذا الموضوع مشكلة كبيرة بالنسبة لي لأنني ، من ناحية ، لم أكن أريد أن أخرق التقاليد وأثير الخلافات في عائلتي ؛ ولكني من ناحية ثانية ، لم أستطع أن أخضع لأمر يتناقض الى حد كبير مع مبادئ ومعتقداتي . لذا كلما تقدم أحدهم لطلب يدي من عائلتي كانت إجابتي الوحيدة : (غير موافقة على الإطلاق) . وكأنا يبذلان ما بوسعهما لإقناعي ولكن دون جدوى .

ثم أخبرتني إحدى صديقاتي أن شاباً من معارفها قد سمع عني ويتوق للقائي . كان يحضر لتقديم الماجستير ويدرس في الوقت نفسه في جامعة القدس . إلا أنني رفضت مقابلته ، لأن لقاءه سراً يعني الإساءة الى الثقة التي أولتني إياها عائلتي ؛ بالإضافة الى أنه أثار فضولي ، لأنه في تلك الأيام كنا نعتقد أن كل شخص يحصل على عمل بعد التخرج ، أو يمارس مهنة جيدة ، لا بد وأنه يتعاون مع اليهود .

لقد كنّا نقيّم أنفسنا وقدراتنا بمنظار سلبي ، فقد نجح اليهود بزرع العديد من العقبات في طريقنا لإعاقتنا عن التقدم في حياتنا وأعمالنا؛

لذا إذا حصل عربي على عمل جيد ، كانت توضع حوائه في الحال إشارة استفهام . على أية حال ، هزمني فضولي في آخر الامر ، ووافقت على لقائه في منزل صديقتي ولمدة خمس دقائق فقط ، ثم أسرع الى منزلي وشعور " بالذنب يكتنفني لأنني التقيت به دون علم والدي " . وخشيت أيضاً أن يكتشف امرى ويمنعاني من متابعة دراستي . ففي تلك الايام ، إذا لم يعجب الاهل بسلوك فتياتهم ، كان اللوم يتجه في الحال الى التربية والتعليم .

وبعد تفكير دام شهرين وصراع داخلي في نفسي ، قررت أن القاه ثانية . لم تقع في الحب من النظرة الاولى أو أي شيء من هذا القبيل ، واكننا اكتشفنا بيننا تشابهاً فكرياً كبيراً . فقد كان يرغب في متابعة دراسته ويتمنى أن أحذو حذوه . كان شخصاً طموحاً مثلي تماماً ؛ ولم اكن ارجب في إعاقته تقدمه والإصرار على دعمه لي ، كما كان من الممكن أن نفعل أية امرأة أخرى .

واكتشفت أيضاً أنه من المستحيل أن يكون شخصاً متعاوناً مع اليهود ، بل كان يشعر بانتماء عظيم لوطنه ، بالإضافة الى أنه قومي فلسطينياً متحمساً . اشتغل عاملاً لفترة من الزمن ، ثم أصبح أخيراً مدرساً ، وفي الجامعة كان من الطلاب الرواد ، وكان مصمماً على متابعة دراسته .

وافقت على الزواج منه ، ولكنني حذرته أيضاً أن الموضوع يعود فعلاً لوالدي ، ففي حال رفضهما لن أكون مستعدة لمخالفة رغباتهما . وقبل أن يتقدم لخطبتي رسمياً ، اخبرت شقيقي بالموضوع ، وهو بدوره تكلم مع والدي . وعندما اجتمعا به ، نال إعجابهما وتزوجنا . ورفضت بشكل جازم أن يدفع لي المهر ، وهو مبلغ يدفعه العريس عادة الى أهل العروس لشراء الملابس والذهب والاثاث وغيره . . . من أجل العروس . وكان المبلغ الذي يدفع في تلك الايام يتناسب مع مقدار جمال الفتاة

وتحصيلها العلمي . فكان الموضوع اشبه بالمراد العلني في سوق البيع ، الامر الذي وجدته مهيناً للغاية ، واشتركنا معاً ببناء عش الزوجية .

كنت في ذلك الوقت في السنة الدراسية الاولى في الجامعة ، قسم اللغة العربية ، ثم انتقلت الى قسم التربية ، لان اللغة العربية التي كانت تدرّس آنذاك توافق أغراض اليهود : فقد كانوا يدرّسون القواعد العربية باللغة العبرية ، والقرآن باللغة العبرية ، وهكذا ... فوجدت ان دراستي بلا معنى . وفي نهاية العام الاول نال زوجي منحة تعليمية للحصول على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من أمريكا ، حيث تابعت دراستي هناك لمدة عام واحد ، وعندما عدنا الى الوطن حصلت على شهادة البكالوريوس . ثم حصل زوجي على إجازة للراحة أمضيها في الولايات المتحدة حيث أنهيت دراسة الماجستير ، وتابعت دراستي بعدها للحصول على الدكتوراه .

أتممت كامل تحصيلي الجامعي اثناء فترة حياتي الزوجية ، كنت اشعر احيانا انه كان من الافضل ان اكون تلميذة خالية من المشاغل دون ان اضطر لتحمل مهام ام وزوجة في الوقت نفسه ؛ ولكني اعتقد ان الطريقة التي حصلت بها على شهادتي العلمية لها أيضا جوانبها الإيجابية .

توفي زوجي منذ ثلاث سنوات ، ومررت بفترة قاسية جداً ؛ كنت قد اعتدت على القرارات المشتركة ، وفوق كل ذلك على المشاركة في مسؤولية تربية الاولاد ، وفجأة وجدت نفسي وحيدة عليّ ان اتخذ جميع القرارات بمفردي . لم أنشيء ولديّ وفق طريقة الخضوع للسلطة الأبوية ، لأنني لم أرغب بأن احلّو حلو والديّ ؛ ولكنني أتساءل احيانا إذا لم اكن قد ارتكبت خطأ .

يستطيع ابني ان يفهم آرائي عن الحياة وعن مجتمعا ، ولكن الامر ليس كذلك مع ابنتي . اتناقش معها احيانا عن طريقتها في اختيار ثيابها

على سبيل المثال ، إذ يبدو أنها لا تحترم بعض القيم السائدة في مجتمعها الأمر الذي يسبب لي القلق ؛ إذ أنه يتوجب عليها أن تحترم بعض القيم على الأقل ، فهي فلسطينية ، ولمجتمعا خصوصيته التي تميزها عن « بريجيت » أو « آني » أو « راشيل » .

الأمر الآخر الذي سبب لي القلق بعد وفاة زوجي هو التغير الذي حدث لي من امرأة متزوجة إلى أرملة ، فقد خشيت أن يفرض عليّ من قبل أسرتي ومجتمعي قيوداً تحدّ من حركتي كإمرأة تعيش بمفردها ، وأُجبر بالتالي على تجميد كافة نشاطاتي . ولكن لا أخفيك دهشتي العارمة عندما وجدت من عائلتي ومن المجتمع موقفاً مؤيداً أكثر منه ناقداً ، فالمجتمع الفلسطيني يمر بفترة تغير : لدينا الجانب المحافظ والمعاصر معاً ، ويمكننا أن نجد هذا الانقسام الثنائي داخل العائلة الواحدة . هل تعرفين أنني لو بدأت أعيش حياتي الشخصية على الطريقة الغربية ، كنت عندئذٍ سأُدان دون أدنى شك) .

وفي اليوم التالي وفي تمام الساعة التاسعة صباحاً وصلت (سهام) إلى مكتبها في مؤسسة دار الطفل التي تقع في أحد الشوارع الرئيسة في القسم الحديث من مدينة عكا .

قالت (سهام) موضحة (يستهلك عملي في دار الطفل جلّ وقتي ، وقد تأسس عام ١٩٨٣ من قبل جمعية نساء عكا العربيات ليؤدي مهامه كمركز يعمل على تطوير التعليم في رياض الأطفال في منطقة عام ١٩٤٨ . أما الجمعية نفسها فقد تأسست حوالي عام ١٩٧٥ بهدف مساعدة النساء على التطوير ذهنياً وفكرياً وعاطفياً .

كان البناء السابق الذي كنّا نشغله أصغر مساحة ، وعندما قمنا بشراء هذا المبنى مضت عدة أشهر قبل أن نستقر فيه ، فقد وضع مجلس البلدية كماً كبيراً من العقبات في طريقنا ، كان أواها إقامة دعوى ضدنا في المحكمة بسبب قيامنا ببعض التعديلات داخل المبنى ، مع أنه

لا يحق لهم ذلك مطلقاً ، وخسروا بالطبع القضية لأننا لم نخرق القانون .
ثم من أجل تجديد الشكل الخارجي للبناء احتجنا الى ترخيص تصميمي ،
لذا قدمنا المخططات اللازمة ولكنها بقيت قيد الحفظ لعدة أشهر ، ولم
نتمكن من الشروع بأعمال التجديد ، فعدنا للمحكمة ثانية .

كان مجلس البلدية ، في أي بلد آخر سيفخر بوجود مثل هذه
المؤسسة ، وكان سيقدم لنا المساعدة ، بدلاً من عرقلة جهودنا ، ولكن
الوضع ليس كذلك في هذا البلد . بل وجهوا إلينا أيضاً اتهاماً بالحصول على
أموال من منظمة التحرير الفلسطينية ، وهذا ليس صحيحاً على الإطلاق .
ثم زعموا أنه ليس من المناسب إقامة مؤسسة تربوية في الشارع الرئيسي
الى جانب المصارف والمتاجر . فطرحنا عليهم السؤال التالي : (هل يقع
اعتراضكم على وجود مؤسسة تربوية ، أم بشكل أكثر دقة على مؤسسة
تربوية عربية ؟) .

إذ أنهم لم يعترضوا على وجود دار للمسنين اليهود بجانبنا ، بل
في الواقع ساعد مجلس البلدية على إنشائه ؛ وقالوا إنه من الأفضل لنا
تحويل المبنى الى مطعم ، فأجبته : (نعم بالطبع ، لقد اعتدتم طوال
سنوات أن تعمل من أجلكم ، نخدمكم ونطعمكم . ولكن لا يسعكم قبول
فكرة أننا نعمل شيئاً لتغذية عقولنا بهدف التغيير) على أية حال ،
كسبنا القضية في النهاية .

حاولت في البداية أن أطبق بعض الأفكار الغربية التي اكتسبتها
في الخارج ، فآلقينا المحاضرات وعقدنا المناقشات ، ولكن الفكرة لم تنجح
لأنه لا يمكنك فرض أفكار أجنبية على الناس أو إجبارهم على قبول قيم
لا تتماشى مع أسلوب حياتهم . فقررنا بدلاً من ذلك أن نؤسس رياض
أطفال لمساعدة الأمهات العاملات ، فلا يجدن أنفسهن مضطرات لترك
أطفالهن في رعاية أشخاص مختلفين كل يوم .

وإدركنا أيضاً أن تطوير هويتنا الفلسطينية بطريقة إيجابية يحتاج إلى تركيز الاهتمام على الناشئة لأنهم يشكلون ، رغم كل شيء ، حجر الزاوية في مجتمعنا ، ونحتاج لتحقيق ذلك إلى مدرسين مؤهلين لرياض الأطفال ، وهذا ما نفتقده في مجتمعنا ؛ لذا بدأنا نفكر بإنشاء معهد لتدريب معلمين لرياض الأطفال .

في البداية كانت المهمة في غاية الصعوبة ، لأنها تحتاج إلى جهد وكفاح كبيرين ، إلى جانب مبلغ كبير من المال . ولكن لحسن الحظ التقينا بأشخاص ينتمون إلى منظمة مستقلة غير حكومية كانوا في زيارة للبلاد . وأخبرونا أنهم يريدون تمويل مشاريع غير حكومية تساعد الفلسطينيين في منطقة ٤٨ .

قمنا بكتابة عرضنا ، ولكننا فرضنا شرطين على المنظمة ، الأول : أن تكفل التمويل لمدة خمس سنوات . والثاني : هو أننا حالما نبدأ العمل يجب أن يتاح لنا الوقت الكافي للتجربة والخطأ ، لأنه كان علينا الأخذ بعين الاعتبار عدداً كبيراً ومختلفاً من العوامل منها : الأهالي ، المجتمع الأكبر ، مجلس البلدية والسلطات . فليس من المعقول أن نقدم وصفاً تفصيلياً لكافة خططنا .

وافقت المنظمة على شرطينا ، وقدمت لنا الأموال اللازمة لنبدأ مشروعنا . قمنا في البداية بدراسة شاملة لمعرفة مستويات وكفاءات المدرسين لمعرفة مدى استعدادهم لتقبل التدريب المناسب ، ثم أنشأنا ورشات عمل ، لأن المدرسين اشتكوا من عدم توفر المال الكافي لديهم لتأهيل صفوفهم في رياض الأطفال بطريقة جيدة ؛ فهم بحاجة إلى كتب وألعاب وأجهزة وما إلى ذلك .

حققنا نجاحاً جيداً منذ العام الأول ، وعندما قامت وزارة التربية بدراسة برامجنا ، قالت بأنها يمكن أن تستفيد منها . لقد نجحت مؤسستنا لأنها تشبع الحاجات الحقيقية للمجتمع الفلسطيني ، ولأننا

مصممون على تنفيذ متطلبات قومننا . يعتقد اليوم بعض الفلسطينيين في منطقة ٤٨ أنه بإمكانهم الحصول على الدعم المادي من المؤسسات في الخارج ، فيكتبون مطالبهم بغية الحصول على المال فقط ، وهم ما يزالون في الواقع يبحثون عن الإنكار . وعندما يحصلون على المال لا يعرفون كيفية استخدامه لأنهم لم يقوموا ببحث دقيق لحاجات المجتمع .

كان من أحد أهدافنا الرئيسة تطوير الهوية الشخصية والقومية للمدرسين ، إذ يأتي عدد كبير من الفتيات من مناطق ريفية بعد أن ينهين المرحلة الثانوية ، ويجدن أنفسهن في ورطة بسبب مستقبلهن الغامض ، فلا يعرفن ماذا يفعلن بعد ذلك ، وأين وكيف يضعن أنفسهن ، فيقعن فريسة شعور قاس بالنعق والضياع ، وينكمشن على أنفسهن . لذا يقوم مستشارونا بإلقاء المحاضرات عليهن وتشجيعهن على الحديث عن أنفسهن : عن طفولتهن ومشاكلهن وطموحاتهن .

تعمل تلك الدورات على تشجيع المدرسات على معرفة أنفسهن ، إذ يتوجب عليهن معرفة نقاط القوة والضعف لديهن وتعلم كيفية احترام أنفسهن ومهنتهن ، كي يتمكن من احترام التلاميذ والتعامل معهم بطريقة إيجابية . وفي نهاية الدورة يصبح لدينا نوع مختلف جداً من المعلمات في كل شيء : في السلوك وطريقة الحديث ، وكذلك المظهر الخارجي وطريقة المشي . نحن نسعى للحصول على مجتمع أفضل ، ولكي ننجح في ذلك علينا التأكد من أن الأطفال يتلقون تعليماً جيداً وعناية فائقة ، وهذا لا يتم الا من خلال معلمات على درجة عالية من التأهيل والتدريب .

ونعلم أطفالنا أيضاً معنى (يوم الأرض) ، ونقدم لهم بعض الألعاب عن الأرض وعن أشجار الزيتون وما تعنيه بالنسبة للفلاحين الفلسطينيين . ونعلمهم كيف تحتفل العائلات الفلسطينية بالأعياد المختلفة : كشمير رمضان والعيد وعيد الميلاد وعيد الفصح ، ولكن ليس من وجهة نظر دينية . بل لتربهم فقط أن هذه الأعياد تشكل جزءاً من حضارتنا

وتاريخنا ، اللذين يختلفان عن الأعياد والحضارة اليهودية ، يجب أن يتعلموا أننا ، كشعب فلسطيني ، لدينا أيضاً حضارة لاتقل أهمية عن الحضارة اليهودية ، ويتحتم التعرف عليها واحترامها .

لدينا ستة أعضاء في هيئة الموظفين ، بالإضافة الى عشرة مدرسين/مستشارين ليسوا من الهيئة الإدارية ، ولكنهم يحضرون بشكل خاص لاعطاء دورات تدريبية للمدرسين في رياض الاطفال) .

كانت تجري في المعهد إحدى الدورات التدريبية، حيث تتلقى ٢٧ تلميذة معلومات عن كيفية التعامل مع الاطفال الذين تتراوح أعمارهم من يوم واحد الى ثلاث سنوات. من النقاط التي أكدت عليها المعلمة الترحيب الحار بالاطفال ، احترام شخصية كل طفل ، زيارة منازل الاطفال للتعرف على بيئة كل طفل ، تنبيه الأهالي الى أهمية النظافة . ثم غادرت المعلمة غرفة الصف برهة وعادت وفي يدها دمية بحجم طفل في الشهر الثاني من عمره ، وزجاجة رضاعة . وكانت الفكرة شرح الطريقة المناسبة لإطعام الطفل بواسطة الزجاجة . في البداية طلبت المعلمة من إحدى التلميذات العازبات القيام بتنفيذ الفكرة ، فضحكت بعض التلميذات لرؤية زميلتهن وهي تتعارك مع الدمية بطريقة غير متقنة . أما التلميذة الثانية فكانت سيدة متزوجة ولديها طفلين ، فحملت الدمية بطريقة صحيحة ، ولم تكتفِ بذلك بل تحدثت اليها أثناء عملية التغذية ، وأشارت الى ضرورة وجود تواصل جسدي ولفظي مع الطفل مما يساعد على تهدئته وطمأنته على جوده كفرد .

كان موضوع الدرس الثاني يدور حول القيم والهوية ، استهلّت المعلمة درسها بإخبار التلميذات بأن بعض القيم في المجتمعات العربية تتجه لأن تكون قمعية .

وتابعت موضحة : (فعلى سبيل المثال . من العار الحديث عن جسد الإنسان . أو عن بعض العواطف المعينة ، وهذا بالتالي يخلق توتراً لدى الشخص ينتقل بعد ذلك الى طفل) .

ثم أصطحبت التلميذات الى الرواق حيث أدت أمامهن بعض التمارين الرياضية التي تساعد أجسادهن ووجوههن على الاسترخاء . شعرت بعض الفتيات بالخجل وبالكاد حركن أجسادهن ، إلا أن المعلمة لم تياس منهن حتى بدأن يشعرن بالاسترخاء في النهاية . استمرت التمارين الرياضية مدة نصف ساعة ، عدن بعدها الى غرفة الصف ، وتحدثت المعلمة بعد ذلك عن أهمية جعل الاطفال يدركون هويتهم الفلسطينية . وقالت : (لا يمكن للطفل الصغير جداً أن يعي المفاهيم المجردة عن الهوية لذا يجب توضيحها له عن طريق الاحتفالات والأغاني والأزياء الشعبية والصور والمشاهد الطبيعية) . قالت إحدى التلميذات : (ولكن اذا تحدثنا علناً عن هويتنا الفلسطينية سنتعرض للمشاكل) .

أجابت المعلمة : (لادامي لان نتحدثي أمام الاطفال بشكل مباشر عن السلطات أو عن القمع السياسي والأعمال الظالمة ، بل ستفعلين ذلك بشكل غير مباشر عن طريق الأغاني والصور وغيرها . فإذا لم يتعلم الاطفال شيئاً عن هويتهم سوف يضيعون) .

واستمرت المعلمة في إلقاء الدرس .

في وقت لاحق من اليوم نفسه ، وبعد لقاء مع بعض المعلمات ، قدمت لنا سهام إحداهن ، وهي معلمة يهودية : (هذه هي (هافا) وهي تقوم بتدريب المعلمات طريقة صنع الألعاب والنماذج والصور والدمى من أجل الاطفال) .

أشارت (هافا) الى بعض الرسوم المعلقة على الجدران وقالت : قام بصنع هذه الرسوم سيدة يهودية أحضرت المواد المستعملة من مصر ، وقامت ببعض التعديلات كاستبدال الأزياء المصرية بأخرى فلسطينية) .

تصور تلك الرسوم عائلة في الزي الفلسطيني تحتفل بشهر رمضان : تسوق الطعام ، الصلاة ، وتناول طعام الإفطار ، الخ . . .

تابعت (هافا) شرحها : (لاتعتبر تلك الرسوم بالنسبة للأطفال واقعية الى حد كبير ، لذا سنلجأ الآن الى أخذ صور لأشخاص حقيقيين يرتدون الازياء الفلسطينية . سنصور عائلات تحتفل بشهر رمضان ، وعيد الميلاد ، والعيد ، وعيد الفصح . معظم كتب الأطفال الموجودة في البلد كتبت لتناسب الأطفال اليهود ، وعندما نترجم تلك الكتب الى اللغة العربية ، نغير بعض الأشياء لتصبح القصص مناسبة للأطفال الفلسطينيين، وتحاول (سهام) الحصول على كتب للأطفال من العالم العربي) .

بعد مفادرة (هافا) قالت سهام : (للأسف ، لايزال يفتقر الفلسطينيون هنا الى بعض المهارات التي يمتلكها أشخاص مثل (هافا) ، كان لدينا معلمة فلسطينية قبل (هافا) الا انها لم تكن مؤهلة على الإطلاق ، ولكننا سنتقدم في هذا المجال يوماً ما) .

يقع كل من مركز العناية النهاري ودار الحضانة ، المحدثان من قبل جمعية نساء عكا العربيات ، على مقربة من دار الطفل ، يضم المركز ٩٦ طفلاً تتراوح أعمارهم ما بين ستة أسابيع وأربع سنوات ونصف ، منهم من يبكي ، ومنهم من يضحك ، ومنهم من يغني أغنية تسمى (دول العالم) .

قالت المديرية ، وهي عضو في الجمعية أيضاً ، موضحة : (يفضل معظم أهالي عكا إرسال أطفالهم الى دور حضانة عربية . ونعلمهم هنا أهمية العائلة الموسعة ، ونحدث إليهم عن الأرض وعن أشجار الزيتون ، وتعلمهم كل شيء عن الاحتفالات المختلفة ، ونجعلهم يرتدون ملابس فلسطينية عندما نحتفل بالاعياد . هناك مايقارب ٢٥ طفلاً عربياً في دور الحضانة اليهودية ، اذ مايزال بعض الاهالي يعتقدون أن أطفالهم يتلقون معاملة أفضل في المدارس اليهودية ، ولكن في الواقع تكون النتيجة - عدم قدرتهم على تكلم اللغة العربية أو حتى العبرية بشكل جيد - ويواجهون صعوبات في حديثهم ووعيهم ، والاهم من ذلك في هويتهم ، إنه امر محزن جداً .

بعد يوم شاق بين دار الطفل والجامعة ، عادت (سهام) أخيراً الى منزلها لتمضي بضع ساعات مع ابنتها التي كانت ستغادر الى الولايات المتحدة في الصباح الباكر .

قرع جرس الباب ، وكان القادم امرأة يهودية مجهولة ، تحدثت إليها (سهام) باللغة العبرية ، وعندما عادت قالت : (إنه أمر غريب حقاً ، لابد وأن بعض اليهود بأمس الحاجة للعمل . لقد طلبت تلك المرأة أن تعمل عندي كخادمة . لم يحدث ذلك من قبل على الإطلاق) .

بعد مضي عام ، ازدادت أعباء (سهام) أكثر من أي وقت مضى .

قالت (سهام) غاضبة وهي تحيي والدتها وشقيقتها : (إننا نكافح ونكافح وتريد السلطات أن تحدث قوانين جديدة لاعاقبة تقدمنا .

يريد اليهود استصدار قانون عن طريق الكنيسست يقضي بإغلاق المراكز والمعاهد الثقافية الفلسطينية التي يعتقدون أنها ربما تحصل على الدعم المادي من منظمة التحرير الفلسطينية . حتى إذا قامت منظمة مستقلة غير حكومية بتمويل مركز أو معهد ما ، سيكون للسلطات الحق بإغلاقه زاعمة بأن المال الذي أرسلته تلك المنظمة تم الحصول عليه أصلاً من منظمة التحرير الفلسطينية . وهكذا إذا لم يعجب أي شرطي في الشارع بشكلي ، سيكون قادراً على دخول دار الطفل وإغلاقه مدعياً بأنه يحصل على المال من منظمة التحرير الفلسطينية ؛ وسيملك السلطة على فعل ذلك دون تقديم دليل أو برهان من أي نوع) . وتنهدت بضجر وهي تقول : (إن نوافق على هذا ، وسنشن حملة ضد هذا القانون الأرض) .

قالت (ليس) : (يرفض الإسرائيليون الاعتراف بمطالبتنا ، وتلقى معاملة غير عادلة على جميع المستويات . فعلى سبيل المثال ، تحاول جمعية النساء إنشاء دار للمسنين تلبي حاجات جميع العرب

هنا ، بغض النظر عن وضعهم الاجتماعي أو انتمائهم الديني . في الماضي لم يكن مجتمعنا العربي بحاجة ماسة لإنشاء دار كهذه لأننا كنا نملك العائلة الموسعة . ولكن المجتمع العربي يتغير الآن ، إذ يخرج الشبان من كلا الجنسين للعمل فلا يملكون الوقت الكافي للاعتناء بالمسنين ؛ وكذلك يعيش الأزواج اليوم في شقق صغيرة لا تسمح بإبقاء آبائهم معهم . ومن الجدير بالذكر أن الدور الثلاثة الموجودة للعرب كانت مقامة بشكل خاص للمسيحيين ، أما الدور العامة التي تملكها الحكومة فتدعي بأنها تهتم باليهود والعرب على حد سواء . ولكن في عكا ، على سبيل المثال ، هناك شخصان فقط من العرب في الدور العامة ، ولم يكن من السهل عليهما الحصول على الموافقة للقبول . فضلا عن هذا ، هناك قائمة انتظار مدتها أربع سنوات لليهود أنفسهم ، وهم بالطبع يتمتعون بحق الأفضلية على العرب . ونحن نطالب الآن مجلس البلدية بمساعدتنا لإنشاء دار للمسنين ، ولا نجد منهم تجاوبا ، ولكننا لن نستسلم) .

قالت (سهام) بحماس : (كل خطوة يخطوها فلسطيني ، وكل نفس يستنشق هو كفاح ، ولكننا لن نستسلم حتى يعترف الاسرائيليون بهويتنا ومطالبتنا) .

وصل ابنا (سهام) : أحمد وعلي ، واستقبلا بترحاب حار من قبل الخالة والجدة . تابعت (سهام) حديثها : (يختلف اليوم النضال كثيرا عما كان عليه في زمن والدي ، وفي زماني أيضا عندما كنت في سن والدي . فقد شجعت على نمو الوعي عند ابني أحمد وابنتي عليا ، الامر الذي لم ألمسه من والدي . فنضالهما اليوم مختلف تماما : فهو نضال محب للخير ضد الظلم والتمييز من ناحية ، ومن ناحية ثانية نضال قومي يهدفون من ورائه جعل السلطات تعترف بهويتهم الفلسطينية وتحترمها . فسأل ابني مرة : (من أنت ؟) فأجاب : (أنا مواطن فلسطيني أعيش في اسرائيل قال أحمد : (صحيح ان نضالنا يختلف عن نضال الجيل السابق ، ولكنني لا اعتبر ذلك الجيل مسؤولا عن وضعنا الحالي . فأنا

لا انظر الى الماضي ، وما يهمني اكثر هو ماذا سيحدث وما يجب أن يحدث) .

أضافت عليا : (أنا فلسطينية أعيش في اسرائيل ، ولكنني لا أستطيع القول بأنني فخورة جدا بالعيش في اسرائيل ، فهناك الكثير من الظلم هنا . يدعي اليهود بأنها دولة ديمقراطية ، ولكنها ليست كذلك على الاطلاق ، اذ يتمتع اليهود بحقوق تفوق تلك التي يتمتع بها العرب ، ويتلقون من السلطات معاملة مختلفة تماما . ففي المظاهرات على سبيل المثال ، يتأهب رجال الشرطة دائما لضرب العرب لاتفه الامور لذا لا نشعر بالحماية على الاطلاق . أنا اعتبر نفسي واعية سياسيا ، واشارك في المظاهرات ، ولكنني لا أشعر بأنني أعرف فعلا حقيقة ما يجري ، بل أعلم فقط من أشخاص مختلفين . فانا أرغب بمعرفة الوضع من خلال تجربتي الشخصية كفلسطينية ، وأعتقد أن هذا لن يتحقق الا عندما اذهب الى الجامعة) .

قال أحمد : (الجامعة عالم مختلف ، يشكل اليهود ٨٥٪ من عدد الطلاب في جامعة حيفا التي أدرس فيها الآن . وهناك يواجه المرء آراء سياسية مختلفة وحركات متنوعة ، ونقوم بأجراء المناقشات فيما بيننا ، وكذلك بيننا وبين الطلاب اليهود ، وغالبا ما تنتهي بالصياح على بعضنا . ومن الجديد بالذكر أن الاساتذة لا يميزون في المعاملة بين الطلاب اليهود والعرب ، حتى اذا رغب بعضهم في ذلك ، فأعتقد انهم بدافع احترامهم لمهنتهم ، يتركون تلك الدوافع ورأئهم في منازلهم) .

أضافت عليا : (يوجد في مدرستي طالبات يهوديات أتعامل معهن وعلاقتنا جيدة ، الا أن جل صديقاتي من الفتيات العربيات) .

قالت سهام : (نحن جميعا نتعامل مع اليهود بطريقة او بأخرى ، وبعيدا عن نضالنا مع السلطات ، فاني شخصا أتعامل أيضا مع اليهود المتطرفين ، ولكن على مستوى سياسي في الدرجة الاولى ، ولا

أتعامل معهم اجتماعيا بسبب الحواجز التي مانزال قائمة بيننا . عندما يكف اليهود عن التفكير بأن جيرانهم العرب يرغبون بتدميرهم ، عندئذ سيتحسن الوضع ، هذا الخوف يضع حاجزا هائلا بيننا وبين اليهود . واكننا مع ذلك وفي بعض النواحي نشترك بطموحات متشابهة ، ومررنا بتجارب متماثلة : التششت ، الرغبة بالعودة الى وطننا ، وغيرها . ويضلنا العداء القائم بيننا عن جميع العوامل التي يمكن أن تقرنا من بعضنا ، بل ننظر دائما الى الجوانب السلبية التي تفرق بيننا . ولكن يثبت التاريخ امكانية تغيير هذا النوع من العلاقة ، انظري الى اليهود والالمان اليوم ، او الى الفرنسيين والجزائريين : انهم يتعاملون بسعادة تامة . فعلى الرغم من الالم والمعاناة والاشمن الباهظ الذي ندفعه ، الا انه لدي أمل كبير في المستقبل ، وارى أننا نحن الفلسطينيين هنا أكثر تفاؤلا في المستقبل من بعض الفلسطينيين الذين يعيشون في الدول العربية. فبعد حرب ١٩٦٧ تمكن شقيقي وشقيقتي ، اللذان يعيشان في مخيم اللاجئين في برج البراجنة في بيروت - لبنان من زيارتنا عبر الاردن . وعلى الرغم من عدم وجود فارق بيننا في ايماننا بقضيتنا دهشت من وجهة نظرهما المتشائمة ، فقد بدا عليهما الاحباط وانعدم لديهما الامل في المستقبل . وربما نحن اكثر ايجابية هنا لاننا ما نزال نعيش في وطننا ، ولسنا لاجئين . لم أستطع أن أفهم في البداية سبب الاحباط الشديد الذي يعانين منه ، فهما ، برغم كل شيء ، يعيشان بين عرب وفي عالم عربي ، بينما أعيش أنا بين أعدائي الذين كانوا سبب كل معاناتنا . وامت حرب ١٩٦٧ التي جعلتنا نواجه اخيرا الحقيقة التي تفيد بأن الشعب الوحيد المسؤول عن القضية الفلسطينية هم الفلسطينيون أنفسهم ، ولكننا كنا مانزال نحسد أولئك الذين يعيشون في العالم العربي . اذ اعتقدنا أنهم يتمتعون هناك بحرية اكبر ، بينما نميش هنا منغلقيين ولا أمل لنا في الخروج لمعرفة العالم العربي . ولكن عندما اخبراني كيف يعاملون هناك ، أدركت أن الطعنة التي تأتيك من أخيك تكون أكثر الما من تلك التي تأتيك من الغريب . نحن الفلسطينيون عرب ، ومع ذلك فالعرب لا يعترفون بنا ، ولا يثقون بنا ، وكذلك اليهود .

قال أحمد : (أشعر بالشفقة على الفلسطينيين الذين يعيشون في العالم العربي ، فالقلة القليلة منهم يعيش بشكل جيد ، وهم الذين تمكنوا من كسب بعض المال ، ولكن يعيش الآخرون في ظروف مروعة ، لقد علمت ذلك من خالي وخالتي ، من الصعب علي أن أتخيل كيف استطاعوا أن يبقوا على قيد الحياة ، فطريقة حياتهم تختلف كثيرا عن طريقة حياتي . لا أعرف كيف كنت سأواجه الصعوبات لو أنني اضطررت أن أعيش بالطريقة ذاتها ، ولكنهم على أية حال يقبلون بوضعهم) .

وصل (حسين) شقيق (سهام) وبرفقته (عنان) ابنة أخيه ، وجلسا يستمعان الى (سهام) التي قالت : (في الحقيقة أعتقد بأن السنوات الخمس أو العشر القادمة ستشهد اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة الى جانب الدولة الاسرائيلية . لا أعتقد بأن تدمير الدولة اليهودية هو حلا مناسباً ، ولكنني أعتقد بأن وجود دولة فلسطينية الفلسطينيين في أنحاء العالم سيعطينا شعورا بالامان والوحدة والاعتزاز . أستطيع أن أتخيل الفلسطينيين في الخارج وهم يحملون جوازي سفر : الاول فلسطيني ، والثاني يعود للبلد العربي الذي يعيشون فيه ، وهذا ينطبق أيضا على الفلسطينيين في منطقة ٤٨ . أنا أيضا أرغب في الحصول على جنسية مزدوجة ، لان هذا وطني ولا أستطيع أن أتخيل نفسي وأنا أغادر بلدي لأعيش في الضفة الغربية . لقد ولدت هنا ، ونشأت هنا وسأبقى هنا)

شارك (حسين) في الحديث بقوله : (قبل الانتفاضة ، لم يكن لدي شكوك حول هويتي ، ولكنني كنت أعيش مقيدا ، وخاصة لأنني أعيش في مدينة مختلطة ، حيث يشكل اليهود أغلبية السكان ويمارسون تأثيرهم علينا : فهم يفرضون علينا قوانينهم لذا لا نستطيع أن نعيش وفق طريقتنا الخاصة كفلسطينيين عرب ، ونجبر على قبول تسوية مذلة ، ونبنى بعضا من قيمهم وأساليب حياتهم . ولكن الانتفاضة أحييت الامل في قلوب الفلسطينيين ، وسنحصل أخيرا على حقوقنا وعلى

دولة تخصنا ، وسيتم الاعتراف أخيراً بهويتنا . أنا من جهتي لن اغادر عكا ، ولكن إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة سيوفر لي شعوراً بالأمان وسيعزز هويتي) .

قالت عليا : (أعتقد أن الانتفاضة شيء رائع ، ولكن إذا أقيمت دولة فلسطينية فلن أذهب لأعيش فيها لأن وطني هنا ، ولن أتركه لمجرد إرضاء أشخاص يفضلون أن أقول إنني أعيش في فلسطين بدلاً من إسرائيل . فضلاً عن أن الحياة في الضفة الغربية ستكون صعبة بسبب الفارق الكبير بيننا في طريقة الحياة وأسلوب التفكير ؛ فهم أكثر ميلاً للتمسك بالتقاليد ، ولن يكون من السهل التكيف مع طريقتهم في الحياة) .

أضاف أحمد : (كان لا بد للانتفاضة أن تنفجر عاجلاً أم آجلاً ، إذ أن هناك عدد كبير من الناس يزرعون تحت نير الاحتلال منذ أكثر من عشرين عاماً . وقد عانوا من السجن والترحيل وأصناف الاستغلال الاقتصادي ، ويعيشون حتى الآن دون أية حقوق من أي نوع ؛ من الصعب التخيل كيف يتمكنون من الاستمرار) .

شاركت (عنان) ابنة أخ (سهام) في الحديث أيضاً ، وهي في عمر (سهام) تقريباً. توفيت والدتها وهي طفلة وأضطرت في سن الثالثة عشر الى مغادرة المدرسة للاعتناء بشؤون والدها وإخوتها ؛ ثم تزوجت من موظف في البلدية . لم تمارس عملاً من قبل ولا تملك الرغبة في ذلك ، كانت دائماً ملتزمة من الناحية الدينية ولكنها لم تكن تتوانى عن حضور احتفال أو عرس أو المشاركة في الرقص والفناء ؛ بيد أنها مؤخراً اختارت أن ترتدي اللباس الإسلامي الأصولي وتمتنع عن مختلف أنواع العبث . وقالت بأن قرارها هذا يعود من ناحية الى تأثير الدروس الدينية التي كانت تحضرها في المسجد ، ومن ناحية ثانية الى حلم رآته في إحدى الليالي ، ورفضت أن تبوح بمكنونه . قالت (عنان) :

(لا تستطيع الحركة الإسلامية أن تحلّ القضية الفلسطينية ، ولكن ما تستطيع أن تفعله هو التأثير على الناس ليتبعوا الإسلام بشكل صحيح لكي يصبح أقوى . بصراحة ، لا أستطيع أن أتصور كيف يتمكن الفلسطينيون في منطقة ٤٨ من مساعدة إخوانهم في الضفة الغربية وغزة ؛ ليكن الله بعونهم ! بإمكاننا أن نقدم لهم المساعدات المادية ولكننا لا نستطيع أن نحارب ، أما الناس في الضفة الغربية فهم في وضع أفضل لمحاربة الإسرائيليين ، ولكن بالنسبة لنا هذا ليس ممكناً . فنحن نعتمد على اليهود اقتصادياً وإذا حاولنا أن نفعل شيئاً سيفقد رجالنا أعمالهم ، ولا نستطيع معظم العائلات تحمل ذلك ؛ فالبقاء الاقتصادي أكثر أهمية من أي شيء آخر . على أية حال ، أنا لا أعرف الكثير عن السياسة !)

ارتسمت على وجوه أقربائها ابتسامات سخرية .

قال أحمد : (علينا أن نحارب هنا أيضاً من أجل الحصول على حقوقنا، ولكن بطريقة مختلفة . الواقع هو أن إسرائيل موجودة ، وتبدو فكرة التخلص منها واستبدالها بدولة فلسطينية عظيمة جداً ، ولكنها ليست فكرة عملية او معقولة . فمن ناحية أولى ، المشكلة بسيطة : لقد جردنا نحن الفلسطينيين من حقوقنا ويجب أن نستعيدها . ومن ناحية ثانية ، ما يزال حل المشكلة معقداً وسيستغرق وقتاً من الزمن . حتى الآن الحلّ الأمثل هو إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة ، ولكن ليس هناك ما يضمن عدم وجود عنف بينهم وبين اليهود . أنا أؤيد تماماً إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة ، ولكن فيما يتعلق بي ، فأنا مواطن فلسطيني من عكا ، ولا تعني الضفة الغربية وغزة شيئاً بالنسبة لي بالمقارنة مع عكا ، ولن أغادر مدينتي لأعيش في دولة فلسطينية جديدة) .

علقت (سهام) قائلة : (أتوقع فعلاً أن يتحقق السلام يوماً ما ، وخاصة أن حركة السلام في إسرائيل يشتد عودها ، فقد بدأ الناس يدركون أن الوصول الى السلام هو في النهاية لمصلحتهم) .

* * *

الفصل السادس

المدرس : عدنان في يرقية

(إن هدفهم الوحيد هو إبعادنا عن بقية إخواننا الفلسطينيين ... وبدلاً من توجيه غضبهم وكراهيتهم ضد السلطات ، يريدون منهم أن يوجهونها ضدها نحن) .

عدنان

تقع قرية (يرقية) الدرزية في منطقة الجليل ، ويبلغ عدد سكانها حوالي ثمانية آلاف نسمة ، ويوجد فيها ثلاثون مجموعة من العائلات يتراوح عدد أفرادها من ٤٠٠ الى ٣٠ فرداً . بنيت تلك القرية فوق هضبة ، ومناخها ليس في رطوبة مناخ عكا في الصيف ، التي تبعد ٢٥ دقيقة في السيارة ، أما في الشتاء فيسيطر عليها برد قارس .

يوجد في القرية مدرسة متوسطة وثانوية واحدة ومدرستان ابتدائيتان ، بالإضافة الى عدد من المصانع الصغيرة : لأعمال النسيج والمعادن والفخار ، وهي ليست مصانع حكومية ولكن تم إنشاؤها من قبل رجال أعمال أثرياء من أبناء القرية . وهناك طريق رئيسي واحد يؤدي الى ساحة تضم معظم المتاجر ، بالإضافة الى المجلس المحلي . ويعقد مرة كل أسبوع سوق في الساحة حيث يتنازع الرجال والنساء معظم حاجياتهم من ملابس وأدوات منزلية وطعام ، ويحضر معظم مالكي أكشاك البيع من قرى ومدن مختلفة في منطقة ٤٨ ، وكذلك من الضفة الغربية وغزة ، ويمتد بناء كبير ، وهو المركز الديني ، فوق قمة الهضبة في القرية .

كانت قرية (يرقه) تملك ٥٤٠٠٠ دونم من الأراضي ، تمتد داخل حدود القرية وخارجها ، ومنذ عام ١٩٤٨ صادرت السلطات ٤٤٠٠٠ دونم من الأراضي ، وتم بناء ست مستوطنات يهودية فوق قسم منها . وقبل إنشاء دولة إسرائيل ، كان ٩٠ ٪ من أهالي القرية يعملون في الزراعة ، أما اليوم فقد انخفض العدد الى ١٠ ٪ فقط ، في حين أصبح الآخرون عمالاً ، ومستخدمين في المصانع ، ورجال أعمال ، وتجاراً ، ومعلمين ومهندسين وأصحاب متاجر ؛ وما يزال البعض عاطلين عن العمل .

من الناحية الشكلية ، تشبه يرقه أية قرية عربية أخرى بطرقاتها البالية ومنازلها القديمة ذات الطراز العربي ، الى جانب الابنية المعاصرة ؛ إلا انها تتميز بصفتين رئيسيتين ، الأولى : جمال السكان ؛ والثانية : وجود الجنود . ففي كل مكان من البلاد يمكنك أن ترى الجنود ، يسرون في الطرقات ، ينتظرون الحافلات ، يتطفلون على السيارات للركوب مجاناً ، أو يقودون المركبات العسكرية . ومهما كانت وسيلة النقل التي يستخدمونها ، إلا أن الصفة المشتركة بينهم هي جنسيتهم اليهودية ؛ أما الشيء البارز حول الجنود في يرقه هو أنهم عرب .

يبلغ (عدنان) الأربعين من عمره ، وهو متزوج ولديه أربعة أطفال تتراوح أعمارهم بين الحادية عشر والرابعة ، يعيش مع عائلته في منزل حديث يضم خمس غرف ومطبخ وحمام . يعمل (عدنان) مدرساً في إحدى المدرستين الابتدائيتين الموجودتين في القرية . بالإضافة الى منصبه كزعيم ديني ، وعضو في لجنة المبادرة الدرزية .

كان (عدنان) يجلس في غرفة الجلوس وهو يراقب زوجته (صالحية) تصب القهوة ، والى جواره والدته التي تبلغ الخامسة والستين من عمرها ، وتعيش بجوارهم في منزل قديم على الطراز العربي ، قال : (ذهبت الى المدرسة الثانوية في قرية كفر ياصيف المجاورة لنا ، وعندما تخرجت التحقت بمعهد المعلمين ، وفي عام ١٩٧٥ أصبحت زعيماً دينياً) .

لزم الصمت برهة ثم أعلن بحماس : (لتجنب الخطأ ، أنا عربي فلسطيني من الطائفة الدرزية ، واعتز بهويتي الفلسطينية وبقوميتي . كان والدي رجلاً أمباً وفلاحاً ، كوالده من قبله ، وكذلك جده ، وكان شغل والدي الشاغل أرضه وعائلته ، لذا لم يستطع أن يوفر لي الثقافة السياسية . بدأ وعيّ ينمو نتيجة لما كنت أراه حولي ، أتذكر وأنا طفل كيف كان الجنود ، تحت الحكم العسكري ، يقتحمون المنازل عنوة بحثاً عن الأسلحة ، وأذكر بوضوح كيف كانوا يضربون بعض القرويين ويلقون القبض على بعضهم الآخر . كان بعض السكان يلتمسون منهم الرحمة ، ولكن دون جدوى . وكان والداي ، كباني أفراد القرية ، يشعران بفزع شديد ، فيقفلان باب المنزل ، يأخذاني مع إخوتي وأخواتي للاختباء في الحقول حتى تصبح العودة آمنة . كنت أشعر ، حتى وأنا طفل صغير ، بأن هذا ليس أسلوباً طبيعياً في الحياة .

كنا دائماً نحصل على إجازة في عيد الفطر ، ولكن في عام ١٩٥٧ منعت السلطات الإجازة وقالت إنه يتوجب على أفراد طائفة الدروز متابعة الدوام في المدرسة . ولكننا رفضنا ، أنا وبعض الطلاب الآخرين ، الالتزام بالقانون الجديد ، وقمنا بإقناع العديد من الأصدقاء بأن يحذو حذونا . أما سبب منع الإجازة فهو خلق نوع من الانقسامات داخل الجماعة الفلسطينية ، وعزلنا عن إخواننا العرب .

عندما قرر (بن غوريون) عام ١٩٥٦ إلحاقنا بالخدمة العسكرية ، قام (١١٠٠) شخص من الطائفة الدرزية بتوقيع عريضة يرفضون فيها هذا القانون ، ولكنها لم تجد نفعاً ، فقد وافق ستة عشر شخصاً من رؤساء طائفتنا ، وكان هذا هو ما تسمى إليه السلطات . واستدعيت للخدمة العسكرية بعد أن أنهيت دراستي الثانوية ، ولجأت الى كل وسيلة ممكنة للتخلص من الخدمة ولكنني فشلت . فقد منعوني من العمل واستمروا في مطاردتي حتى أجبرت في النهاية على تأدية الخدمة العسكرية) .

أضافت (صالحيّة) ، وهي امرأة جميلة في السادسة والثلاثين من عمرها : (من المفترض أن يلتحق شقيقي بالخدمة العسكرية قريباً ، ولكنه يبذل أقصى ما يوسعه للتهرب منها ، وخاصة لأنه لا يرغب بأن يجد نفسه يحارب ضد إخوانه في الضفة الغربية) .

تابع (عدنان) الحديث : (على الرغم من السنوات الثلاث التي أضعتها من حياتي في الجيش ، إلا أنه كان للخدمة العسكرية أيضاً دور كبير في تعزيز هويتي الفلسطينية وتأكيد انتمائي القومي . أستطيع بكل صدق أن أقول إنني لم أطلق رصاصة واحدة في أي يوم من أيام خدمتي العسكرية على أي عربي عبر الحدود ، ولم أرفع قبضة يدي أو بندقيتي ولو مرة واحدة في وجه أحد من إخواني الفلسطينيين . بعد أن انتهت فترة خدمتي العسكرية ، احتفظوا بي في الاحتياط ، ولكنني اعترضت فسجنت لمدة شهر . وبعد كثير من النقاش والتهديد والنزاع ، أخرجوني من الاحتياط) .

قالت (صالحيّة) : (لم يتم وعيّ لهويتي وقضيتي بشكل فعلي حتى عام ١٩٦٧ ، أذكر أن والديّ في ذلك الوقت أصيبا بفزع شديد وبدأ يحزمان أمتعنا ظناً منهما أننا سنطرد من ديارنا . ثم ، وبعد الحرب ، بدأ الناس يقيّدون من الضفة الغربية إلى منطقتنا ، وعلمنا منهم المزيد عن القضية الفلسطينية . وأنا الآن مطلعة على كافة الأمور ، وأتابع الأخبار باستمرار ، وأهتم كثيراً بتطورات الانتفاضة) .

وصل رجل ومكث في الخارج ، فانضم إليه (عدنان) ؛ وذهبت (صالحيّة) إلى المطبخ لإحضار بعض المرطبات .

قالت حماة (صالحيّة) وهي عمته في الوقت نفسه : (في عام ١٩٤٨ تملكنا الخوف أيضاً ، فكما اعتقد الناس عام ١٩٦٧ أنهم سيُرحّلون عنوة ، كذلك قمنا عام ١٩٤٨ بحزم أمتعنا وممتلكاتنا استعداداً للرحيل . إلا أن شيوخننا رفعوا راية بيضاء ليبينوا لليهود عدم رغبتنا في محاربتهم ،

وبهذا بقينا في ديارنا . اذكر أنه عندما كان يمر بعض الراحلين من قريتنا وهم في طريقهم الى سوريا ولبنان ، كنا نخبرهم بأن لا يغادروا البلاد ، ولكنهم لم ينصتوا إلينا) .

عادت (صالحية) تحمل بعض المربطات ، وقالت وهي تقدمها :
(كانت الحياة في الماضي أبسط منها الآن وأكثر أمناً ، حتى نحن النساء كانت حياتنا أكثر سلاماً . فقد تركت المدرسة عندما أنهيت الصف السابع ، ففي أيامنا لم تكن الفتيات يكملن تعليمهن بعد الصف الثامن ؛ أما الآن فيذهبن الى الجامعة ، وهذا أمر " جيد " . ولكن عليهن أيضا العمل حتى بعد الزواج ، فيحملن بذلك أزواجهن وأطفالهن . أنا لم أعمل إلا في المنزل ، وفي منزل أهلي كنت أساعد في الأعمال المنزلية اليومية ، وفي الأرض ، واعتني أيضا باخوتي وأخواتي ؛ فقد انجب والديّ إحدى عشر طفلاً) .

قال (عدنان) معلقاً بعد أن عاد الى الغرفة : (لدي عشر شقيقات وأربعة أشقاء ، وعلى الرغم من صعوبة تربية هذا العدد الكبير من الأطفال ، إلا أنني أعتقد أن واجبنا الوطني يحتم علينا إنجاب أكبر عدد ممكن من الأطفال لزيادة عدد السكان العرب) .

هزت والدته رأسها وقالت : (لقد عملت طوال حياتي بكد واجتهاد بالغين ، فقبل أن أتزوج كنت أقوم بالأعمال الشاقة في المنزل والأرض أيضاً . كنا خمس فتيات وفتى وحيد ، عندما بلغ شقيقي التاسعة عشر من عمره حكم عليه الإنجليز بالسجن لمدة خمس سنوات لأنه اشترك في حركة المقاومة . وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره أطلق عليه الإنجليز النار بينما كان يعمل في الحقل ، وعندما عثرنا عليه أنا وأخواتي وضعناه على جمل وأخذناه الى البيت ، ولم ندعه بعد ذلك يقوم بأية أعمال زراعية . كل ما كان يفعله هو اصطحاب شقيقاته الى الحقل والعودة بهن الى المنزل لحمايتهن من أي أذى قد يتعرضن له . فبما أنه الفتى الوحيد المخلد لاسم العائلة ، لم نكن نريد أن يصيبه مكروه ،

لذا قمنا بتدليله . وعندما تزوجت كان علي أيضاً أن أقوم بأعمال شاقة أكثر من ذي قبل ، لأنني أنجبت عدداً كبيراً من الأطفال وكان يتوجب عليّ رعايتهم . تزوجت وأنا في الثامنة عشر من عمري ، وكان زوجي في الخامسة والخمسين من عمره ، وهو صديق لوالدي ، بالإضافة إلى كونه رجلاً ثرياً . لذا قرر والدي أنه صيد جيد ، وخاصة بسبب انتشار الفقر في تلك الأيام وندرة الأعمال . كان زوجي في الواقع يكبر والدي بعامين ، إلا أنه كان رجلاً طيباً ، لذا لم أمانع زواجي منه ؛ علماً أن الفتيات في تلك الأيام لم يكنّ يتجرأن على الممانعة . إذ ليس من المعقول أن ترفض الفتيات العريس الذي يختاره الأهل ، أما اليوم فالأمر مختلف تماماً ؛ حتى الأعراس اختلفت) .

قالت (صالحية) : (نعم ، في السابق لم يكن هناك موسيقا ورقص كما هو الحال اليوم ، علماً أن الشيوخ لا يسمحون بذلك ، إلا أن الشبان لا يابيهون بهم ، لقد تغير كل شيء) .

قال (عدنان) : (في الماضي كان العمل أشد قساوة منه الآن ، وكان ينتظر من الجميع المشاركة في أعمال الأرض . أذكر أنني عندما كنت في التاسعة من عمري ، كنت أحمل أكياس الزيتون على ظهر الحمار وأخذها إلى المنزل ، وأقوم بذلك عدة مرات في اليوم ، بالإضافة إلى عملي في معصرة الزيتون . كان الأمر مختلفاً كثيراً عما هو عليه اليوم ، مع ظهور السيارات والجرارات ومختلف أنواع الآلات) .

قالت والدته موضحة : (كان جزء من أرضنا يقع بجانب عكا ، فكنا نقطع المسافة إلى هناك سيراً على الأقدام ، ونقوم بالأعمال اليومية الشاقة ، ثم نعود عند الغروب . ما زالت أملك أربعين دونماً بجانب عكا . ولكنها ليست كلها ملكي ، بل يملك أبنائي قسماً منها . أما اليوم فأذهب بالسيارة لأنها أكثر راحة ، فأوفر بذلك طاقتي للأعمال الزراعية . أزرع البطيخ الأحمر ، والطماطم ، والحبوب والبامية ، وكافة أنواع النباتات الأخرى . وأبيع جزءاً من إنتاجي في السوق هنا ، والجزء الآخر إلى

جيراني . والى جانب عملي في الزراعة أقوم بطهي الطعام في الأعراس ، فانا أعرف بمهارتي الفائقة في الطهي ؛ لذا يطلب مني باستمرار طهو الطعام في الأعراس ، وأجد متعة في ذلك) .

قال (عدنان) : (على الرغم من أن أساليب الزراعة أصبحت اليوم أكثر سهولة عن ذي قبل ، ولكن في السابق كانت الحياة مشتركة ، إذ كان الناس يساعدون بعضهم بعضاً ، ويهتم أهالي القرية بالصالح العام ، مانزال اليوم نحافظ على بعض العادات التقليدية ، كالأسلوب الذي نلجأ إليه في تسوية الخلافات بين العائلات . ففي حال وجود نزاع بين أفراد عائلتين ، يتم تشكيل وفد مفوض أو ما يسمى (بالجاهة) ليفصل بين العائلتين . وتتألف الجاهة من رجال مسنين ينتمون الى عائلات لا علاقة لها بالنزاع .

منذ بضعة أيام ، قام أحدهم بدهس ولدين بسيارته في القرية ، بغض النظر عن التزام السائق بالثول أمام المحكمة ، إلا أن عائلة المذنب أرسلت (جاهة) الى عائلة الولدين . بالنسبة لأبناء القرية يبقى للمفاوضات التقليدية والصلح الأهمية الكبرى ، بغض النظر عن قرار المحكمة . في تلك الحادثة عندما تحمل السائق وعائلته كامل المسؤولية والتزموا بتقديم كل ما نطلبه العائلتان ، صفحت عائلتا الضحيتين في الحال عن السائق ، ولم تطالباه بمال (الأتاوة) و (الدية) ، وسمحا للسائق المشاركة في الجنازة .

أما إذا قام أحدهم بقتل شخص ما عن سابق تصميم ، فالأمر أكثر تعقيداً . في البداية تقرر (الجاهة) مبلغ الأتاوة الذي يتوجب على عائلة المذنب أن تدفعه الى عائلة الضحية . ثم تأتي المرحلة الثانية وهي دفع مبلغ الدية . وبعد أن يتم التفاوض في هذا الموضوع يحمل المذنب راية سلام بيضاء ، ويطلب من كل فرد من أفراد الجاهة أن يربط عقدة فيها ، وترمز كل عقدة الى التسوية النهائية .

على الرغم من انني زعيم ديني إلا انني لم اشترك في أية جاهدة حتى الآن ، لانني لست من الرجال المسنين . في حين ما نزال نتقيد ببعض التقاليد القديمة ، إلا أن بعضاً من علاقاتنا الاجتماعية قد تغيرت في الوقت نفسه . فقد تحولت القرية الى ما يشبه الفندق ، إذ يذهب الناس الى المدن الاخرى للعمل ثم يعودون آخر النهار متعبين ومنزعجين ، ولا يريدون سوى الطعام والخلود الى النوم . وفي أيام الراحة يفضلون التجول في المدن بدلا من زيارة الأصدقاء والأقارب هنا ؛ لم يعد الناس في الواقع يهتمون ببعضهم بعضاً) .

قالت والدته مقاطعة : (كانت الحياة أفضل أثناء حكم الانجليز ، فهم على الأقل لم يسلبوا أرضنا ، حتى الأتراك لم يأخذوا أرضنا ؛ كل ما كان يهمهم هو أن يخدم رجالنا في الجيش ، علما أن بعضهم كان قادرا على تجنب ذلك . فقد تمكن زوجي من الهرب من التجنيد الإلزامي لدى الأتراك بدفع عشر ليرات ذهبية) . رد ابنها قائلا : (لا يمكنك أن تقول إن الحياة كانت أفضل تحت حكم الأتراك والانجليز ، فقد عاملونا معاملة سيئة) .

اجابت والدته : (نعم ، ولكنهم لم يسلبوا أرضنا ، فاليهود اكثر ظلماً لقد سلبونا أرضنا ، وجردوا الآخرين من منازلهم) .

قال (عدنان) موافقاً : (نعم ، هذا صحيح) .

تابعت والدته : (كان عندي ثلاثين شجرة زيتون ، أبادوها على بكرة أبيها ، ووضعوا أيضا بعض المواد الكيميائية حتى لا أتمكن من زراعة أية شجرة أخرى ؛ هل تسمي هذا عدلاً ؟ على الأقل لم يفعل الانجليز والأتراك ذلك ، لقد بذلت جهدي لرعاية تلك الأشجار . ثم انظروا الى ما فعلوه حول قريتنا ، لقد قاموا ببناء مستودع للخبرة الحربية بجانبنا ، كي يتمكنوا من تفجير قريتنا والقرى المجاورة اذا نهضنا لمقاومتهم) .

قال (عدنان) : (يقول البعض ان الطائفة الدرزية تتلقى معاملة متميزة عن غيرها ، ولكن هذا ليس صحيحاً على الاطلاق . إذ اننا نتلقى معاملة سيئة في مختلف جوانب حياتنا اليومية كسائر اخواننا الفلسطينيين وفي الجيش نعامل أيضاً كالعرب . فهم لا يثقون بنا ، ولا يكلفوننا بالمسؤوليات الهامة ؛ وعندما نحصل على ترقية ، تكون ترقية اسمية فقط دون أية فائدة تعود علينا . وعندما ننهي الخدمة العسكرية لا نحصل على الميزات والفوائد التي يحصل عليها اليهود . فمند بضعة أيام ، قام بعض الدروز الذين أنهوا خدمتهم بمظاهرة امام مركز قيادة (شامير) للمطالبة بفوائد مماثلة لتلك التي يحصل عليها اليهود .

تحاول السلطات أن تخفي العدد الحقيقي للدروز الذين يخدمون في الجيش ، إذ يتراوح عدد افراد الطائفة الدرزية بين ٦٠.٠٠٠ و ١٠٠.٠٠٠ نسمة . وتقول السلطات إن عدد الجنود الدروز يتراوح بين ٣٠.٠٠٠ و ٤٠.٠٠٠ جندي ، والحقيقة أن الرقم الحقيقي أقل من ذلك بكثير . إن إحدى الوسائل أو الخدع التي تلجأ اليها السلطات هي التظاهر بأن بعض الجنود اليهود الذين يتكلمون اللغة العربية هم من الدروز ، وهم بذلك لا يقومون فقط بتحريف الاحصائيات ، بل يحاولون خلق صدى بين الدروز وبقية الفلسطينيين .

تأسست لجنة المبادرة الدرزية عام ١٩٧٢ ، وتنتشر فروعها في كل قرية درزية ؛ ويتركز هدفها البارز في إنهاء الخدمة العسكرية الالزامية للدروز ، وتمارس أيضاً بعض النشاطات الأخرى . ونعمل نحن أعضاء اللجنة على تصعيد حدة النضال ، فنتحدث كل يوم الى عدد اكبر من الشبان لنشجعهم على رفض تأدية الخدمة العسكرية ، ونلقي عليهم المزيد من المحاضرات لتنمية ادراكهم ، فنوضح لهم ، على سبيل المثال ، أن الخدمة الالزامية بالنسبة لنا ليست من أجل الدفاع عن أرضنا وأنفسنا وشرفنا ، بل إننا نستغل من قبل السلطات الاسرائيلية لتنفيذ مآربها الخاصة ، وهدفها الوحيد هو إبعادنا عن بقية إخواننا

الفلسطينيين . فبدلاً من أن يوجه الفلسطينيون غضبهم وكرهيتهم ضد السلطات ، يريدون منهم أن يوجهوا تلك المشاعر ضدنا .

يزداد كل يوم عدد الشبان الرافضين تأدية الخدمة العسكرية ، ومن أكثر الطرق الشائعة لاجتناب الخدمة هو ادعاء الجنون ، وكثيراً ما يتردد رجال الشرطة الى القرية للملاحقة الفارين من الخدمة . وهناك حوالي ١٢٠ شاباً في السجن ، البعض منهم بسبب رفضه الخدمة في الضفة الغربية وغزة ، والبعض الآخر بسبب رفضه تأدية الخدمة العسكرية بكليتها .

اعتمدنا مؤخراً نشاطاً اجتماعياً جديداً في القرية ، وهو إقامة الاحتفالات لكل شاب قاوم بنجاح أداء الخدمة الالزامية .

نجحت اللجنة في شراء مبانٍ حيث نستطيع أن نمارس كافة نشاطاتنا . وتتألف اللجنة من مدير ، وأمين للسِر ، وإحدى عشر عضواً ، تتضمن نشاطاتنا الأخرى شن حملات ضد اغتصاب الأراضي والتدخل في شؤوننا الدينية . فقد أعلمتنا السلطات بأنها هي الجهة المسؤولة عن تحديد سن التحاق شباننا بالمهنة الدينية . بأي حق يتدخلون في شؤوننا الدينية ؟ هذا لا يصدق !

من ناحية ثانية ، نقوم بتقديم محاضرات للنساء ، ومحاضرات عن الرياضة ، والصحة ، وخاصة عن أخطار الادمان على المخدرات الذي ازداد مؤخراً . وهناك أيضاً امرأتان متورطتان في موضوع المخدرات ، الأولى : كانت تهرب البضاعة لصالح والدها والثانية لزوجها . واتخذ مؤخراً قرار يقضي ببند كل من يتعاطى المخدرات دينياً واجتماعياً . وهذا يعني عدم السماح له بدخول مقرنا الديني ، وحضور الاحتفالات الدينية ، أو المشاركة في أي من النشاطات الاجتماعية التي تجري في القرية ؛ ولن يسمح لأحد بزيارته أو حضور حفل زواجه أو مأتمه . والقينا أيضاً بعض المحاضرات عن الانتفاضة ، ونقوم بجمع الهبات

لاخواننا في الضفة الغربية وغزة . وقد منعتني السلطات مؤخراً من الذهاب الى هناك بسبب تأييدي الصريح للانتفاضة ، فلا أستطيع أن أطا بقدمي الضفة الغربية وغزة لمدة عام كامل) .

قالت والدته : (أعتقد أن الانتفاضة كانت نتيجة حتمية ، ولكنها ليست وضعاً من السهل استمراره . أعتقد أنه إذا كان ما يقومون به سيؤدي الى نتائج إيجابية ، فليستمرؤا . أما إذا كانوا لن يحققوا هدفهم ، فليكنفوا عن ذلك !) .

قالت (صالحة) : (أعتقد أن ما يفعله اليهود بـسكان الضفة الغربية وغزة يتسم بالوحشية والظلم ، صحيح أن الناس يرمونهم بالحجارة ، ولكن اليهود يحتلون أراضيهـم ويطلقون عليهم النار ؛ ولا تفعل الحجارة شيئاً في وجه الرصاص . يجب أن يخرج اليهود من الضفة الغربية وغزة ، عندئذ سينتهي العنف) .

ذهب (عدنان) لحضور اجتماع ، وانسحبت والدته لقضاء بعض الأعمال المنزلية . وبدأت أصغر أولاد (صالحة) ، وهي فتاة من الرابعة من عمرها ، بالبكاء والصراخ لتلفت إليها الانتباه ؛ فهرع الصبية الثلاثة الأكبر سناً وخرجوا من المنزل كي لا يطلب منهم الاعتناء بشقيقتهم ، وفضلوا اللعب مع أصدقائهم .

كان ذلك في الصيف التالي : عام ١٩٨٩ . كان (عدنان) قد عاد لتوه من اجتماع عقدته لجنة المبادرة الدرزية . قال : (عقد الاجتماع في قرية (جوليس) وهي قرية أخرى من القرى الدرزية ، ويعود السبب في ذلك الى أن بعضاً من شبان القرية الموجودين في إحدى السجون العسكرية بسبب رفضهم تأدية الخدمة العسكرية قد تعرضوا للتعذيب بواسطة المدى والهراوات والخراطيم على أيدي الجنود اليهود ، ونقل اثنان من المساجين الى المشفى بسبب حالتهم المتردية . وسنقوم بنشر بيان في الصحف حول هذا الموضوع ، ونخطط لتنظيم مظاهرة احتجاج

أمام مبنى السجن ؛ وسنطلب من اليهود الذين رفضوا الخدمة في الضفة الغربية وغزة أن ينضموا إلينا . وتتركز سياستنا الآن على محاولة تنسيق نشاطاتنا مع اليهود المتطرفين لنحارب سوية الظلم والعنصرية .

علماً أن موضوع المباحثات الرئيسي في الاجتماع كان مصير السجناء ، إلا أننا تناولنا أيضاً بعض المواضيع الأخرى . فقد ناقشنا ، على سبيل المثال ، موضوع مشاركتنا في لجنة رؤساء المجالس العربية المحلية ، وسنضع في اللجنة عشرة ممثلين عن الطائفة الدرزية . إلا أن وزير الشؤون العربية رفض تلك الفكرة بحجة أنه لا داعي لتمثيل الدروز لأنهم يتمتعون بحقوق مماثلة لتلك التي يتمتع بها اليهود . هذا هراء مطلق بالطبع ! والسبب في عدم رغبتهم بمشاركتنا في اللجنة هو تدعيم روح الطائفية ، فهم يريدون إبعادنا عن بقية السكان العرب .

وتحدثنا أيضاً عن الطريقة التي قمنا فيها بتضليل القانون الذي يمنع لجنة المبادرة الدرزية من إصدار كتيب شهري ، فنقوم الآن بإصدار كتيب تحت اسم مختلف كل شهر .

نشرت في إحدى الكتيبات مقالة تدين الامبريالية والصهيونية الأمريكية ، وتشجع جميع الفلسطينيين في منطقة ٤٨ على دعم الانتفاضة ومساندتها . وقلت أيضاً في المقالة إنه لا بد في يوم من الأيام من نشوء دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، وتكون عاصمتها القدس الشرقية) .

ابتسم (عدنان) وتابع حديثه : (إن السلطات غير راضية على ما أقوم به أو على ما أمثله . فمنذ بضعة أيام ، استدعيت إلى وزارة التربية للاستجواب ، أرادوا أن يعرفوا كافة النشاطات التي تقوم بها اللجنة ، ولماذا نمنح الدم إلى مواطني الضفة الغربية وغزة . ووجهوا إلي أيضاً تهمة القيام بنشاط تخريبي لأنني أصرح بأن الدروز فلسطينيون ، ويجب أن لا يُجبروا على الخدمة الإلزامية . فأخبرتهم أنه بما أنهم

يدعون بأن هذه الدولة هي دولة ديمقراطية ، فكل ما أفضله هو ممارسة حقي في حرية التعبير . فما كان من السلطات إلا أن منعني ثانية من الذهاب الى الضفة الغربية وغزة ، وحاولوا أيضاً إيقافي عن ممارسة عملي . إلا أنني استلمت رسالة من مدير المدرسة ، وعريضة موقعة من عدد كبير من أهالي القرية ، يقولون فيها أنني كنت معلماً فاضلاً وذا ضمير حي ، ولا يمكن للمدرسة أو للتلاميذ الاستغناء عن وجودي . ومنذ العام الماضي ، صعدت اللجنة من نشاطاتها ، فنقوم على سبيل المثال ، بزيارات إلى المجندين الشباب اللذين لا يتجرؤون على رفض الخدمة العسكرية ، ونطلب منهم أن لا يقدموا على محاربة أو ضرب فلسطيني واحد في الضفة الغربية ، وغزة .

ومن ناحية ثانية ، نلجأ الى أساليب متنوعة لمقاومة مشكلة المخدرات المتفاقمة ، فإلى جانب إلقاء محاضرات حول هذا الموضوع ، نلجأ إلى تشجيع شبان القرية على المشاركة في النشاطات الرياضية بدلاً من التسكع في الشوارع . ومنذ بضعة أيام جرت مباراة في كرة القدم بين فريقين في القرية ، وكان شعارها :

نعم للرياضة ، لا للمخدرات .

ونقوم أيضاً بإلقاء محاضرات عديدة عن الانتفاضة ، وقد زارنا مؤخراً لجنة نسائية من الضفة الغربية بهدف تعزيز التفاهم المشترك بيننا وبين أبناء الضفة الغربية . وستقوم لجنة نسائية من مدينتنا بزيارة مماثلة في القريب العاجل .

في هذه اللحظة بالذات يقوم بعض الأطفال بالتدريب على مسرحية في مقرنا الرئيسي .

يقع المقر الرئيسي للجنة المبادرة الدرزية على مقربة من منزل (مدنان) ويتألف من ثلاث غرف واسعة تفتقر الى الاثاث ، على عكس

الجدران التي تغطيها ملصقات عديدة عن الانتفاضة ، وعن النضال ضد
العنصرية ، والكفاح من أجل المساواة ، ورفض الخدمة العسكرية
الإلزامية . نقرأ مثلاً على إحدى الملصقات المطالبات التالية :

- يجب أن تنتهي الخدمة العسكرية الإلزامية المفروضة على شعبنا .
- تأمين التعليم والعمل لشعبنا .
- انسحاب الجيش من المناطق المحتلة .
- السلام والمساواة للجميع .

التقينا بالمعلمتين المسؤولتين عن الأطفال ، وهما من أعضاء
اللجنة : الأولى عاملة في مصنع النسيج ، والثانية معلمة .

قالت المعلمة (امتياز) التي كانت تشرف على مجموعة صاخبة
من الأطفال الذين يتدربون على المسرحية بمتعة واضحة : (لدينا في
الوقت الحاضر عشرين طفلاً تتراوح أعمارهم بين الخامسة والثانية عشرة
عاماً وملتقي مرة في الأسبوع أثناء العام الدراسي ، وأكثر من مرة في أيام
العطل . أما المسرحية التي نتدرب عليها الآن سنقدمها خلال أسبوع ،
وليس أمام أهالي التلاميذ فقط ، بل أمام جميع أهالي القرية .

تدور أحداث المسرحية حول ثعلب يغزو أرض الأرانب ويحاول أن
يسلبهم إياها ، فيجتمع الأرانب سوية ويحاولون إيجاد وسيلة للتخلص
منه . يقول أحدهم أنهم لن يتمكنوا من التغلب على الثعلب لأنه أكثر قوة منهم
لذا لا سبيل أمامهم سوى الهرب ، ولكن يرفض الأرانب هذا الحل .
ثم يقترح آخر بأن يقدموا للثعلب اثنين منهم استرضاءً له ، ولكن يقول
الآخرون إنها ليست فكرة جيدة . ثم يقرر الجميع بأن الحل الأمثل هو
نصب كمين للإيقاع به ، وبعد أن ينجحوا في ذلك ، يقول بعضهم :
(لنقتله !) ، ويقول آخرون : (لنعذبه !) . ولكن قرارهم النهائي هو
أن يتركوه يرحل ، بعد أن يهددوه بالقتل إن عاد ثانية إلى أرضهم .

من خلال قصص مماثلة نعلم الأطفال الوعي حول القضية الفلسطينية ، ونعلمهم أيضاً القصائد الشعرية التي تتكلم عن أرضنا وعن أشجار الزيتون ؛ ونعلمهم كذلك الاغاني الوطنية ، ونكلمهم عن الانتفاضة () .

قدم إلى إلى زيارة (عدنان) ثلاثة من الطلاب الذين كانوا يدرسون في أوروبا الشرقية ، ويمضون الآن عطلة الصيف مع عائلاتهم في (برقة) . كانوا يناقشون قانوناً أصبح مؤخراً ساري المفعول .

قال (محمود) الذي يدرس الطب في رومانيا : (يحق الآن للطلاب الذين حصلوا على شهادة الطب من دول غير الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا وأفريقيا الجنوبية ، التقدم الى امتحان في إسرائيل إذا رغبوا في ممارسة الطب هنا . والجانب المجحف في هذا الموضوع هو أنه لا يحق للطلاب العرب التقدم الى مثل هذا الامتحان ، على عكس الطلاب اليهود . إنهم يحاولون عرقلة تقدمنا في كل خطوة نخطوها) . يعتبر أولئك الطلاب الثلاثة أعضاء في لجنة المبادرة الدرزية ، وقد رفضوا جميعاً تأدية الخدمة العسكرية بحجة معاناتهم من أمراض عقلية .

قال (محمود) : (من الأسباب التي جعلتني أرفض كليا فكرة الخدمة العسكرية هو أن الجيش الاسرائيلي ليس في حقيقته كما يدعي : جيش دفاع ؛ بل كان جيش احتلال منذ عام ١٩٤٨ . الى جانب ذلك ، نحن فلسطينيون ، وما تحاول السلطات أن تفعله هو إبعادنا عن بقية الفلسطينيين) .

قال (أحمد) الذي يدرس الصحافة في (براغ) : (يتوجب علينا أن نؤدي الخدمة العسكرية بعد أن ننهي دراستنا الثانوية ، ويرفض بعض الشبان تأديتها رفضاً باتاً ، فيرسلون الى السجن . ويلتحق آخرون بالسلك الديني لأن الزعماء الدينيين لا يخضعون للتجنيد الالزامي . ثم هناك البقية الذين يرفضون تأدية الخدمة بحجة أمراض عقلية كما فعلنا

نحن . ولم نتمكن من التخلص منها نهائياً قبل مضي ثلاث سنوات ضاعت من حياتنا سدى ، خضعنا خلالها لفحوص على أيدي أطباء ولجان الجيش . حتى انني اضطررت لقضاء اسبوع كامل في مصح عقلي ؛ ولم يسمح لنا ، في تلك السنوات الثلاث ، أن نتابع دراستنا أو أعمالنا .

قال (محمود) : (يتلقى الدروز الذين يرفضون تأدية الخدمة العسكرية معاملة أقسى من التي يتلقاها أمثالهم من اليهود . فقد ذكروا في الكنيست أن أربع شبان اليهود لا يُردون الخدمة العسكرية ، البعض منهم لأسباب دينية ، والبعض الآخر بسبب عدم موافقتهم على وجود الاسرائيليين في الضفة الغربية وغزة . وهناك البعض ممن يعفون من الخدمة لأنهم يعملون لاعالة عائلاتهم الفقيرة جداً . وهناك بالمقابل الكثير من الشبان الدروز المعلمين ، ولكنهم لم يعفوا من الخدمة) .

قال (قاسم) الذي يدرس الطب في روسيا : (ان الشبان الدروز الذين يخدمون في الجيش هم أشخاص جاهلون ، ولا يعلمون شيئاً عن القضية الفلسطينية . إذ لا يكفي أن نرفض تأدية الخدمة العسكرية ، بل يجب أيضاً أن نطور الوعي السياسي لشباننا كي يصلوا جميعاً الى رفض تأدية الخدمة العسكرية . عندما نعود الى وطننا في عطلة الصيف نحاول أن نشجع الجيل الأصغر على رفض الخدمة العسكرية ، ونوضح لهم أننا فلسطينيون . وأن سياسة إسرائيل تهدف الى إبعادنا عن بقية السكان العرب . ونجدهم أيضاً عن الممارسات الجائرة وعدم المساواة التي نعاني منها كفلسطينيين) .

قال (أحمد) موضحاً : (كانت المشكلة الرئيسية منذ عام ١٩٤٨ هي الخوف : إذ يعاني عدد كبير من الناس من الفقر والجهل ، لذا لا يجرؤون على مواجهة السلطات أو مقاومتها . وتستغل السلطات الاسرائيلية ذلك ، فتقول للشبان ، على سبيل المثال ، بأنهم إذا لم يخدموا في الجيش فلن يتمكنوا من الحصول على عمل ، فضلاً عن طرد آبائهم وإخوانهم من العمل أيضاً . وبالتالي تخشى العائلات الفقيرة التي

يبلغ عدد أفرادها ستة أو حتى سبعة أشخاص أن ترفض الخدمة العسكرية ؛ ويفضل شبان تلك العائلات أن يخدموا في الجيش على أن يفقدوا أعمالهم) .

أضاف (محمود) : (ويحصل الجنود في الجيش على رواتب تعتبرها العائلات الفقيرة مكاسب إضافية) .

قال (قاسم) بلهجة غاضبة : (ليست الخدمة العسكرية هي الأسلوب الوحيد الذي يلجأ اليه الاسرائيليون في محاولتهم إبعادنا عن بقية الفلسطينيين ، بل يستخدمون أيضا أساليب أخرى . ففي عام ١٩٥٧ أصدروا قانونا يقضي بأن الدروز يختلفون عن العرب ، لذا يجب تسجيلهم على أنهم دروز وليسوا عرباً . والدروزي الذي يكتب على بطاقة هويته كلمة عربي لا يحق له مزاوله أي عمل ، ولا يزال هذا القانون ساري المفعول حتى اليوم . أنا أكتب دائماً كلمة عربي أثناء التسجيل ، ولكن عندما يدونون بطاقات الهوية بشكل فعلي ، يكتبون تلقائياً كلمة درزي) .

وتابع يقول : (والأسلوب الآخر الذي لجأوا اليه لعزلنا كان من خلال النظام التربوي . إذ يطلب الآن من المعلمين في مدارسنا أن يدرسوا ما يسمى بالتاريخ والتراث الدروزي ، فيحاولون أن يغسلوا دماغ أجداننا لجعلهم يعتقدون أنهم ليسوا عرباً بل دروزاً . ويقولون لهم إن العرب كانوا على الدوام قوم مهزومون ، بخلاف الدروز ؛ ولسوء الحظ ، يصدق بعض الطلاب ذلك الكلام ، وينتهي بهم الأمر الى الموافقة على تأدية الخدمة العسكرية) .

هزّ (أحمد) رأسه وقال : (نعم ، ولأن عدد الشبان الذين يرفضون تأدية الخدمة العسكرية يزداد كل يوم ، لجأت السلطات الى تشديد الضغط علينا . وذلك ليس فقط لجعلنا نذعن لطلباتها ، ولكن لتبعدنا عن بقية العرب . كيف يمكنهم أن يبعدوننا عن بقية العرب ؟ نحن عرب

نتكلم لغة واحدة ، ونرتدي زياً واحداً ، ونأكل طعاماً واحداً . ولا نشكل جزءاً من العرب الفلسطينيين هنا فحسب ، بل إننا أيضاً جزء من العرب في العالم العربي ككل .

عندما نعود الى وطننا بعد التخرج ، سنواجه صعوبة كبيرة في الحصول على عمل لاننا لم نؤدِ الخدمة العسكرية ، فهم يحاولون اضعاف المزيد من البؤس على حياة العرب هنا على أمل أنهم سينتهون جميعاً إلى مفارقة البلاد ، ولكننا لن نرحل ، ولن نستسلم أبداً لضغوطهم) .

قال (محمود) بتحدٍ : (أنا مستعد لأن اتضور جوعاً وأموت إذا لزم الأمر في سبيل الحصول على المساواة) . وهزوا جميعاً رؤوسهم علامة الموافقة .

قال (قاسم) معلقاً : (المستقبل لنا . ولن تستمر طويلاً السياسات السلبية والقمعية التي يمارسها الإسرائيليون وخاصة بعد التطور الأخير الذي حصل في منظمة التحرير الفلسطينية . ولا يتوانى اليهود عن الصراخ بأننا نريد أن نرمي بهم الى البحر ، ولكن هذا الكلام عابر عن الصحة . فنحن مستعدون للعيش معهم بسلام شريطة أن يقدموا لنا المساواة والعدالة ، ويوافقوا على فكرة انشاء دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وغزة) .

قال (عدنان) : (ربما ينتهي التجنيد الالزامي عندما يتم انشاء دولة فلسطينية مستقلة) .

قال ابن عدنان ذو الإحدى عشر ربيعاً ، والذي كان ينصب باهتمام طوال الحديث : (لن أخدم في الجيش أبداً) .

أجابه (أحمد) وعلى وجهه ابتسامة : (انت فتى شجاع) .

قال والده : (نأمل أنه عندما يأتي دورك ، تكون الخدمة العسكرية قد انتهت ، وفي غضون ذلك ، ستستمر لجنة المبادرة الدورية بتشجيع الشباب على رفض الخدمة في الجيش .

دخلت (صالحيه) وقالت ان طعام الغداء جاهز ، فقد صنعت الكبة النيئة (لحم خاروف مفروم نيء يخلط مع قمح مجروش وتضاف اليه بعض التوابل) وفق الطريقة الدورية المشهورة .

قال (أحمد) : (انه من الاطباق التي نفتقدها حقاً في الغرب) .
وتوقفوا جميعاً عن الكلام .



الفصل السابع

الكاتب المسرحي : مروان من مجد الكروم

لم يواجه والذي اية مشاكل بسبب هويته ، لأنه لم ينشأ
وسط حضارتين كالجيل الذي أنتهي اليه ، فعلينا ان نحارب
وان نكون اقوياء وبحق كي لا نفرق في الحضارة الاسرائيلية .

مروان

تعيد القرى العربية الموجودة في مرتفعات الجليل الى الذاكرة القرى
السورية أو اللبنانية . ولكن يتبدد هذا الوهم المضلل بأنها قرية عربية
لدى سماعك كلمة باللغة العبرية ينطقها أحد السكان العرب . او عند
رؤيتك لافتة على الطريق كتبت باللغة العبرية .

تحيط الجبال ، بمجد الكروم ، القرية العربية الواقعة في مرتفعات
الجليل ، والتي يبلغ عدد سكانها حوالي ثمانية آلاف نسمة . كانت في
السابق قرية زراعية ، ولكن السلطات صادرت معظم الاراضي . لذا
يرتفع فيها معدل البطالة ويشغل معظم العاملون أعمال في مواقع
البناء ، او في الصناعات الخدمية : المطاعم ، ومحطات الوقود .
وغیرها ...

قال أحد القرويين : (انها اشبه بفندق كبير . يذهب الناس الى
العمل في المدينة أثناء النهار ، ثم يعودون ، يأكلون وينامون) .

يعتبر أسلوب البناء عسريا بشكل رئيسي ، على الرغم من وجود بعض المباني شبه التقليدية ، وتعكس بعض المباني حالة أصحابها الفقيرة ويعكس البعض الآخر رخاءهم الاقتصادي . ويشير الاطفال الى أحد المنازل ، الذي يملكه رجل أعمال ثري ، (بالقصر) ، وهو في الواقع فيلا كبيرة وليس قصرا ، ولكن الحجم أمر نسبي وهو ، في نظر الاطفال ، قصر .

يجتاز القرية شارع رئيسي واحد ، يعتبر مركز النشاط والحركة ، ويضم المجلس المحلي ، والمكتبة العامة ، بالإضافة الى المتاجر . والتسلية المفضلة لدى شبان القرية هي الوقوف في الشارع وتجاذب أطراف الحديث فيما بينهم ، أو التحديق في الجبال بلا هدف . ولا يحق للنساء والفتيات الاشتراك في هذه التسلية ويقتصر استعمالهن للشارع على الانتقال من طرف الى آخر ، والنظر خلسة الى الشبان . ويلعب الفتيان الصغار كرة القدم أو ألعاب أخرى في الشارع الرئيسي ، بينما ترمقهن الفتيات الصغيرات الواقفات جانبا بنظرات حاسدة . وما يزال بعض المسنين يحافظون على زيهم التقليدي ، ويعبرون الشارع على ظهور الحمير ، عائدین من قطعة الأرض الصغيرة التي حالف الحظ كل واحد منهم في الإبقاء عليها .

يقع منزل (أبو عماد) و (أم عماد) في مدخل قرية مجد الكروم ، وهو من الطراز التقليدي، وتطل شرفته على الحديقة والشارع الرئيسي والتلال المحيطة . وقد زرعت الحديقة بالطماطم والباذنجان والبامية والتين والعنب . ويوجد في الجانب الخلفي من المنزل سقيفة ، تقف خارجها بقرة . وتمتد بين المنزل والطريق قطعة من الأرض مساحتها أربعة دونمات يملكها (أبو عماد) ، بالإضافة الى حمار للرعي .

تبلغ (أم عماد) الثالثة والستين من عمرها ، وتظهر قوة شخصيتها في وجهها القاسي الملامح ، وتنتقل نظراتها الذكية هنا وهناك دون أن تنفعل شيئا . كانت قد أنجبت عشرة أولاد ، بقي منهم خمسة على قيد الحياة .

جلست في الشرفة مع ابنتها الكبرى (خديجة) تحضران الطعام ، كان النسيم اكثر انعاشا مما هو عليه في الداخل . كانت (أم عماد) تفرم الملوخية - وهي أوراق نبات خضراء اللون ، تطبخ مع اللحم أو الدجاج لتصبح طبقا يحبه الكثيرون من العرب ، ويقال أن (الملوخية) تهدى إلى الملوك - وكانت ابنتها تدق الثوم ، فيخمد صوت الصدى المرتد ضجيج السيارات المارة .

(خديجة) فتاة عازبة ، وتكسو المرارة وجهها لانها لم تحقق المطالبين المتوقعين منها ، والذين كانوا سيحولونها الى امرأة كاملة ، وهما الزواج والاطفال . لم يعد الوقت في صالحها ، وهي في نظر المجتمع فتاة عانس ، وكانت وهي تدق الثوم ، تبدو وكأنها توجه كل ضربة الى القدر الذي حرّمها من انثوتها . توقفت سيارة خارج المنزل ، وترجل منها (أبو عماد) وابنه (مروان) الذي يبلغ الثلاثين من عمره ، عائدتين من الناصرة حيث كانا في زيارة المستشار القانوني من أجل املاكهم .

يلغ (أبو عماد) الثامنة والسبعين من عمره . قصر القامة ونحيل ولكنه قوي البنية ويرتدي على الدوام الزي التقليدي للفلاحين الفلسطينيين . منذ سنوات طويلة فقد النظر في عين واحدة ، ويتشتت عقله بعض الاحيان بسبب تقدمه في السن من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، ربما لان الحاضر مبهم الى حد يجعل من الاسهل على المرء التثبيت بالماضي .

جلس وهو يطلق زفرة عميقة وقال : (لو أحب الناس بعضهم بعضا وكانوا سعداء يكفي عندئذ أن يعيش المرء على العدس المجفف . ولكن اذا كنا تعساء ونعاني من المشاكل ولدنيا الكثير من الارز واللحم ، فلاجدوى منها لاننا لن نستطيع أن نهضمها . في الماضي ، لم يكن لدينا الكثير من الطعام ، وكانت الشوارع غير مضاءة ، وكانوا يستعملون مصابيح النفط لانارتها ، وكانت منازلنا غير مجهزة بوسائل الراحة كما هي الآن ، وكانت أعمالنا شاقة : حيث نعمل في الزراعة منذ الفجر وحتى الغروب ، ولم تكن نملك جرارات أو أجهزة حديثة ، بل كنا نزرع

بأيدينا ونحرث بواسطة الثيران . وفي بعض الاحيان ، كنا نمجز انا واخوتي ونسناؤنا عن انتهاء كافة الاعمال الزراعية اللازمة ، لذا كنا نلجأ الى استئجار فلاحين لا يملكون أرضاً . كان البعض منهم يقبض ثمانية قروش كأجر يومي ، ويفضل الآخرون الحصول على بعض المحاصيل الزراعية . كان العمل شاقاً ، ولكننا كنا سعداء ، فأرضنا لنا ، وماشيتنا لنا) .

حديق (أبو عماد) الى السيارات المارة ، ثم انتقل ببصره الى أرضه . تابع يقول : (كانت الحياة أفضل تحت الحكم الانجليزي نفسه ، وكنا نتمتع بحرية أكبر ، كنت أستطيع الذهاب والجيء كما يحلو لي ، لم تكن معيشتي مهددة . وفي عام ١٩٤٦ أصدر الانجليز قانوناً يقضي بأن يشكل كل أربعة فلاحين جمعية تعاونية لشراء جرار ، فقامت بذلك مع اخوتي الثلاثة . وبوجود الجرار انخفض عبء عملنا ، ولكن بعد مضي عامين احتل اليهود البلاد وأخذوا الجرار ، لذا عدنا ثانية نزوع بأيدينا ونحرث بالثيران والحياد .

لم تكن الجرارات الشيء الوحيد الذي اخذه اليهود ، ففي عام ١٩٥٣ وضعوا أيديهم على أراض تعود الى الفلسطينيين الذين غادروا البلاد . صادر اليهود الاراضي ، وأزالوا أسم المالك الحقيقي من مكتب التسجيل ، وسجلوها باسم الدولة ، وما يزالون يفعلون ذلك حتى اليوم . عندما قام اليهود بمصادرة الاراضي التي تعود ملكيتها الى الفنايين ، قلنا انها مشيئة الله . ولكنهم عندما يصادرون اراض يملكها بشكل قانوني أشخاص لم يفادروا البلاد ، أشخاص ما يزالون يزعمونها ويعتمدون عليها في كسب معيشتهم ، عندئذ ماذا نقولين في ذلك ؟) وصاح غاضباً : (اي قانون هذا ؟!) .

وتابع وهو ما يزال غاضباً : (أملك ثلاثين دونماً زرعتها بالبطيخ الاحمر والقمح ، وهذه الارض ملكي شرعاً وقانوناً ، ومسجلة باسمي

منذ عامين منعنتي السلطات من زراعتها ، وقالوا انهم يحتاجونها للتنمية ، أي أنهم سيقدمونها الى احدى المستوطنات . ولكني لم أبال ، وتابعت زراعتها ، انها أرضي ! منذ ثلاثة أيام ذهبت للاطمئنان على المحصول ، فوجدت أنهم ساقوا جرارا فوق البطيخ والقمح وأتلفوا كامل المحصول . ذهبت انا وابني الى مركز الشرطة ، ولكنهم قالوا انهم لا يسمعون القيام بشيء حيال ذلك ، فذهبنا الى المستشار القانوني فقال أنني انتهكت القانون لأنني تابعت العمل في أرضي بعد أن منعوني من ذلك ، وقال إنني يجب أن أخبره بقيمة المحصول وسيحاول اقناعهم بالتعويض لي عن التلف . من الذي يقول أنهم بإمكانهم منعي من زراعة أرضي التي هي ملكي وحدي ؟ أنهم يريدون في الواقع أن يصادروا أرضي عن طريق اتلاف محصولي وتدمير حياتي ، ويعتقدون بأنني سأستلم لهم وأتركهم يأخذون أرضي ، تلك هي سياستهم) .

انضمت الى العائلة الابنة الصغرى (فاطمة) التي تبلغ الخامسة والعشرين عاما من عمرها ولم تتزوج بعد .

تابع (ابو عماد) قصته : (لقد سلبونا أرضنا ودمروا منازلنا ، ومنعونا من البناء . هذا منزلي ، وأرغب بأن أبنّي طابقا ثانيا لكي يسكن فيه (مروان) عندما يتزوج ، ولكن السلطات رفضت اعطائي رخصة البناء دون ان يذكروا السبب . لا أرى سببا معقولا لرفضهم اعطائي الرخصة ، كل شيء ممنوع . يوجد اليوم وسائل رفاهية لم تكن نملكها في الماضي : لدينا كهرباء في منازلنا ، ومياه جارية واجهزة حديثة وبامكاننا الآن أن نستأجر جرارا مقابل عشرين شيكلا في الساعة لأعمال الزراعة . ولكن ما فائدة كل هذا عندما تكون الحياة شديدة القساوة تحت الحكم الاسرائيلي ؟ اذا داس أحدنا على أرض لليهود ، تفرض علينا الغرامات أو نُسجن ، ولكن يمكنهم أن يدوسوا أرضي ، ويتلفوا محصولي ، ويسرقوا أرضي . يحق لهم أن يفعلوا ما طاب لهم ، بينما أجرد أنا من حقوقي وأسباب معيشتي) .

حلق بعينه السليمة الى (مروان) وقال : (لا يستطيع ابني أن يتخيل كيف كانت الحياة في الماضي) .

(مروان) عضو في جماعة مسرح الحكواتي التي يقع مركزها في القدس الشرقية ، وهو يشبه والده في قامته القصيرة ؛ إلا أن موقفه من الناس ومن الحياة يتناوب بين نفاذ الصبر وعدم المبالاة . حلق بصمت الى والده .

كانت (فاطمة) هي التي أجابت بنفاد صبر على المحن التي يعاني منها والدها : (ما تزال حياة الجيل السابق تتركز حول الأرض ، أما بالنسبة لنا نحن الشباب ، فالزراعة لا تعني شيئاً ؛ إذ يتركز تضالنا على مستوى مختلف) .

قال الرجل العجوز بازدراء : (يحتقر شبان اليوم مثل هذه الأعمال ، لقد قدمت الى (مروان) العلم الذي لم أحصل عليه ، أرسلته الى أفضل المدارس ومن ثم الى الجامعة ، وهو يعيش الآن في القدس الشرقية ويرفض البقاء معنا . طلبت منه الإقامة هنا لمساعدتنا ولكنه رفض ذلك ، ويقول بأنه لا يحب طريقة حياتنا) .

قال (مروان) محتجاً : (اتيت لقضاء يومين هنا لمساعدتكم في قطاف الزيتون) .

قال والده ساخطاً : (في الماضي كان الرجال والنساء والأطفال يعملون في الأرض جنباً الى جنب كفريق واحد ، إذ كان وجودنا يعتمد على مدى نجاح محصولنا . وكان التجار يشترون المحصول وهو ما يزال في باطن الأرض . وبعد الحصاد ، كنا نبيع ما تبقى الى أهالي القرية في منازلنا ، وإذا احتجنا الى مبلغ إضافي من المال لشراء بنطال لأحد الإبناء ، كنا نبيع أيضاً برميلاً أو اثنين من زيت الزيتون . أما اليوم فعلينا أولاً أن نجتمع المحصول ، ثم نبيعه الى الأشخاص الذين يأتون بشاحناتهم .

وما نزال نبيع الخضار والفواكه الى أبناء القرية ، واكننا لم نعد نبيع زيت الزيتون ، فلا أحد يرغب به ، بل يفضلون شراء الزيت الاصطناعي الذي ينتجه اليهود . ويوصف الذين يصنعون الخبز بأيديهم ، في هذه الأيام ، بأنهم متخلفون ، إذ تفضل النساء شراء الخبز الغربي الجاهز . ولكن هذا ليس حال عائلتي ، إذ تصنع ابنتي الكبرى الخبز ، ثم أخذه الى فرن الخبز . ولدينا بقرة نحصل منها على حليبنا ، ولدينا دجاج يعطينا البيض الطازج . وما نزال حتى اليوم نأكل زيت الزيتون ، ونأكل من خضار أرضنا وفاكهتها ؛ وأرفض شراء الطعام المعبأ أو تناوله ، أو أي من المنتجات الحديثة التي ينتجونها اليوم ، ولا نشترى من السوق سوى الأرز والسكر والملح واللحم الطازج) .

أطلق المعجوز زفرة وقال : (كان لدينا أيضاً فيما مضى قطع من الماعز ، يضم حوالي سبعين أو ثمانين عنزة ، أما اليوم فمن الصعب الحصول على رعاة للاعتناء به . ولا يدرك الناس أن تربية الماعز تدرّ مالا أكثر مما يحصل عليه العامل ؛ ولكن شبان اليوم يفضلون العمل كعمال بالأجرة . فهم يرغبون في الحصول على مال وفير وبشكل سريع لشراء السيارات واصطحاب الفتيات في الأمسيات . في أيامي ، كان إذا نظر أحدهم الى فتاة ، يذهب إليه والدها وإخوتها في منتصف الليل ويوسعونه ضرباً) .

انفجر الجميع بالضحك .

قال الرجل المعجوز : (اضحكوا ما شئتم ، في الماضي ، إذا رفضت فتاة العريس الذي اختاره أهلها لها ، كانوا يأتون بالمعول ويضربون منقها ؛ أما اليوم فتتزوج الفتاة الشاب الذي تريده . أنا شخصياً أوافق على هذا التغيير لأنني أعتقد أنه من الخطأ الضغط على إنسان للزواج من آخر لا يرغب به . ولكنني لا أوافق على بعض التغييرات ، كخروج الشبان والشابات سوياً . لكل زمان رجاله ، فالشبان اليوم لهم

افكارهم ومواقفهم الخاصة بهم ، فهم يناضلون في سبيل اشياء مختلفة وبأساليب مختلفة . انظري مثلاً الى الانتفاضة) .

قاطعه (مروان) بنفاد صبر : (جميعنا نعرف كل ما يتعلق بالانتفاضة . هل حاربت في زمانك ؟) .

ردّ (ابو عماد) مدافعاً عن نفسه : (بالطبع لقد حاربت ، شاركت في ثورة عام ١٩٣٦ . كنت في ريعان الصبا ، وكنت مستعداً للقتال والاستشهاد في سبيل وطني . حضر القادة الى مجد الكروم وأخبروا الشبان ان يأخذوا الأسلحة ويقاتلوا ؛ لقد جلبوا لنا أسلحة من سوريا ولبنان ، ولكنها لم تكن من النوع الجيد ، كانت صدئة . وعندما نفدت ذخيرتنا ، أخبرونا بأن ترسل طلباً الى سوريا . ولكننا قلنا محتجين : (ولكننا لا نستطيع الانتظار طويلاً ، نريد الذخيرة الآن لكي ندافع عن أنفسنا في وجه الدبابات) . فالفلاحون هم الذين تحملوا وطأة القتال العظمى ، كل ما فعله أولئك الذين يطلقون على أنفسهم اسم القادة هو قضاء الوقت في المدن . فكانوا يضعون الطربوش على رؤوسهم ويجلسون في المقاهي . وهناك الكثير من سكان المدن الذين كانوا من المتعاونين مع العدو المحتل ، وكانوا أيضاً يضعون الطربوش ويجلسون في المقاهي . ثم حرّم قادتنا على افراد المقاومة ارتداء الطربوش ، واحتفالاً بالقانون الجديد ، أحضروا حمراً ، ووضعوا طربوشاً على رأسه وتجولوا به في الشوارع . آه ، نعم ، إننا نحن الفلاحون من تحمل عبء القتال ، لقد حاربنا قدر استطاعتنا) .

قال (مروان) بشيء من الفظاظ : (اليوم يرمون الحجارة ، ولكنهم على الأقل يصيبون أهدافهم . في أيامكم ، كان بحوذكم بنادق ولكنكم لم تصيبوا أحداً ، كنتم تضربون في الهواء) .

نزع والده غطاء رأسه ومسح عرقه ، ونظر الى ولده وقال بهدوء : (أصبح الناس اليوم أكثر تعليماً ، وأكثر اطلاعاً من الناحية السياسية) .

ساد الصمت برهة ، واستغرق كل منهم في أفكاره ، دون أن يقلقه ضجيج حركة المرور ، ونهيق الحمار وقرق الدجاجات التي تعدو مسرعة في الحديقة .

هزت (أم عماد) رأسها وكسرت حاجز الصمت عندما قالت :
(نعم ، إن جيل اليوم أكثر تعليماً واطلاعاً من أبناء جيلي ، نحن لم نكون مثقفين . لقد أمضيت حياتي أعمل في الأرض ، وما أزال حتى اليوم ، وفاطمة لا تساعدني في الحصاد) .

ردت (فاطمة) وهي تبتسم : (هذا العمل لا يناسبني ، ولكنني أساعدكم في موسم الزيتون) .

تابعت والدتها : (أثناء موسم الزيتون تبقى في المنزل لحراسة الزيتون الذي نقطفه . ففي هذه الأيام ، يميل أولاد القرية الى السرقة ، فهم يسرقون الزيتون حتى قبل قطافه ، فأشجارنا موزعة ولا تنحصر في قطعة ارض واحدة . لدينا ، على سبيل المثال ، عشر شجرات من الزيتون في قطعة واحدة ، ولدينا شجرات أخرى في قطعة بعيدة ؛ ولا يوجد من يساعدنا للعمل في كل الأمكنة في الوقت نفسه . فبينما نحن نعمل في قطعة ما ، يذهب الأولاد الى القطعة الأخرى ، يسرقون الزيتون ويبيعونه . فلا يملك جيل اليوم أخلاقاً ، ولا يشعر بالخجل . في السابق ، كان الشبان يستمعون الى الكبار ويطيعونهم ، ولكنهم اليوم لا يبالون بهم ، حتى الفتيات لا يتبعن السلوك السليم ولا يستمعن الى نصائح الكبار أيضاً . هل تتصورين أنه يوجد فتيات عربيات يعشن بمفردهن في الخارج ؟ يعشن في شقق بمفردهن ! ما هذا النوع من السلوك ؟ في أيامي ، كنا نخضع لأوامر الآباء ، والإخوة ، والأزواج ، وأمهات الأزواج ، لم تكن نعصي أحداً . لو حدث أن رغبت في زيارة شقيقتي المتزوجة ومنعني شقيقي من ذلك ، لم أكن أجروء على أن أطمء بقدمي خارج المنزل ، وكنت أرتعش من الخوف . وإذا سُمح لي بزيارة شقيقتي ، لم أكن أذهب بمفردي ، بل برفقة شقيقي أو والدتي . لم

يكن أيضا يحق لي اختيار شريك حياتي ، ففي تلك الأيام ، كان لابن العم الأفضلية على الغرباء ، وإلا تنشأ النزاعات والضغائن بين الأقارب . كان والدي متوفياً عندما تقدم (أبو عماد) لخطبتي ، وهو ابن عمي أيضا ، وكان شقيقي هو صاحب القرار . كنت في الثامنة عشر من عمري عندما تزوجت . ولم أخير في الموافقة أو الرفض) .

ثم نظرت إلى (أبو عماد) وقالت بشيء من المرارة : (أنا في منزلك ، وزوجتك وأم أولادك . ولكن لو كانت لي الحرية في اختيار شريك حياتي ، ما كنت لاتزوج شخصاً يكبرني بخمسة عشر عاماً . لقد تقدم الخطبتي من هم أكثر تقارباً من عمري ، وأكثر ثقافة) .

بقي (أبو عماد) صامتا . وقد بدا عليه الاستياء .

تابعت زوجته روايتها : (أما اليوم ، إذا تقدم أحدهم لخطبة ابنتي ، فإنها ترغب في مقابلته أولاً والتحدث إليه ، ثم يعود إليها القرار في الموافقة عليه أو رفضه ؛ لم يعد القرار لي أو لوالدها . فإذا وافقت عليه ولم ينجح الزواج ، يكون هذا على الأقل نتيجة قرارها . إن حرية اختيار شريك الحياة هي التغير الجيد الوحيد في القيم الاجتماعية التي يمارسها الجيل الجديد) .

احتجت (فاطمة) قائلة : (هل تعنين أن كل ما نفعله سوى ذلك هو سيء ؟) .

أجابت والدتها بتحدٍ : (نعم ، جميع مبادئكم الأخرى خاطئة) .

وجد في عيني (فاطمة) ، كشقيقتها الأكبر (عماد) ، عيب فطري ، بيد أنها فتاة قوية الشخصية وتملك الرغبة في مجاراة والدتها ، قالت : (إن النزاعات بيني وبين والدي مستمرة ، ولن يأتي أبداً اليوم الذي يستسلم فيه أحدهما للآخر . لن أتمكن مطلقاً من إقناع والدتي بقبول طريقتي في التفكير ، ولن أقبل طريقتها . لا سبيل للمقارنة بيني وبين

والدتي ، فعلى سبيل المثال ، تريدني أن أضع الغطاء على رأسي ، وأرتدي الشيايب الطويلة بأكمام طويلة ، ولكنني أرفض وأرتدي ما يحلو لي ، الأمر الذي لا يروق لها بالطبع .

قالت والدتها ساخطة : (أوه ، كم أتمنى أن تتزوجي !) .

قالت (فاطمة) ضاحكة : (إنها تستنكر تصرفي إذا تحدثت الى الشبان ، وتعتقد أنني إذا تحدثت الى أحدهم فهذا يعني أنني أحبه ، أو أننا سنفعل شيئاً مشيناً . أنا لا أفكر بهذه الطريقة ، فأنا أتحدث الى الشبان كما أتحدث الى الفتيات تماماً : على أساس متماثل ؛ ولن أكف عن حديثي مع الشبان لإرضاء رغبتها فقط ، فأفكارنا مختلفة جداً . من ناحية ثانية ، هناك بعض الأمور التي توقف والدي عن الاعتراض عليها بينما لا يزال آخرون يحرمونها على فتياتهم ، كالذهاب الى عكا أو الناصرة دون مرافق . ومن الأسباب التي دعتهم الى السماح لي بالسفر بمفردي حاجتهم لإرسالني من وقت لآخر لمتابعة بعض الوثائق التي تتعلق بأرض والدي . وكذلك لا يُسمح للفتيات بالخروج بمفردهن مساءً ، وعندما تقدمت لدورة إدارة الأعمال ، اعترضوا عليها لأن الدوام مسائي ، وقالوا إن هذا سيجلب العار للعائلة ، ولكنهما في الوقت نفسه يرغبان بتعليمي . لذا عندما قبلت في الدورة ، لم يكن أمامهما سوى الموافقة ؛ كنت أعود الى المنزل في التاسعة مساءً ، في الأسبوع الأول والثاني كانت والدتي تنتظر عودتي ، ولكنها اعتادت بعد ذلك على تأخري ولم تعد تشعر بالقلق . هناك ٠٠٠) .

انقطع حديث (فاطمة) بسبب وصول فتى صغير يرغب في شراء لبصل من (أم عماد) ، وأعطاه ورقة نقدية ممزقة بقيمة شيكل واحد .

فصاحت في وجهه : (أنا لا آخذ هذه الورقة ، اذهب واشتري البصل من الدكان) ورفضت أن تبيعه .

احتج الفتى قائلاً : (ولكن أرسلتني أمي !) .

- (هذا لا يهمني ، اذهب الى أحد غيري) .

غادر الفتى المكان ، ودمدمت (أم عماد) بكلام غير مسموع .

عادت (فاطمة) الى الحديث : (هناك هوة كبيرة بين جيل والديّ وجيلي ، حتى في لغة الوعي السياسي ، والطريقة التي نناضل وفقها للحصول على حقوقنا . فنضالنا أكثر تخطيطاً ، لأننا نستخدم طرقاً منظمة ، ونعرف كيف نستفيد من القانون في نضالنا من أجل قضيتنا . عندما كنت فتاة صغيرة في المدرسة ، لم أتلق أية معلومات عن التاريخ أو التراث الفلسطيني ، ولكن أذكر أنني كنت أسمع والديّ وغيرهم من الكبار يتحدثون عن اليهود وكيف أخذوا أرضنا ، وكيف أبعدوا آلاف الفلسطينيين . كان والدي قد أبعد الى الأردن مع الكثيرين من أبناء مجد الكروم وقرى أخرى ، ولكنه تمكن من التسلل عائداً عن طريق لبنان) .

قال (أبو عماد) : (نعم ، هذا صحيح ، فهذا وطني رغم كل شيء ، وماتزال زوجتي هنا . لقد خاف بعضهم من العودة ، وامسك اليهود ببعض الآخر ورموا بهم وراء الحدود) .

قال (مروان) الذي كان يحدق بعيداً وهو مستغرق في التفكير : (على الرغم من أن نظرة والدي تجاه الخسائر التي لحقت به والنكبة بشكل عام ، هي نظرة عاطفية أكثر منها سياسية ؛ إلا أنه لم يواجه كفرد أية مشاكل بخصوص هويته . فقد كان دائماً فلسطينياً ، ولم يشك في ذلك يوماً ، ولم ينشأ بين حضارتين كما حدث لأبناء جيلي ، إذ علينا أن نحارب ونكون اقوياء بحق كي لا نصاب بانفصام الشخصية ، أو نفرق في وسط الحضارة الإسرائيلية .

أذكر أنني عندما كنت في المدرسة الابتدائية ، كان من عادتنا أن نحفل بذكرى يوم الاستقلال ، فنذهب الى التلال ونقطف الأزهار لنزين

المدرسة . كنا نستمتع بذلك كأطفال ، ولم نكن نعرف سبب كل ذلك ؛ فالأمر بالنسبة لنا كان مجرد عطلة واحتفالات ، لم يخبرنا أحد أن هذا اليوم لا يحتفل به في الواقع ، فكنّا نحمل الأعلام الإسرائيلية ، ولم يخبرنا أحد بأنها ليست أعلامنا . تقبل البعض ذلك العلم وكأنه علمهم لأنهم يعيشون في دولة إسرائيل ، واحجم البعض الآخر نتيجة الخوف الشديد عن إخبارنا بأن هذا العلم لا يخصنا ؛ وكانت المدارس الثانوية تحتفل بيوم الاستقلال . ثم بدأ الناس في عام ١٩٧٥ يعترضون على هذه الاحتفالات ، فقد ظهر جيل جديد وكامل من المعلمين الذين ذهبوا الى الجامعة ونالوا من العلم والاطلاع أكثر مما ناله الجيل السابق ، لذلك قالوا : (انتظروا لحظة ، إنها ليست ذكرى استقلالنا ، إنها ليست مناسبة نحتفل بها نحن الفلسطينيون !) .

قبل عام ١٩٦٧ كنا نعتقد بأننا عرب إسرائيليون ، فتعلمنا لغتهم وعملنا لديهم . كنا نعلم بأننا نعامل معاملة غير عادلة ، ولكننا التزمنا جانب الصمت خوفاً من الترحيل . اختلطت الأمور في أذهان الناس ، فلم يعرفوا هل يقدمون ولائهم الى دولة إسرائيل أم الى أنفسهم باعتبارهم الشعب الفلسطيني . ولكن بحلول عام ١٩٦٧ أدركنا بأننا فلسطينيون ولا نرغب بمغادرة وطننا الذي أصبح دولة إسرائيل ، وأدركنا أيضاً أننا نملك هويتنا القومية الخاصة بنا ، ولكن دون حقوق متساوية ؛ لذا كان هدفنا النضال من أجل الحصول على حقوقنا . ثم وفي عام ١٩٧٦ - يوم الأرض - تعزز شعورنا بهويتنا لأننا أدركنا أنه بإمكاننا القيام بمظاهرات في سبيل حقوقنا ؛ ونستطيع أن نقول : لا ، لما يريد أن يفرضه علينا الإسرائيليون) .

قالت (فاطمة) : (إن قضيتي هي جزء من وجودي ، هناك بعض الفلسطينيين من أبناء جيلي الذين لا يعيرون أي اهتمام لقضيتهم ، وينحصر شغلهم الشاغل في قضاء أوقات ممتعة . أنا لست هكذا ، فأنا أريد العدالة ، وأريد الحصول على حقوقي .

كنت اعمل في مكتب أحد المستشارين القانونيين ، ولكنني اضطررت الى تغيير عملي بسبب ضعف نظري ، ثم وجدت عملاً في مصنع يهودي لمستحضرات التجميل ، حيث يوجد ست فتيات عربيات وأربع يهوديات ؛ أي ان عدد العرب يفوق عدد اليهود . وكان صاحب المصنع لا يدير جهاز المذياع إلا ليستمع الى الأغاني اليهودية ، لذا في يوم من الايام ، احضرت معي جهاز مذياع صغير لاستمع الى موسيقا عربية . وجلست في مكاني في الزاوية ، وأدبرت الجهاز بصوت منخفض جداً ، ولكنه لم يوافق على ذلك وامرني أن أعيده الى المنزل . أترين ، لم يأخذ بعين الاعتبار أن الموظفين العرب يرغبون بسماع موسيقا عربية من وقت لآخر ، فانا لا اريد الاستماع الى الأغاني او المسرحيات اليهودية طوال الوقت . فهم يفرضون علينا حضارتهم . سواء كنا نرغب في ذلك أم لا ؛ وإذا لم يعجبنا ذلك ، يقولون لنا : « اذهبوا الى بيوتكم ! » ليس هناك حل وسط . وإذا لم تكن سعداء بسبب شيء ما في العمل ، لا يهتمون على الإطلاق ، بل يقولون لنا : (إذا لم يعجبكم ذلك ، ارحلوا !) ماذا بوسعنا أن نفعل ؟ نحن مضطرون للعمل معهم .

انا شخصياً لا أدعهم يعاملونني بازدراء ، فإذا كنت أعامل معاملة غير عادلة ، فإنني على الأقل أعبر عن رأيي بحرية . فعلى سبيل المثال ، أخبر صاحب المصنع منذ عدة أيام الفتيات اليهوديات أنه بإمكان كل واحدة منهن شراء زوج من الأحذية على حساب العمل ، ولكنه لم يقدم عرضاً مماثلاً الى الفتيات العربيات ، علماً أن بعضهن يعملن قبل بعض الفتيات اليهوديات بفترة طويلة ، عندما سمعت بذلك الخبر ، قلت لزميلاتي العربيات : (لنذهب ونطالب بأحذية جديدة ايضاً ، يجب أن نحصل على حقوق تماثل تلك التي تحصل عليها الفتيات اليهوديات) . إلا أنهم رفضن ، وشعرن بالكبت والخوف لأنهن لم يتعلمن كيف يطالبن بحقوقهن ، فقررت أن اذهب الى صاحب العمل بمفردي ؛ ففي أسوأ الحالات لا شيء أخاف فقدانه ، فكل ما كان علي أن أتحملة هو الرفض ، ولكنني على الأقل أكون قد بذلت جهدي للحصول على حقوقي ، وسأنتهي

زميلاتي ان اتحدث نيابة عنهن ايضاً ، ولكنني اخبرتهن انهن يجب ان يملكن الشجاعة للتحدث عن أنفسهن . وعندما قابلت صاحب المصنع وطالبته بالمال لشراء حذاء جديد ، قال إنه لا يوجد قانون يجبره على فعل ذلك . وبعد نقاش دام برهة من الزمن ، وافق أخيراً على طلبي . ولم تطالب زميلاتي العربيات بحقوقهن ، فلم يحصلن على شيء . فيجب علينا أن نطالب بحقوقنا ، لأنهم لن يقدموها لنا بملء إرادتهم . إن اندلاع الانتفاضة أمر جيد ، ربما إذا ناضل جميع الفلسطينيين بطريقة واحدة ، يمكن عندئذ أن نصل الى حل ، يجب أن لا نخشى النضال من أجل حقوقنا ، لو كان الجيل السابق أكثر تنظيماً وكان لديه الوعي الذي يتمتع به جيل اليوم ، ربما لم تكن قد وصلنا الى الوضع الذي نحن فيه الآن) .

علق (أبو عماد) بلهجة تنم عن شيء من السخط : (اصبح الناس اليوم أكثر وعياً) .

قال (مروان) : (لم يتم نمو وعي حتى وصلت الى الجامعة . في البداية لم أكن أرغب بالالتحاق بالجامعة هنا ، بل أردت الذهاب الى إيطاليا أو أمريكا الدراسة فن التصوير السينمائي أو المسرح . إلا أن والذي اعترضاً ، وخاصة أن من يتكلف عناء الذهاب الى الجامعات في الخارج يدرس الطب أو القانون وليس السينما أو المسرح . وهكذا رفض والذي طلبني ، فاضطرت للإذعان إليهما لأنني ، وفي العام الأول على الأقل ، كنت سأحتاج الى الدعم المادي ، وما كانا سيوافقان على تقديمه لي ؛ لذا انتهى بي الأمر في جامعة القدس حيث حصلت على شهادة البكالوريوس في علم الاجتماع . أذكر أنني في اليوم الذي غادرت فيه القرية للالتحاق بالجامعة دعنتني والدتي بجانبها وقدمت لي بعض النصائح : (ابتعد عن السياسة ، واحذر الفتيات) . ولكن لحسن الحظ ، أو ربما لسوءه ، تورطت مع الفتيات وفي السياسة أيضاً ؛ إذ انضمت الى حركة الطلاب ، وحضرت الاجتماعات السياسية ، وشاركت في المظاهرات ، واعتبرنا أنفسنا جميعاً المحررين المنتظرين لشعبنا .

وفي العام الدراسي الثالث تعرفت على بعض الطلاب المشاركين في مجموعة مسرح الحكواتي ، فانضمت إليهم ، ولكنني أيضاً تابعت دراستي . بعد البكالوريوس ، حصلت على الماجستير في علم الجريمة وتابعت مهنة التمثيل في الوقت نفسه . عندما أنهيت دراستي كانت هناك وظيفة شاغرة في مكتب الشؤون الاجتماعية . فتقدمت إليها وقبلت . كان العمل يبدأ في الثامنة صباحاً ، ولم أكن قد اعتدت على الاستيقاظ في ذلك الوقت المبكر منذ أيام المدرسة . لذلك ضبطت المنبه على الساعة السابعة صباحاً ، واستيقظت بطاعة كاملة ، واغتسلت وحلقت ذقني وتوجهت الى العمل كبطل فاتح . وهناك قدموا لي فنجاناً من القهوة ، ثم استدعاني المدير وقال : (أعتقد أنك تعمل في مسرح الحكواتي ؟) .

أجبت : (نعم ، وأعتقد أنك رأيت مرة إحدى مسرحياتنا ، هل أعجبتك ؟) .

فقال : (يعجبني ما يقدمه الحكواتي ، ولكن لا يمكنك العمل هنا ومع الحكواتي في الوقت نفسه . أعطيك أسبوعاً لتقرر) . حسناً ، عملت في المكتب مدة ساعة واحدة ، ثم غادرت ولم أعد ثانية . وهم يدينون لي بأجرة ساعة عمل واحدة . كان اتخاذ القرار أمراً سهلاً بالنسبة لي لأن العمل في المكتب لم يكن من أجل اتخاذ مهنة لي ، بل كان محاولة لاكتساب المزيد من المال ، والمهنة التي كنت أرغب بها فعلاً وما أزال حتى الآن هي العمل في المسرح . هل تعرفين أنني أحياناً عندما أشعر بالاكئاب ، أقول لنفسي : (ما الذي أفعله في المسرح ؟ لم لا أعمل في المجال الذي تخصصت به في الجامعة ؟) ولكنني أفكر في الأمر برهة ، ثم أقول : لا ، لا أستطيع أن أتحمل العمل في مكتب من الثامنة صباحاً وحتى الثانية بعد الظهر ، غارقاً وسط مئات الملفات .

بالطبع لا يشعر والدي بالرضى على ما أقوم به ، فهما لا يريدان أن أصبح عاملاً ، إلا أنهما بالتأكيد لا يرغبان أن ينتهي بي الأمر في المسرح . كنا يفضلان أن أحصل على شهادة في الطب أو التعليم ، ثم أعود للعمل في

مجد الكروم . وبما أنني لم أحصل على شهادة في أيّ من هذين المجالين لذا فهما يحبذان عودتي الى القرية بعد الجامعة للعمل في الأرض الى جانب والدي . انا لا أمانى في مساعدتهما من وقت لآخر ، ولكنني بالتأكيد ان اتخذ من الزراعة مهنة لي طوال حياتي . على أية حال ، لا يمكن جني الكثير من المال من العمل في الزراعة ، وخاصة باستخدام الاساليب البدائية التي يستعملانها . وتبقى كمية المحصول محدودة لأنهما لا يستعملان الريّ ، بل يعتمدان على المطر . لا يسعني العيش بهذه الطريقة ، ولا أريد أن أسير على خطاهم ، بل أرغب أن أعيش حياتي الخاصة وأفعل ما يحلو لي . يأمل والديّ أن أعيش وفق توقعاتهما ، وأنا أريد أن أعيش بطريقتي الخاصة ، لذا ماذا يجب ان أفعل في هذه الحالة ؟ فانا ابن قرية محافظة ، وينتظر مني احترام العائلة والمسنين والتقاليد . لذا وبما أنني أمارس المهنة التي أريد ، أبذل من ناحية ثانية جهداً استثنائياً للتوصل الى تسوية حيال الأمور الأخرى . فأحضر الى القرية كل أسبوعين أو ثلاثة ، وأساعد عائلتي في أعمال الأرض مدة يومين ، وأقوم بواجباتي الأخرى ، ثم أعود الى عالمي .

في الواقع حدث تغير كبير في قرية مجد الكروم ، ففي الماضي كانت معالم الحياة المشتركة أكثر وضوحاً ، فلم يكن الناس يكتفون بمساعدة بعضهم بعضاً في أعمال الأرض ، بل في مختلف جوانب الحياة . أما اليوم ، فالذين يعملون يذهبون الى المدن ، وكل ما يشغلهم هو كسب المال ؛ أما الروابط التي تصلهم بالجماعة فتدور بشكل رئيسي حول طقوس الولادة ، والزواج والموت ، ويوجد بالطبع من ناحية ثانية عدد كبير من الشبان العاطلين عن العمل ، والذين يقضون أوقاتهم بالتجول في شوارع القرية أو المدن . وهم يشعرون بالضيق في جوانب عديدة ، فبينما يعرفون تمام المعرفة بأنهم فلسطينيون ، إلا أنهم يقعون فريسة الحصار الاسرائيلية . أذكر حتى الآن كيف أنني صارعت هذا التأثير وتمكنت من التغلب عليه .

ولا يتمكن هؤلاء الأحداث ، الذين يقضون جل أوقاتهم في الشوارع ، من التغلب بمفردهم على الحضارة اليهودية ، لذا قررت أنا وعدد من شبان مجد الكروم أن تؤسس نادياً ثقافياً لتطوير الوعي حول التراث والحضارة الفلسطينيين ، ولكي نعطي للشبان هدفاً في الحياة . والمجالان الآخران المتاحان في القرية هما نادي الرياضة ونادي الهستدروت ، الذي يعلم 'لغتيات مبادئ الخياطة . أما بالنسبة للرياضة ، فهي لا تفي بحاجتنا الثقافية ، فمن الممكن أن يتغلب شباننا على الشبان اليهود في مباراة أو أخرى ، ولكن ماذا بعد ذلك ؟

يجب أن يتوفر لدى الشبان وسيلة تمكنهم من التعبير عن أنفسهم كفلسطينيين ، والطريقة المثلى لذلك لا تتم إلا من خلال النشاطات الثقافية : الموسيقى الفلسطينية ، الرقص ، المسرحيات والمحاضرات . قمنا باستئجار غرفتين ، وتمكننا من الحصول على الدعم المادي من منظمة مستقلة غير حكومية ، وسنؤسس ورشات عمل من أجل المسرح والرقص والموسيقى الفلسطينية . وسنؤلف مجموعة دائمة ونلقنها مبادئ الإخراج والتمثيل والتأليف المسرحي ، حتى تصبح مجموعة مستقلة وبإمكانها التجول وتقديم الأعمال المسرحية في أرجاء البلاد ، وسنوجه دعوة إلى بعض الشخصيات الأدبية وغيرهم لأعطاء محاضرات أسبوعية . وسيؤدي كل شخص عمله بشكل طوعي ، إلى جانب وجود مدير براتب محدد للإشراف على النادي . وبما أنني أعيش في القدس ، ولديّ عملي في مسرح الحكواتي ، لا أستطيع تخصيص وقت كامل للعمل هنا في النادي ، لذا من الضروري وجود مدير لا يكون كفوفاً فحسب ، بل مهماً أيضاً بنشاطات النادي . حالياً لا يوجد أية نشاطات بسبب قيامنا بطلي الفرفتين لانهما بحاجة ماسة لذلك) .

نظر (مروان) إلى ساعة يده وقال بأنه يجب أن يذهب ليري أحد أبناء عمه .

عاد الفتى الصغير الذي كان يريد أن يشتري البصل برفقة والدته التي سألت (أم عماد) : (لماذا لم تبعيه البصل ؟) .

اجانب (أم عماد) : (لا آخذ الأوراق النقدية القديمة والممزقة) .

قالت الامراة : (حسناً ، لقد أحضرت لك نقوداً جيدة) .

تنحنحت (أم عماد) وذهبت لاحتضار البصل .

قام (مروان) بواجبه تجاه عائلته وأمضى يومين في القرية : عاد بعدها بسيارته الى عالمه الخاص ، ولكنه لم يتجه الى القدس بل الى (سخنين) ، وهي قرية أخرى تقع في الجليل ، حيث سيلتقي ببقية أعضاء جماعة الحكواتي ليقدموا مسرحية تدعى (تغريب العبيد) . فالى جانب العروض العديدة التي قدموها في القدس ، قاموا أيضاً بزيارة عدد آخر من القرى والمدن في أنحاء البلاد بهدف تقديم أعمالهم الفنية . وأخذوا يومين للراحة قبل إنهاء جولاتهم في (سخنين) ، حيث استأجروا قاعة يستخدمها أهالي القرية الأغنياء للاحتفالات ، ولإقامة المناسبات الاجتماعية الهامة الأخرى . وحالما نصب أفراد المجموعة خشبة المسرح، توافد أهالي القرية من مختلف الأعمار ، وأخذ البعض منهم يراقب سير العمل وي طرح الأسئلة ، والبعض الآخر يقدم يد العون .

قال (مروان) : (نحب أن يهتم الناس بنا ويقدموا لنا المساعدة، ونحب أن يشعروا بالتماثل معنا ، فمعظم مسرحياتنا ترمز الى الحالة التي نعيش فيها كفلسطينيين . لقد تأسست جماعة مسرح الحكواتي عام ١٩٧٧ ، وتعتمد المسرحيان المقدمة على التجارب الاجتماعية والسياسية لأفراد الجماعة ، وكذلك تجارب أشخاص آخرين . وتعتبر تلك المسرحيات عن القومية الثقافية الفلسطينية ، متخفية تحت قناع الرمزية لتجنب غضب المراقبين الذين واجهنا معهم بعض الصعوبات في الماضي . وتتطلب عملية إخراج مسرحية ما المشاركة الفنية والابداعية

لكافة أفراد المجموعة ، ويمكن أن يكون بعض الممثلين غير دائمين ، بل يتم استخدامهم لقاء أجر معين لمسرحية محددة) .

وعندما بدأ الناس من مختلف الاعمار يتوافدون لحضور المسرحية ضجت الصالة بثرثراتهم وهم يترقبون خروج الممثلين والممثلات . تدور أحداث المسرحية حول عدد من العمال الفلسطينيين في مهن مختلفة 'اجتمعوا سوية أثناء احدى الاجازات لتقييم اوضاعهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وكانت المسرحية هزلية ومأساوية في وقت واحد ، واثت مشاركة الجمهور تلقائية : فضحكوا ، وحيوا الممثلين الناجحين ، وسخروا من الفاشلين . وعندما انتهت المسرحية ، تقدم بعض أفراد الجمهور وهنئوا الممثلين والممثلات ، بعد أن استمتعوا بالأمسية بشكل كامل .

حرمت المجموعة أمتعتها وتوجهت نحو القدس في وقت متأخر من الليل . كان (غسان) ، وهو أحد الممثلين المأجورين للتمثيل في تلك المسرحية ، يشعر بالقلق لأنه قدم من الضفة الغربية ، وقد حل الظلام ولم يعد بإمكانه أن يجد وسيلة تنقله الى منزله . فالسلطات لا تسمح لسكان الضفة الغربية وغزة أن يقضوا الليل في القدس ، أو أي قسم آخر من منطقة ٤٨ . ولكن بما انه لا يستطيع العودة الى منزله مشياً على الأقدام ، لذا لم يعد أمامه من خيار سوى البيت عند (مروان) .

وصل (مروان) الى المسرح حوالي منتصف النهار ، كان البناء في السابق داراً للسينما ، ويقع في زقاق مسدود . قال (مروان) : (أنا مسرور لعودتي ، ولكن أستطيع أيضاً أن أقول إن الحياة في القدس لا تختلف كثيراً عنها في مجد الكروم ، وهي لاتشبه الحياة في نيويورك أو باريس : فالقدس تشبه قرية كبيرة ، والفارق الرئيسي بالنسبة لي هو أنني في القدس أعيش على هواي ، أذهب وأعود كما أريد ، وأتحدث مع من أريد ، ولا أقيد نفسي بالواجبات والالتزامات ، فأنا غير ملزم بإقامة

العلاقات الاجتماعية مع الأقارب والجيران . ساذهب الآن إلى اجتماع
لمناقشة مسرحية من تأليفي) .

واندفع مسرعاً ، تواقاً للعودة إلى الحياة التي لم يستطع والداه
تقبلها .

خلال عام واحد ، فقدت (أم عماد) قدرًا لا بأس به من وزنها بسبب
معضلة قلبية . كانت تجلس في الشرفة بعد أن عادت من حفل زواج أحد
الأقارب . بدلت ألبنتها الكبرى ، التي كانت برفقتها أيضاً ، ثيابها ،
وبدأت تعجن الخبز . قدم أحدهم وطلب من (أم عماد) شراء قليل من
البامية ، فأحضرت له ما طلب ، وقامت بوزنه وقدمته له . ثم جلست
وهي تقول : (لم أمد أستطيع العمل كالسابق بسبب صحتي) .

بعد برهة وجيزة ، عادت (فاطمة) من الحفل ، ورمت والدتها
بنظرة صارمة ثم قالت : (لماذا غادرت مبكراً ؟ ولماذا كنت صامتة
طوال الوقت ؟)

اجابت والدتها : (لم أكن سعيدة) .

قالت (فاطمة) غاضبة : (لم يعد يسعدك شيء) .

اجابت (أم عماد) : (الا حفل زواجك) ، ثم أضاعت ابتسامة
وجهها وهي تقول : (منذ بضعة أيام ، أخبرني (مروان) أنه عندما يقرر
الزواج سيختار إحدى فتيات القرية ، ولن يتزوج من فتاة غريبة .
الامر الذي أسعدني كثيراً لأنني كنت دائماً أفكر بأنه ، وبسبب أسلوب
حياته ، سينتهي به الامر إلى الزواج من فتاة غريبة) .

وصل بعض الأقارب : رجل زوجته في العقد الثامن من العمر .

سألت (أم عماد) فاطمة : (أين والدك ؟)

أجابت (فاطمة) : (ما يزال في الحقل) ، ثم تابعت تقول : . كان العام المنصرم قاسياً على والذي لأن المحكمة لم تحدد بعد مصير دونماته الثلاثين . لذا قرر أن يزرع القمح طوال فترة بقاء القضية في المحكمة ، ونفذ قراره بالفعل ، وكان يتردد من وقت لآخر للاطمئنان على حالة المحصول . وعندما ذهب للحصاد وجد أن السلطات قد قامت بالمهمة بدلاً عنه قبل الأوان ، وتلف المحصول بكامله . فتضايق كثيراً ، بل اجتاحه غضب جامح) .

قالت السيدة العجوز التي وصلت منذ قليل مقتبسة كلامها من قول مأثور :

هل يمكن للحجر أن ينبت أوراقاً ؟

هل يمكن للسبك أن يعيش خارج الماء ؟

ثم أضافت : (من كان يظن أننا سنصاب بتلك الكارثة ؟ من كان يظن أنه سيأتي يوم نفقد فيه أرضنا ؟ ولكن كل شيء يعتمد على القدر ، ولا يعرف أحد ماذا يخبئ لنا القدر) .

قال زوجها : (كنا في الماضي نملك ٣٦ دونماً ، والآن ضاع كل شيء . صحيح أننا لم تكن سعداء تحت الحكم التركي أو البريطاني ، فقد كان الأتراك وحوشاً ، جعلونا نتضور جوعاً ، وكذلك كان حال البريطانيين . إذ كانوا يجبرونا على السير لمدة أميال ونحن نحمل أكياس الرمل الثقيلة ، وفرضوا علينا الضرائب الباهظة ، حتى أن بعض الفلاحين اضطروا إلى بيع أراضيهم لدفع الضرائب . ولكن مهما فعل الأتراك والبريطانيون إلا أنهم لم يسرقوا أرضنا ووطننا ، اليهود فقط سرقوا أرضنا وأجبروا الناس على الرحيل عن وطنهم . لقد تشتت شعبنا ، فلدينا أقارب في لبنان وسوريا والخليج وحتى النرويج) .

قالت زوجته (الحياة اليوم قاسية ، انعدمت فيها السعادة والمودة ، وأصيب الناس بقلّة الاحتمال والانانية ، حتى اولادنا تعلموا الانانية) .

ثم التفت العجوزان نحو (أم عماد) وأخذا يتكلمان عن بعض الأقارب . بعد أن غادرا دخلت (أم عماد) وابنتها الكبرى الى داخل المنزل ، وبقيت (فاطمة) في الشرفة ، فأطلقت زفرة عميقة وهي تقول : (لا يستطيع المسنون نسيان الماضي) .

وحدقت إلى الهضاب وأضافت : (على الرغم من أنني أعيش في كنف عائلتي ووسط أقاربي ، إلا أن الحياة يمكن أن تكون موحشة أحيانا . فلا أستطيع أن أشاطر المسنين أحلامي وأفكاري لأنهم يعيشون في عالم مختلف ، وعندما يتسنى لي الاتصال مع أبناء جيلي ، أجد أن الكثير منهم لا يهتمون سوى بجمع المال أو الزواج . ربما كان (مروان) الشخص الوحيد القريب مني لقد عاد منذ فترة قريبة من هولندا وألمانيا حيث قاموا بجولة لعرض مسرحيته ، وأتى لزيارتنا منذ يومين) .

كان (مروان) في القدس يحاول تنظيم جولة ثانية ، ولكن هذه المرة إلى إنجلترا .

قال (مروان) : (إن المسرحية التي انتهيت من كتابتها العام الماضي تم تمثيلها هنا ، وقمنا بعرضها منذ فترة قريبة في ألمانيا وهولندا ، وتدعى (الطيور) . تضم المسرحية ثلاث شخصيات : الصياد - الذي أقوم بتأدية دوره - وخادمه العجوز ، وشاب في مقتبل العمر . الصياد هو الشخص الظالم الذي لا يكتفي بقتل الطيور ، بل أي شخص يتجرأ على معارضته . أما الخادم العجوز فهو يذعن لطلبات الصياد مهما كانت ، فهو شخص سلبي ويملك عقلية الضحية . ويمثل الشاب الجبل الجديد الثائر . لاقت المسرحية نجاحاً منقطع النظير ، وتلقينا بعض الملاحظات النقدية البناءة منها :

[تعتبر مسرحية « الطيور » خرافة سياسية صريحة - وغامضة - في الوقت نفسه ... يبدو أن مسرح الحكواتي قد تفوق في تحقيق شيء توانى المسرح اليهودي في إسرائيل عن تحقيقه بشكل كبير وهو : الاستيلاء على عواطف جمهوره . ويتجلى بعمق التزام الممثلين العاطفي في انتاجهم الاخير للمسرحية الفلسطينية المبدعة « الطيور » . فنراهم وهم يفوضون عميقاً داخل انفسهم لتشكيل صلة بين تجربتهم الشخصية وأحداث المسرحية] .

(صحيفة الأمة - ١٩٨٨)

[تعتبر مسرحية « الطيور » - وهي قصة رمزية عاطفية محفوفة بالثورة وارتباطها بالموضوع - مسرحية شعبية ومفروضة بالقوة كما هي الانتفاضة] .

(صحيفة الفجر - ١٩٨٨)

قال مروان : (لسوء الحظ لم يتحقق النجاح في مختلف المجالات ، فبسبب انشغالي العام الماضي في المسرحية ، لم اكرس الوقت الكافي للنادي الثقافي في القرية . وعندما عدت من الخارج وجدت ان المدير الذي استخدمناه لم يقم بمهامه على الوجه الاكمل ، وقام أعضاء أحد الأحزاب السياسية باحتكار النادي وأرادوا فرض بصمتهم الخاصة على نشاطاته الثقافية . فقد سيطروا على سبيل المثال على مجموعة موسيقية قمنا بتشكيلها مسبقاً وأرادوا أن يطلقوا عليها اسما يجعلها تتطابق مع حزبهم . كذلك كنت قد اقنعت والذي بالسماح له ببناء منصة مكشوفة فوق قطعة من أرضه ، ولكنها تحولت أيضاً الى استعمالات سياسية ، وأراد أعضاء الحزب استخدامها لأغراضهم الخاصة . فوضحت لهم بأن الفكرة الرئيسية كانت ايجاد نادٍ ثقافي مستقل يفتح أبوابه أمام كل شخص ، ولا ينتسب الى أي حزب أو جماعة من الناس . حسناً ، اعتزم عاجلاً العودة الى القرية لتسوية كافة الأمور ، وانوي أيضاً تسليم إدارة شؤون النادي الى لجنة قوامها شبان من القرية ، وسأبقى المشرف العام .

من الضروري إيجاد نواد ومراكز ثقافية لتشجيع تطوير هويتنا ووعينا ، وإذا أصبحت هذه المراكز تابعة لأي حزب سياسي ، فإنها تفقد عندئذٍ مظهرها الثقافي . يجب أن نناضل ضد تأثير الحضارة الاسرائيلية ، وإلاّ فإننا سنفقد تراثنا وهويتنا . وكما قلت في السابق ، لقد كافحت ضد ذلك التأثير ، ونجحت في التغلب عليه . في الواقع ، منذ حوالي أربع أو خمس سنوات مضت اتخذت قراراً جازماً بالاّ أستعمل كلمة عبرية واحدة عندما أتحدث اللغة العربية . وفي إحدى المناسبات ، كان أعضاء مسرح الحكواتي في اجتماع مع بعض اليهود المتطرفين الذين يتكلمون العبرية فقط ، فقررنا الاستعانة بشخص يترجم لنا من العبرية الى العربية ؛ علماً بأننا نحب جميعاً اللغة العبرية . وبعد انتهاء الاجتماع ، ذكر أحدهم كلمة باللغة العبرية ، فصعق اليهود من الدهشة ، وصاح أحدهم : (يا إلهي ، إنكم برغم كل شيء عربنا نحن !) .

يختلف الآن نضالنا الى حد كبير عما كان عليه عام ١٩٤٨ ، فقد حدث تغيير هائل في مختلف الأمور منذ تلك الأيام . وأجد أن بعض الفلسطينيين الخارج يعيشون في عالم حالم ، ويعتقدون أن الحياة هنا لم تتغير منذ عام ١٩٤٨ . يعيش خالي في لبنان ، وقد التقيت ابنه في أوروبا ، وأخبرني أن والده ما يزال يعتقد بأن مجد الكروم لم تتغير منذ عام ١٩٤٨ . ويحب ابن خالي هذا أن يستمع الى حكايات الماضي ، ولكنه يتطلع أيضاً الى المستقبل . ويعرف بأنه ربما لن يتمكن من العودة إطلاقاً الى مجد الكروم ، لذا يبقى الخيار الآخر بالنسبة إليه إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة .

يعتبر بعض الفلسطينيين الذين يعيشون في الخارج أن حياة الفلاح رومانسية وحالة ، إلا أن حياة الفلاح في الواقع قاسية وشاقة ولا نريد أن نعود الى مثل هذه الحياة ، أو الى التفاليد التي لم تعد تخدم قضيتنا . ولا نريد أن نعود الى عقلية الضحية . وأشعر أحياناً بغضب

شديد عندما اجد ان بعض الفلسطينيين في الخارج ، وخاصة المثقفين منهم ، يمتقدون أنهم يعرفون أكثر مما يعرف الناس الذين يعيشون هنا . فهم يحلمون بتحرير فلسطين ، الأمر الذي لم يعد واقعياً على الإطلاق ؛ فهم لا يعرفون الحقيقة ولا يريدون تقبلها) .

لقد عبر (مروان) عن ضجره من المسنين ومن الحاليين في شخصية الشاب التي رسمها في مسرحية « الطيور » .



الفصل الثامن

العامل الاجتماعي : أديب في يافا

(لقد أصبحت يافا أما للغريب ، فهي ترحب به وتطعمه ،
في حين تهمل أبناءها وتتركهم يتضورون من الجوع) .

رياض (والد أديب)

تبعد مدينة يافا حوالي ٦٥ كم شمال غربي القدس ، ويتألف سكانها من العرب واليهود . ويافا بخلاف عكا ، مدية ممتدة في غير نظام ، وقد فقدت الابنية القديمة المتلاشية الوقار والجمال اللذين ما يزالان موجودان في عكا القديمة . في يافا يتقلب الملل من أسلوب الحياة المضطهد على كل ما كان جميلاً ، ففصول الصيف المشبعة بالرطوبة الحارة تسبب الضجر ، وفي فصول الشتاء القارسة يسود تجهم مقيت .

يبلغ عدد السكان العرب في يافا ، وفق احدى الاحصائيات ١٠.٠٠٠ نسمة ، في حين تذكر احصائية أخرى بأنه ١٨.٠٠٠ نسمة . ويعيش العرب بشكل رئيسي في منطقتين : العجمي وجاليا . ويشكل الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين عاما حوالي ٦٧٪ من العدد الاجمالي ، وتعيش حوالي ٧٨٠ عائلة في أوضاع فقيرة ومكتظة .

وتعتبر المدينة جزءا من بلدية تل أبيب ، ويعتقد السكان العرب بأن البلدية تريد تحويل المناطق العربية الى يهودية ، كما ترغب بتحويل الموانئ الى اماكن سياحية ، فتحرم الصيادين العرب من أسباب

معيشتهم . ويقولون بأن سياسة الإهمال التي تتبعها السلطات تهدف إلى جعل حياة الناس في تلك المنازل مستحيلة ، فيضطرون في النهاية إلى الرحيل .

(أديب) شاب ممتلئ الجسم ، قصير القامة وقوي البنية ويبلغ السابعة والثلاثين من عمره ، متزوج وله ثلاثة أطفال : فتاة في العاشرة والنصف من عمرها ، وصبي في السابعة من عمره ، وطفلة في شهرها الثامن عشر . وهو عامل اجتماعي ، وعضو في جمعية عرب يافا ، وعضو أيضاً في المركز الثقافي الذي يعتبر فرعاً من الجمعية ، ويقوم كذلك بتنظيم رحلات سياحية إلى مصر . تبدأ ساعات عمله كعامل اجتماعي من ٧:٣٠ صباحاً وحتى ٣:٣٠ بعد الظهر ، يعود بعدها إلى المنزل لتناول طعام الغداء والراحة . ويذهب في حوالي الخامسة بعد الظهر إلى المركز الثقافي ويبقى فيه حتى الثامنة مساءً ، أو ربما أكثر ، حسب النشاطات اليومية . وهو شخص لطيف ويراعي مشاعر الآخرين الذين يتعامل معهم .

يعيش (أديب) في منطقة العجمي مع عائلته ووالديه في منزل قديم مبني على الطراز العربي كان فيما مضى فيلاً واسعة يملكها شخص فلسطيني غادر البلاد عام ١٩٤٨ . ومنذ ذلك الوقت تم تقسيم المنزل إلى ثلاثة أقسام منفصلة، ومدخل مشترك، ويفصل بين كل قسم جدار . يشكل القسم الذي يعيش فيه (أديب) نصف المنزل ، ويضم ثلاث غرف ومطبخ وحمام . ويعيش والد أديب في ربع المنزل وتعيش عائلة غربية في الربع الآخر . وهناك حديقة أمامية محاطة بسياج يستعملها كل من (أديب) وأهله .

كان (أديب) يجلس في الخارج هرباً من الجو الخانق داخل المنزل قال وهو يشرح وضع المنزل:

(نملك هذا المنزل بالاشتراك مع شركة حكومية كانت قد استولت على أملاك الغائبين ، ونعيش في منطقة العجمي منذ عام ١٩٧٠ ، وقبل ذلك كنا نقطن في منطقة أخرى، ولكن السلطات صادرت منزلنا وأرغمتنا على الخروج منه ، كما فعلت مع سائر العرب ، والانتقال الى منطقتي العجمي وجباليا ، اللتين أصبحتا بشكل فعلي احياء عربية) .

يدعى والد أديب (رياض) ، وهو رجل مرح ومفعم بالحيوية والنشاط، ويبلغ الثانية والسبعين من عمره. انتهى من عمله اليومي في دكان البقالة الذي يقع عند مدخل الحديقة ، فجلس بجوار ابنه وأصغى بانتباه . عندما انتهى (أديب) من حديثه ، قال رياض : (عندما تزوجت بنيت لنفسى منزلا يتألف من ثلاث غرف فوق أرض تعود ملكيتها لعائلة فلسطينية ، وكنت أدفع لهم بدل الإيجار . وعندما استلم اليهود حكم صادروا الأرض ودمروا منزلي ومنازل الكثير من العرب) .

قال (أديب) : (حتى عام ١٩٨٧ كانت سياسة البلدية تهدف الى تدمير المنازل في المناطق العربية ، بحجة أن الابنية متداعية والسكن فيها يشكل خطورة على ارواح قاطنيها . وبذلك تم تدمير العديد من المنازل ، ويرغبون بتدمير المزيد لفسح المجال أمام الابنية والشقق الفخمة التي يبنونها اليهود . وبالطبع لم تأخذ جميع هذه الخطط السكان العرب بعين الاعتبار . بل كان هدفهم المطلق طرد السكان العرب من يافا . في الواقع ، لقد قال رئيس مجلس البلدية بصراحة ودون تحفظ . بأنه لا يرى سببا لاستمرار وجود العرب في يافا ، ويجب حسب رايه ، ان يذهبوا للعيش في اللد أو الرملة أو المثلث . فأصدرت الجمعية مقالة نقدية شديدة اللهجة حول كلامه هذا ، مما اضطره للتراجع عن ملاحظاته .

ثم قامت الجمعية برفع دعوى في المحكمة ضد البلدية والمسؤولين عن تخطيط المدينة لايقافهم عن تدمير ما تبقى من المنازل العربية . وفي نهاية عام ١٩٨٧ أصدرت المحكمة قرارها لصالح الجمعية ، وأدركت السلطات

بأنها لن تستطيع اخراج العرب من يافا . فقد أمضينا هنا حياتنا كلها وكذلك فعل آباؤونا وأجدادنا من قبل . وأدركوا الآن أننا غير مستعدين للاستسلام لهم ، وأننا سنتابع نضالنا للحصول على حقوقنا . وقد بذلت الجمعية مجهودا كبيرا لترميم المنازل العربية ، فلم تترك للبلدية عذرا لطرد العرب منها) .

ننقطع حديث (أديب) بسبب وصول والدته (سامية) ، التي وضعت على الطاولة طبقا يحوي بعض المرطبات . (سامية) امرأة جذابة في الواحد والستين من عمرها، وتتمحور حياتها كلها حول عائلتها تابع (أديب) قائلا : (وماتزال الجمعية تشجع العرب على عدم الازدعان لتهديد السلطات للرحيل ، يجب أن نشجعهم على النضال للحصول على حقوقهم) .

قال (رياض) : (كان العرب واليهود قبل عام ١٩٤٨ يصطدمون في مناوشات عرضية ، ولكننا بشكل عام كنا نعيش بسلام جنباً الى جنب . ثم قام البريطانيون بتدليك الجرح بالملح ، وأضرموا النار بيننا . انظري الى الوضع السيء الذي نعيش فيه الآن ، لقد أصبحت يافا أما للغريب ، فهي ترحب به وتطعمه ، في حين تهمل أولادها وتتركهم يتضورون جوعاً) . وأشعل لفافة تبغ وحدق الى الأرض بحزن .

انضمت (سامية) الى الحديث وقالت : (اذكر كيف أنني اضطرت الى مغادرة يافا عام ١٩٤٨ ، كان عندي ولدان في ذلك الوقت ، وطفلة في شهرها الرابع . بدأ الناس ينزحون عن المدينة ، فأرسلت ابني الكبير الى جدته لآبيه ، وأرسلت ابني الثاني الى والدتي ، ورفضت أن أترك زوجي وأرحل ، لذا بقيت الى جانبه مع طفلي . ولكن عندما رحل جميع الجيران ، قال لي زوجي : (لا يمكنك البقاء هنا بعد الآن ، أنا رجل وأستطيع الاعتناء بنفسى ، ولكنك امرأة ومعك طفلة ويجب أن

ترحلي » لذا اضطررت الى الرحيل والتجأت الى والدي زوجي في
« بير زيت » مسقط رأسه .

واغلقت السلطات جميع الطرقات والمعابر . ولم يتمكن انا وزوجي
من رؤية بعضنا البعض سوى في عيد الميلاد ، ثم تمكن في نهاية الامر ان
يرسل لي الوثائق اللازمة التي تمكنني من العودة . الا ان والده ، وهو
خالي ايضا ، رفض ان يسمح لي بالعودة لانه كان قد سمع عن الاعمال
الوحشية التي كان يرتكبها اليهود ضد العرب . وحدث ان مدير الصليب
الاحمر كان صديقا لشقيقي ، فأقنع خالي بعودتي واعدا اياه بأنه
سيضمن شخصيا وصولي سالمة . وهكذا غادرت مع ولدي ، اذ كانت
ابنتي قد توفيت أثناءقامتي في « بير زيت » . كان هناك خمس حافلات
ممتلئة بالعائلات العائدة الى يافا ، وفي الطريق توقفنا وقطفنا الازهار
وقمنا بتزيين الحافلات احتفالاً بعودتنا .

وعندما استقرت بي الإقامة في يافا ، كان يسكن بجواري يهود من
المغرب والعراق وبولونيا وكنت ودودة معهم ، الا ان الاولاد كانوا
يتخاصمون على الدوام . فكان الصبية اليهود يقولون لاولادي : « اذهبوا
الى الاردن ، هذا ليس بلدكم ، بل بلدنا نحن » . فكان يجيبه احد
ابنائي ، ويدعى « ميشيل كان ذكيا جدا وقوي البنية » لا ، نحن العرب
نعيش دائما هنا ، وهذه ارضنا ، أنتم الذين يجب أن تعودوا من حيث
أتيتم » . وفي مرة أخرى كان ابني « ميشيل » يلعب مع فتى يهودي
مغربي خارج المنزل ، فاذا الاخير يصيح في وجه « ميشيل » : « أبها
العربي القدر ! » فهجم عليه « ميشيل » وأخذ يوسعه ضربا . فاندفعت
والدة الفتى اليهودي لتوقفه ، ثم نادتنني وبدأت تكيل لي الالهات .
فلم أنبس ببنت شفة ، ووقفت في صمت مطبق ، الامر الذي جعلها
تستشيط غضبا ، وأخذت تصيح : « ولا ترغيبين أيضاً في إجابتي ! »
فأجبتها بهدوء : « يا جارتني ، لم لا ترافقينني الى المنزل لتناول
فنجانا من القهوة سوية . إنهم أطفال » ، ولكننا راشدون ، ونحن إخوة

ويجدر بنا الا نتخاصم سوية » . ثم تقدمت منها وقبلتها ، فراققتني الى شقتي وتناولنا القهوة سوية . واذكر أنها عندما انتقلت من منزلها ، قالت لي : « أنت افضل جارة التقيتها في حياتي ، سامحيني للتصرفات السيئة التي بدرت مني » .

قال (رياض) معلقاً : (عندما عملت كمراقب للحمولة في الميناء حتى عام ١٩٧٢ ، كنت على علاقة طيبة مع كافة زملائي اليهود) .

قالت زوجته بلهجة حزينة : (نعم ، كانوا يقومون بزيارتنا على الدوام ، ويحضرون حفلة تعميد اطفالنا ، ويتناولون العشاء معنا . وحاولت ان اعلم اطفالي الخمسة على عدم التمييز بين العرب واليهود ؛ وكنت اخبرهم دائماً بأننا جميعاً أخوة وأخوات ، ويجب أن نعيش سوية بسلام . لم يخطر في بالنا إطلاقاً أن يؤول الوضع الى ما هو عليه اليوم) .

انضمت (نورا) زوجة (أديب) الى العائلة ، وقالت وهي تطلق زفرة عميقة قبل أن تجلس : (لقد استسلمت أخيراً للنوم) . كانت (نورا) منشغلة بترتيب المنزل ، وبوضع ابنتها ذات الثمانية عشر شهراً في سريرها لتأخذ قيلولة الظهيرة ، وجلست ابنتها (عبلة) ، التي كانت تساعدها ، الى جانبها .

تابع (أديب) المحادثة : (كان معظم من بقي في يافا من الفقراء والجاهلين ، والقلة القليلة المثقفة التي لم تغادر يافا كانت تخشى كثيراً من التكلم أو المطالبة بحقوقهم كفلسطينيين . ونشأنا نحن على الخوف من السلطات لا انتقادها ، ولم نكن نتلقى التشجيع على المشاركة على الصعيد السياسي أو حتى يُسمح لنا بذلك) .

اجاب والده بلهجة دفاعية : (لقد ناضل الجيل السابق أيضاً كما تعرف ، فقاموا بإضرابات وشاركوا في المظاهرات . أنا شخصياً لم

أشارك في أي من هذه النشاطات ، ولكنني كنت عضواً في حزب المابام حتى عام ١٩٥٠ .

تبع ذلك فترة من الصمت ، لم يعكره سوى ضجيج الأولاد وهم يلعبون في الشارع .

(نورا) امرأة في الثلاثين من عمرها ، نشيطة جداً واجتماعية ، وهي تدرّس اللغة العربية في مدرسة « الأخوة » . بادرت إلى قطع الصمت بقولها : (عندما كنت صغيرة في المدرسة ، لم يعلمونا أي شيء عن قضيتنا أو تاريخنا ، وفي المنزل أيضاً لم يكن أهلنا يتكلمون عن قضيتنا ؛ إذ كان الجميع يشعرون بفزع شديد ، أنا شخصياً عشت حياة سعيدة ، حاهلة تماماً كل ما كان يحدث حولي ؛ ثم عندما أنهيت المدرسة وبدأت دورة تأهيل المعلمات ، بدأت لاحظ مظاهر البؤس والظلم والتمييز . فأخذت أولي مزيداً من الاهتمام إلى الصحف ، وأصفي إلى مناقشات الناس السياسية ، وأطلع الكتب التي تتحدث عن تاريخنا ؛ وهكذا نمت وعياً . وكان لأديب أيضاً دور كبير في تنمية وعي ، إن ابنتي « عبلة » اليوم أكثر وعياً مني عندما كنت في مثل سنها) .

دهشت (عبلة) لأن والدتها عندما كانت في العاشرة من عمرها كانت تجهل كل شيء عن القضية الفلسطينية ، وقالت : (أنا وعية تماماً لهويتي ، ليس من خلال والدي فقط ، بل من خلال اتصالي مع الناس في الجمعية والمركز الثقافي حيث أتردد للمشاركة في النشاطات المختلفة ، وأصفي كذلك إلى الأخبار وأقرأ صحيفة الاتحاد . وفي المدرسة كذلك تحدثنا إحدى المعلمات عن هويتنا وتاريخنا الفلسطيني ، وأنا فخورة بهويتي) .

قالت (نورا) : (تتراوح أعمار تلاميذي بين العاشرة والرابعة عشر عاماً ، ويشكل العرب نسبة ٩٥ ٪ من عدد التلاميذ ، ويشكل يهود ٥ ٪ فقط . ويعتبر الطلاب العرب أكثر وعياً لهويتهم ولقضيتهم من

أثناء جلبي عندما كانوا في مثل سنهم ، ولكن أيضاً يختلف المعلمون اليوم اختلافاً كبيراً عن المعلمين الذين كانوا في مدارسنا . وعلى الرغم من أن معظم المدرسين في المدرسة التي أعمل بها هم من اليهود ، إلا أن هذا لا يمنع المعلمين العرب من نشر الوعي بين الطلاب . فأنا أدرسهم ، على سبيل المثال ، عن بعض الكتاب الفلسطينيين ، وأرفض الاحتفال بيوم الاستقلال ، وكذلك أرفض العمل في ذكرى يوم الأرض . وعندما يقوم اليهود بإحياء ذكرى أولئك الذين لقوا حتفهم في الحروب ، يتوجب على الطلاب العرب أن يقفوا الى جانب زملائهم اليهود داخل الصف ؛ لذلك أقول لطلابي العرب أن يفكروا أثناء وقوفهم بأولئك الذين استشهدوا في الانتفاضة . ومرة سأل طالب في العاشرة من عمره : (لماذا نقف من أجل اليهود ، وهم لا يقفون من أجلنا في ذكرى يوم الأرض ؟) في أيامنا لم يكن أحدٌ يجرؤ على طرح مثل هذا السؤال .

قال (أديب) : (عندما ذهبت الى المدرسة كان الأمر مختلفاً ، إذ كان يشرف على مدرستي الابتدائية في يافا قساوسة ، وكانت اللغة الفرنسية هي لغة التدريس الرئيسية ، أما اللغة العربية فكانت اللغة الثانية . وعندما أصبحت في الثانية عشر من عمري بدأت أعي هويتي العربية ، وشعرت بأنني أفتقد الى لغتي الأم ، لذلك أقنعت والديّ بإرسالني الى مدرسة في « الناصرة » لمدة سنتين ؛ وكانت « الناصرة » تعتبر مركز القومية العربية الفلسطينية . عدت بعد ذلك الى يافا حيث أنهيت دراستي الثانوية ، ثم التحقت بدورة لتأهيل المعلمين ، ودرست لمدة عام في دير للفتيات .

وكان لي أيضاً نشاطات في مجال الصحافة ، فاتصلت نتيجة لذلك مع كثير من العائلات واطلعت بنفسني على المشاكل السياسية والاجتماعية والثقافية الكبيرة التي كان يواجهها الفلسطينيون في يافا . فأردت القيام بشيء حيال ذلك ومساعدة أهلي ، لذا قررت دراسة العمل الاجتماعي في الجامعة . كنت في ذلك الوقت الطالب العربي الوحيد الذي يتخصص في مجال العمل الاجتماعي ، وكان الباقي من اليهود . وكانت اي بعض

الاتصالات مع عدد من الطلاب اليهود اليساريين ، ولكنها لم تبلغ حد الصداقة ، لأنني شعرت بأنني غير مقبول بشكل كامل . اشتركت في بعض النشاطات الطلابية ، وتعرفت على بعض الطلاب العرب من المثلث والجليل ، وكانوا ، من الناحية السياسية ، أكثر وعياً من عرب يافا . ففي الجامعة اتخذ وعي سياسي ، وبشكل فعلي ، قوة وبعداً أكبر .

بعد الجامعة قمت بالتدريس لفترة وجيزة في دير « تراسانتا » في يافا ، واصبحت أيضاً رئيساً لفريق شباب الكشافة . ثم جرت حادثة كان لها الأثر الكبير في تعزيز الالتزام السياسي والاجتماعي الذي أشعر به تجاه قومي : ففي انتخابات عام ١٩٧٧ ، طلب مني الرئيس العام للكشافة ومدير المدرسة وغيرهم من كبار المسؤولين في يافا ، القيام بتنظيم فريق الكشافة للترحيب بوزير الشؤون الخارجية آنذاك (إيثال آلون) ، الذي كان يعتزم القيام بجولة في يافا لصالح حزب العمل . فرفضت ذلك قائلاً بأنه قد مضت أربع سنوات وهو في منصبه ، ولم يبق لي زيارة واحدة الى يافا للاطلاع على حالة الفلسطينيين ؛ وقلت لهم إنني لا أرى سبباً واحداً يدعو الى الترحيب به لمجرد أنه يريد القيام بحملة لصالح حزبه وكسب الأصوات العربية . فطلب المسؤولون من فريق الكشافة استقباله بأية طريقة كانت ، دون أخذ موقفي بعين الاعتبار ، ولكنني اقنعتهم بعدم تنفيذ الأوامر . وأوضح لهم أنهم ، بالترحيب به ، يكونون قد تفاوضوا عن السياسات التي تمارسها الدولة إزاء الفلسطينيين . وانتهى الأمر الى القيام بمظاهرة ضد (آلون) أدت الى طردي من المدرسة ومن فريق الكشافة معاً .

لم أغضب في الحقيقة لتلك النهاية ، لأنني بدأت العمل في (مكتب الشؤون الاجتماعية) ، وكان ذلك أفضل بالنسبة لي لأن هذا يعني فسح المجال أمامي للاهتمام بصالح قومي ، إذ كانت المدرسة التي كنت أدرس فيها متمسكة طائفاً الى حد كبير . يتركز عملي الجديد على الحديث مع العائلات عن عدد من المشاكل مثل : الإدمان على المخدرات ، المفاسد الناشئة ضمن العائلة ، التهرب عن الذهاب الى المدرسة

والانحراف . واحاول ان التمس السبل السليمة لتسوية مشاكلهم عن طريق الرعاية ، والنوادي الشبابية ، أو مراكز العلاج النفسي للمدمنين على المخدرات ، وما الى ذلك . قطع الحديث انبعاث أصوات مرتفعة وغاضبة من مكان ما ، هزّ (أديب) رأسه وقال : (إنهم جيراننا في الطرف المقابل ، وهم مثال جيد عن مشكلة كبيرة جداً نعاني منها هنا وهي الإدمان على المخدرات . فقد توفي الأب بسبب الإدمان على الكحول ، وتعمل الأم لوقت جزئي خارج المنزل ، ولديها خمسة عشر ولداً : ثمانية شبان ، وسبع فتيات ، وقد بلغ عدد المدمنين على المخدرات حتى الآن ستة شبان من أصل ثمانية ، بالإضافة الى زوج إحدى بناتها . وانتهى الأمر بثلاثة من أولادها الى السجن ، بعد أن وشى بهم أحد إخوتهم ولاذ بالفرار . فالشروط السكنية السيئة ، والبطالة واليأس ، كل ذلك دفع المراهقين والشبان الى الإدمان على المخدرات كوسيلة للهروب من الواقع . وتقول التقديرات إن حوالي ثلث السكان العرب في يافا يتعاطون المخدرات : الكوكايين والهروئين بشكل رئيسي ، وهم يرتكبون الجرائم من أجل تمويل إدمانهم . وتقوم البلدية بعلاج المدمنين الذين تتجاوز أعمارهم الثمانية عشر عاماً ، فعندما يشب الطبيب حالة الإدمان لديهم ، يعطون عقاقير كيميائية كحل بديل ، ولكنها لا تفيدهم شيئاً في الواقع لأنهم ينتهون الى الإدمان عليها) .

نظر الى ساعته يده وأطرق ملياً وقال : (هيا ، لنذهب ونزور الجيران) .

عندما قرع (أديب) الجرس ، خمدت الأصوات المتعالية من الداخل ؛ فقرعه ثانية ، فصدر صوت أشخاص ينطلقون مسرعين ، ثم علا صوت امرأة تتسائل : (من الطارق ؟) .

- (أنا أديب) .

ففتحت الباب ورحبت به .

سأل أديب : (هل عارف موجود ؟) .

ـ (نعم) .

كانت تلف المنزل ظلمة تقبض الصدر ، ظهر (عارف) ، كان شاباً في بداية العقد الثاني من عمره ، نحيل الجسم ، شاحب الوجه ؛ وقد وضع حول عنقه سلسلتين ذهبيتين . قال معتدراً عن الظلمة التي تغلف المكان :

(لم نفتح كافة النوافذ في المنزل لأن بعض إخوتي ما يزالون نائمين) .

سأله (أديب) عن صحته ، وعما إذا كان إخوته الثلاثة ما يزالون في السجن .

أجاب (عارف) : (نعم ، إنهم في السجن) .

ـ (آمل أنك لم تبدأ بتناول المخدرات أيضاً) .

هزّ (عارف) رأسه بتحدٍ وهو يقول : (لا ، مطلقاً . لقد تمكن إخوتي الأكبر سناً من إقناع إخوتي الصغار بتناول المخدرات ، ولكنني رفضت الإذعان لهم لأنني رأيت ماذا فعلت بهم المخدرات . إنهم لا يستحقّون اللوم بشكل كامل ، فقد كان والدي مدمناً على الكحول وكان يوسعنا ضرباً على الدوام ، ولم يهتم بتعليمنا . فقد تركت المدرسة عندما وصلت إلى الصف السادس ، وعملت عند صانع أحذية ، إلا أنني اضطررت بعد ذلك إلى ترك العمل بسبب سوء حالتي الصحية .

وهكذا يلجأ كثيرون من الناس إلى تناول المخدرات بدافع من اليأس ، إذ يتلقى الفلسطينيون معاملة جائرة من اليهود ؛ فلا أحد يهتم بنا ولا أحد يهتم بأحد . ولكن لدي الآن بارقة من الأمل بسبب الانتفاضة القائمة في الضفة الغربية وغزة، والتي جعلتني أخيراً أشعر بالفخر بأن أكون

فلسطينياً ، وأنا أساندهم بشكل كامل . وعلى الرغم من وعي إخوتي
لهويتهم الفلسطينية ، ويعود السبب في الأغلب الى طريقة معاملة اليهود
لهم ، إلا أنهم غارقون تماماً في إيمانهم الى حد لا يمكنهم من الاهتمام بما
يحدث في الضفة الغربية وغزة . ربما يفيقون في يوم من الأيام) .

تلا ذلك صمت قلق ، وظهر عند الباب شاب في ملابس النوم يجرّ
قدميه متثاقلاً . بقي (عارف) هادئاً ، وقال (أديب) بأنه قد حان
الوقت للذهاب .

يدعى الجار الآخر الذي قمنا بزيارته (رامي) ، ويقع منزله بعد
عدد من المنازل الى أسفل الطريق . ويبلغ الخامسة والأربعين من
عمره ، متزوج ولديه أربعة أطفال .

سأله أديب : (أما زلت عاجزاً عن الحصول على عمل ؟) .

هزّ (رامي) رأسه وقال موضحاً : (كنت أعمل مراقباً في مصنع
للأحذية ، حيث أقوم بالإشراف على العمل وأضفاء اللمسات الأخيرة
على الأحذية . ولكنني فقدت عملي بسبب إيماني على المخدرات ، التي
بدأت بتعاطيها لتساعدني على التغلب على وضعنا الاجتماعي والسياسي
السيء . في الماضي ، وعلى الرغم مما كان يفعله اليهود معنا ، إلا أننا
تعلمنا كيف نعيش الى جوارهم ؛ فعللنا معهم وعقدنا معهم كذلك بعض
العلاقات الاجتماعية . ولكن كان عندنا عقدة أيضاً : كنا نخجل من
حقيقة أننا فلسطينيون ، وأنهم نكن نتحدث عن ذلك إطلاقاً . ثم عندما
استلم (ناصر) ، منحنا القوة وشعرنا بالفخر لأننا عرب . وبعد
حرب ١٩٦٧ بدأ اليهود يعاملوننا باحتقار : فكانوا يوجهون إلينا
الإهانات ، وينهالون علينا بالضرب ويسخرون منا ومن الجيش المصري ،
ومن العرب ككل . سبب لنا ذلك صدمة كبيرة ، وشعرت بألم عميق
دفعتني الى قضاء معظم وقتي في المقاهي حيث بدأت بتعاطي المخدرات

لا أغرق فيها أحزاني . تعاطيت مادة الأفيون مدة ثلاث سنوات ، ولم أعرف بأنني أصبحت مدمناً حتى سُجنت ؛ وعندما أُطلق سراحى تعاطيت الهيروئين مدة خمس سنوات ، وفقدت عملي أثناء ذلك . لذلك ولكي أحصل على المال لشراء المخدرات ، تحولت الى مروج لها ، وعندما أدركت مدى الألم الذي أسببه لعائلتي ، قررت أن أفعل شيئاً إزاء إدماني هذا . فالتجأت الى مركز طبي لليهود ، إذ لا يوجد مراكز عربية ، حيث قدموا لي عقاقير كيميائية كبديل عن المخدرات . ولكنني في الواقع لم أشفى ، لأنني أصبحت الآن مدمناً على ذلك العقار ، وربما سأبقى على هذه الحال طوال حياتي ، لم أمارس أي عمل طيلة إحدى عشر عاماً ، وأعيش معتمداً على الضمان الاجتماعي .

قبل عام ١٩٦٧ ، كان عدد المدمنين على المخدرات قليل جداً ، ولكن بعد عام ١٩٦٧ ظهر المروجون بشكل علني ؛ ولم تحرك السلطات ساكناً لأننا عرب ، وما يحدث لنا لا يعنيهم لا من قريب ولا من بعيد . أما الآن فقد زاد عدد المدمنين ، ففي الماضي كان الشباب يبدؤون بتعاطي المخدرات في سن العشرين ؛ أما اليوم فمنهم من يبدأ في سن الثالثة عشر . أما الأسباب التي تدعوهم الى ذلك فهي : مستقبل بدون عمل ، سياسة التمييز ، عدم المساواة ، والشروط العائلية والمنزلية السيئة . ويمي جميع هؤلاء الأحداث تماماً بأنهم فلسطينيون ، لأن نتائج هذه الحقيقة هي التي دفعت بهم الى الإدمان ؛ فهم لا يخلطون ، على خلاف أبناء جيلي ، من كونهم فلسطينيون ، إلا أن البعض منهم غارقون في المخدرات ولا يفكرون بشيء آخر ، وأصبحت عقولهم فريسة لتلك السموم فلا يفكرون بلغة الحرية ، أو النضال من أجل حقوقهم .

على أية حال ، لقد فجرت الانتفاضة بعض مشاعر الفخر والأمل ، وعندما قمنا بمظاهرة تأييد للضفة الغربية وغزة في ٢١ كانون الثاني عام ١٩٦٧ ، شعر اليهود بالخوف لأنهم لم يشاهدونا من قبل نحن الفلسطينيون في يافا نظاهروا من أجل قضيتنا .

عندما عدنا الى المنزل قال (اديب) : (هذا محزنٌ جداً ، ولكن
أحيانا ، والسخرية ، ينجم عن شقاء إحدى العائلات سعادة عائلة
أخرى . فمن الحالات التي أعالجها ، هناك عائلة تتألف من أب وأم
 وخمسة أطفال ، كان الأب مدمناً على المخدرات ، وقد أجبر ابنه البالغ
 من العمر ثلاثة عشر عاماً على العمل وكسب المال ليوفر ثمن المخدرات .
 فأصيب الابن بصدمة كهربائية اثناء العمل وقتل على الفور ، فما كان
 من الأب ، الذي كان في ذلك الوقت مالكا لمنزله ، إلا أن باع إحدى الغرف
 في المنزل وأنفق المال كله على شراء المخدرات .

ثم أقنع زوجته بضرورة بيع المنزل بأكمله ومغادرة يافا ، إذ أنها
 الطريقة الوحيدة التي تمكنه من النجاة من عالم المخدرات . وأخبرها
 بأنهم سيذهبون الى (بشر السبع) ، مسقط رأسه ، وهناك سيشتري
 قطعة أرض ويبني عليها منزلاً جديداً . كانت زوجته في سن الخامسة
 عشر عندما تزوجها ، لذا نجح في تدريبها على طاعته طاعة عمياء .
 وهكذا بيع المنزل مقابل مبلغ يعادل ٢٠.٠٠٠ دولار ، وكان من المفترض
 ان ينتقل إليه المالكون الجدد خلال شهرين .

دفع جزءاً من المبلغ لقاء ديون قام بتسديدها الى المصرف ، وأنفق
 ما تبقى على المخدرات وبالتالي تبخر الحلم ببدء حياة جديدة في
 (بشر السبع) . وساءت العلاقة بينه وبين زوجته الى الحد الذي لم
 يمنعه من ضربها بوحشية . وفي يوم من الأيام ، استيقظت على الواقع
 المرّ ، والذي لا يقتصر فقط على أنه يصبح كل يوم أكثر عنفاً ، بل
 أيضاً بأنهم سيصبحون عائلة معدمة خلال شهرين فقط . فاستجمعت
 أخيراً ما تبقى من شجاعته وأتت لمقابلتي . لا يستطيع المكتب أن يتدخل
 مباشرة في أزمة عائلية ما ، فهناك وكالة إسكان حكومية تعالج مثل
 تلك الازمات ، ولكن من الناحية القانونية لا يحق لهذه العائلة الحصول
 على المساعدة المالية من الوكالة ؛ فبعد أن قاموا ببيع منزلهم فقدوا الحق
 بشراء منزل آخر عن طريق الوكالة . وكان البديل الآخر الحصول على

قرض من المصرف ، ولكن لم يكن وضعهم يسمح بذلك أيضاً . تلك هي العقبات التي لم أتمكن من تدليلها ، ولكن بعد كثير من النقاش والجدل ، تمكنت من إقناع رؤسائي في المكتب بتقديم مساعدة مالية الى تلك العائلة لاستئجار منزل يأويها ، ولمدة عام واحد فقط بعد التمكن من تدليل أزمة السكن الملحة ، ركزت بعد ذلك على العلاقة بين أفراد العائلة . فأرسل اثنان من الأبناء الى مدرسة داخلية في الجليل ، والحق الآخرون بمدرسة في يافا . وأمضيت جلسات طويلة مع الأبوين ، وحاولت إقناع الأب باللجوء الى مركز طبي لمعالجة الإدمان ؛ فوعد بذلك ولكنه لم يفر بوعده ، بعد انقضاء العام ، حاولنا بمساعدة الجمعية الحصول على قرض أو إعانة مالية سكنية من وزارة الإسكان ، ولكنهم رفضوا رفضاً باتاً . وقالوا بأن هذه العائلة قد فقدت كامل حقوقها في الحصول على مساعدة للسكن ، ومنها أيضاً المساعدة التي كانوا يحصلون عليها لاستئجار منزل .

ولم يتبق أمامهم سوى حل وحيد وهو وضع اليد على منزل للمالك غائب كانت السلطات قد أهملته وأعلنته غير آمن للسكن . عاشوا فيه لفترة من الزمن ، حتى قامت الشرطة بإخلائهم ، ولكنهم سرعان ما انتقلوا إلى منزل آخر ذي حالة مشابهة . وبعد مدة قصيرة من انتقالهم إليه ، اضطرت الزوجة لاستدعاء رجال الشرطة بسبب معاملة زوجها العنيفة معها . فأمرته المحكمة بعد ذلك بالابتعاد عنها وعدم العيش معها ، وأراد رجال الشرطة إخلاءها من المنزل ، ولكنهم أشفقوا عليها بسبب حالتها التعيسة وسمحوا لها بالبقاء فيه . وقدمت لها الجمعية يد المساعدة في ترميم بعض أجزاء المنزل المخربة ، وبدأت تعيش حياة جديدة ، ولكنها لسوء الحظ لم تدم طويلاً .

فهي تنتمي إلى عائلة محافظة في غزة ، وعندما تناهى إلى مسامع شقيقها بأنها تعيش بمفردها ، على الرغم من وجود بعض أولادها معها ، أتت على الفور لرؤيتها وأخبرها بأنها بذلك تسبب الى سمعة العائلة .

حاولت إقناعه بأن يدعها وشأنها تعيش حياتها ، ولكنه لم يصغ إلى حديثي ، وطرح أمامها حلين لاثالث لهما : إما أن تستعيد زوجها وتذعن لقدرها ، أو أن تعود الى غزة وتعيش مع عائلتها .

لم أستطع بالطبع اتخاذ القرار بالنيابة عنها ، ولكنني ناقشت معها الحجج المؤيدة والمعارضة لكل اقتراح ، وفي النهاية عادت إلى غزة بسبب الضغوط المتزايدة من حولها . ولكن السعادة تملصت منها هناك أيضاً : فقد عاملتها عائلتها ، وخاصة شقيقها ، معاملة سيئة ، وأجبروها على العمل كخادمة في المنزل . وبعد فترة وجيزة لم تعد تطيق صبراً ، فعادت إلى يافا ، أما زوجها ، الذي قضى في السجن فترة لا بأس بها بسبب تعاطي المخدرات ، ينتقل الآن من مدينة إلى أخرى ، وهو في حالة فقر مدقع .

ويتجلى الجانب الإيجابي في هذه الحالة بأنها شجعت العائلات الأخرى التي تعاني من صعوبات سكنية على وضع اليد على منازل تعود ملكيتها للغائبين ، وكانت السلطات قد أهملتها وأعلنت أنها غير آمنة للسكن ، في الواقع لا يوجد هناك خطر من السكن فيها ، بل تهدف السلطات الى تدميرها وبناء شقق جديدة لليهود . تمكنت ثلاثون عائلة حتى الآن من حل مشاكلهم السكنية عن طريق وضع اليد ، ويقول القانون بأن العائلة التي تضع يدها على شقة ما وتبقى فيها أكثر من شهر واحد ، لا يحق للسلطات إخلاؤها بالقوة دون اللجوء إلى القضاء . وتستغرق الدعوى القضائية شهراً طويلاً ، لذا يتم التوصل إلى تسوية ويسمح للعائلات بالبقاء في تلك المنازل شريطة أن يدفعوا بدل إيجار شهري .

أشعر أحياناً باليأس بسبب تلك العقوبات التي تضعها السلطات ، والسياسات الجائرة التي تمارسها ضد الفلسطينيين . هل تعرفين أن مايقدمونه لنا من أجل الخدمات الاجتماعية في منطقة العجمي لايفتي ٥٪ من حاجتنا ؟ اتساءل أحياناً إذا كان باستطاعتي التغلب على كافة

العقبات ؟ وهل ساستطيع أن أغير شيئاً ؟ تدفعني تلك الأسئلة إلى فكرة التخلي عن كل شيء ، ولكنني أعود وأقول لنفسني : إذا تخلينا عن كل شيء ، كيف يمكن أن نحقق تقدماً ؟

أجد أن العمل الطوعي الذي أقوم به في الجمعية وفي المركز الثقافي أكثر جزاءً نوعاً ما ، إذ لا يكفي أن أحاول حل مشاكل قومي ضمن حدود مهنتي ، بل يجب أيضاً أن أشارك في نشاطات المؤسسات غير الحكومية لتنمية الوعي الثقافي والسياسي والاجتماعي لقومي) .

قفز (أديب) وهو ينظر إلى ساحة يده وقال : (يجب أن اذهب الآن إلى المركز) .

يقع المركز على مسيرة خمس دقائق من منزل أديب ، يوجد عند البوابة الامامية درجاً يؤدي إلى شرفة واسعة ، وهناك مدخل كبير ، يستعمل قسم منه كمكتبة ، ويوجد غرفة واسعة تستخدم للمؤتمرات والاجتماعات . وهناك أيضاً غرفتان لرياض الأطفال ، بالإضافة إلى مكتبتين .

قال أديب موضحاً : (تأسس مركز يافا الثقافي العربي عام ١٩٨٧ ، ويتألف من تسعة أعضاء ، وهو جزء من جمعية عرب يافا ، من المشاكل التي واجهناها في بدايتنا عدم اشتراك الناس معنا خوفاً من عقاب السلطات ، بيد أننا تغلبنا على هذه المشكلة ، ويجتذب المركز الآن العديد من الشبان أقضي فترة بعد الظهر من كل يوم في المركز ، ومن أهدافنا الرئيسية تطوير الوعي الثقافي والسياسي والاجتماعي والحضاري لدى الشبان بشكل خاص . ونقوم بإلقاء محاضرات حول الحضارة والتاريخ والتراث الفلسطيني ، ونقدم دروساً إضافية لطلاب المدرسة الابتدائية ، وهناك مكتبة . ونجحنا أيضاً في إقناع النوادي الاسلامية والمسيحية بتنسيق الوسائل فيما بينها ومساعدتنا في رياض الأطفال . وقدم لنا مركز دار الطفل في عكا النصيحة اللازمة ، وتمكنا من توظيف معلمين

مؤهلين . ويوجد في كل صف خمسة عشر طفلاً ، ويبدأ الدوام من السابعة والنصف صباحاً وحتى الثانية بعد الظهر . ونولي الأفضلية للأطفال ، الأمهات العاملات ، إذ يدفعون ٦٥ جنيه لقاء عشرة أشهر ، ولكننا نعلمهم في الواقع مدة إحدى عشر شهراً ، وندفع للمعلمين رواتب عن سنة كاملة .

وهناك لجنة من الشبان يساعدنا أفرادها على أساس طوعي في ترميم الابنية القديمة ، ويذهبون أيضاً إلى المناطق الريفية لزيارة القرى العربية والمشاركة في المخيمات الصيفية ، حيث يقدموا المساعدة اللازمة لتحسين حالة الطرق وطلاي الجدران وغيرها من الاعمال ، ونظهر للسلطات ، بإقامتنا المعسكرات الصيفية ، أننا قادرون على الاعتراف بأنفسنا ولا نحتاج الاعتماد عليهم . ونريد أيضاً افتتاح مركز عربي لمعالجة المدمنين على المخدرات لأن المعاهد اليهودية ترفض استقبال الأحداث العرب : بحجة أن تقاليدنا وطريقة حياتنا تختلف عن تقاليد اليهود وطريقة حياتهم . ولكن هذا الأمر ليس بالمهمة السهلة ، فإلى جانب أنه يتطلب مبلغاً كبيراً من المال : فهو يحتاج أيضاً إلى مشرفين مؤهلين ومتفانين في عملهم) .

استدعي (أديب) لتقديم المساعدة في تسوية بعض المشاكل الإدارية .

حلّ لظلام في الخارج ، وغمر المدينة هواء مشبع بالرطوبة ؛ ولم يكن هناك موجة واحدة تعكر سكون البحر . وكانت السيارات تنطلق بضجر ، والناس يسرون بتكاسل .

في المنزل كان الأطفال يراقبون التلفاز ، وتحضر (نورا) طعام العشاء .

قالت (نورا) : (أديب مشغول على الدوام ، أرغب أحياناً بزيارة بعض الصديقات ، ولكنني لا أريد أن أطلب من عمي وزوجة عمي (واندې)

أديب (أديب) الاعتناء بالأطفال . إنهما على استعداد تام للقيام بذلك ، وأحياناً
أطلب منهما ذلك ، ولكنني لا أحب أن أفرض أولادي عليهما ، بل أفضل
أن يقوم (أديب) بتلك المهمة ، التي تصادف على أية حال مرة واحدة في
الشهر . فهو يعطي الأولوية لعمله قبل واجباته المنزلية لأنه يشعر بأنني
موجودة ، مع والديه ، في المنزل لتلبية المتطلبات والالتزامات الضرورية) .

دخل والدا (أديب) ، وبعد فترة قصيرة وصل (أديب) من عمله .
قالت له (نورا) : (إنك تبدل جهداً كبيراً في عملك) .

أجاب (أديب) : يجب أن أقوم بعملتي على أكمل وجه ، وإلا
فلا داعي للقيام به على الإطلاق . لقد اقترب موعد بدء المعسكرات
الصيفية ويجب أن نتأكد من تنظيمها الجيد . يشتمل العمل في المركز وفي
الجمعية على نضال مستمر ضد السلطات ، التي تتهمنا بالقيام بنشاط
تخريبي ، وبأننا نقوم بعملية غسل دماغ للشبان وشحنها بأفكار مناهضة
لإسرائيل . ويتهموننا أيضاً بالحصول على أموال من منظمة التحرير
الفلسطينية ، وهذا بالطبع غير صحيح ، نخشى السلطات من المؤسسات
الاحكومية واللاطائفية ، كمؤسساتنا ، لأنها تصل الى عدد كبير ومتنوع
من الناس ؛ ونحن لا نخشى ، على عكس النوادي الدينية ، من انتقاد
السلطات ومقاومتها) .

قالت والدة أديب : (يختلف جيل اليوم عن أبناء جيلنا السابق) .

وافق زوجها على كلامها وتابع الحديث : (نعم ، ولا يقتصر
الاختلاف فقط في أسلوب نضالهم من أجل الحصول على حقوقهم ، بل
يمتد أيضاً الى سلوكهم في الحياة اليومية . كنا نحترم كبار السن ، ولكن
اليوم ، إذا قمت بتوجيه نصيحة الى فتى في الخامسة من عمره ، فإنه
ينظر إليّ ثم يقول : « هذا ليس من شأنك ! » واليوم بدلاً من أن
يساعد الشبان عجزاً يعبر الشارع ، فإنهم يضحكون منه ويحتقرونه
ويوجهون إليه الإهانات . كل هذا نتيجة للتمدن وتبني القيم والمبادئ
الأجنبية) .

قال أديب : (لقد تغيرت بالطبع بعض مبادئنا نتيجة لنداخلنا مع اليهود ، إذ يوجد داخل المجتمع اليهودي نفسه العديد من المبادئ المختلفة والمتناقضة ، والسبب في ذلك توافد اليهود من مختلف أنحاء العالم . وتعتبر بعض التغيرات التي حدثت في مبادئنا سلبية ، وبعضها الآخر إيجابية ، وهناك بعض التقاليد التي ما تزال نمارسها حتى اليوم والتي أجدها بالية . ففي الماضي كان الأبوان هما اللذان يختاران العروس أو العريس لأولادهم ، وأنا لا أقبل هذه العادة ؛ إذ لا بد لكل شخصين يرغبان في الزواج من التعرف على بعضهما البعض ؛ وإذا لم يكن يربط بينهما حب كبير ، فيجب على الأقل أن يتوفر نوع من التفاهم والمودة . بالنسبة لوالدي فهولا يوافق على هذا الرأي . لقد أثقت بزواجتي عندما كنت أقوم بالتدريس في مدرسة (تيراسانتا) حيث كانت طالبة هناك ، فوقعنا في غرام بعضنا بعضاً ، وتزوجنا بعد أن أنهت المدرسة . وقد عارض والدي بشدة لأنه كان يريدني أن أتزوج إحدى بنات عمي ، فرفضت ذلك وقلت له بأنني لن أتزوج سوى الفتاة التي اخترتها بنفسى؛ لذا لم يكن أمامه سوى قبول قراري هذا . إلا أنه لم يكن يرغب بأن أخرق تقليداً تبعه الناس لأجيال عديدة) .

قالت (نورا) معلقة : (من ناحية أخرى ، هناك بعض العادات التي لم تتغير على الإطلاق ، فعلى سبيل المثال ، لا أجد أية تغيرات في العلاقة بين الزوج والزوجة . فعندما يطلب أديب منى شيئاً، يجب أن أقوم به في الحال، بغض النظر عما إذا كنت أستطيع ذلك أم لا ، إذ لا يسعني معارضته . فهو يتوقع منى تنفيذ طلباته تماماً كما كان الجيل القديم من الرجال يتوقعون من زوجاتهم الطاعة الكاملة) .

قال أديب : (يعتبر في الواقع النضال من أجل قضيتنا من أكبر الاختلافات بين الجيلين . فما يزال والدي يخشى علينا عندما ننتقد السلطات ، فأقول له إنه من المفترض أننا نعيش في بلد ديمقراطي ، لذا يحق لي النضال من أجل حقوقي والدفاع عن قومي ؛ إلا أننا لا نعيش في

الواقع في بلديمقراطي على الإطلاق . وأنا لا أخشى من التصريح بأنني مواطن فلسطيني ، ولكن ما يزال التردد يسيطر على والدي ، فيخشيان من التصريح بتلك الحقيقة ؛ وأنا لا أؤمهما في ذلك ، بل أنفهم سبب فزعهما الشديد ، إلا أنني لا أؤافقهما على ذلك ، ولا أقبل بموقفيهما ؛ ولا أوافق كذلك على الطريقة التي يريدان فيها أن يزرعا ذلك الخوف في أنفسنا . أما اليوم فأننا مختلفون ، وأنا واثق من أن أولادي سيكونون أكثر وعياً واطلاعاً على الأمور من أبناء جيلي) .

قال رياض (يتأثر الجيل الجديد اليوم بالجماعات الخارجية ، لناخذ الانتفاضة على سبيل المثال . فمنظمة التحرير الفلسطينية هي التي تملّي الاوامر على الشبان ، وإذا لم ينفذوها ، فإنهم سيقتلون . فالانتفاضة ليست شيئاً بدأه الناس من تلقاء أنفسهم) .

قالت (علة) بانفعال : (الناس هم الذين بدؤوا الانتفاضة ، فاليهود يعاملون العرب معاملة سيئة ، فلم لا يقاومهم العرب ، حتى إذا كان العنف هو الوسيلة ؟ قرأت في إحدى الصحف أن سيدة يهودية قالت أنها تستمتع برؤية العرب وهم يضربون ، فشعرت بغضب شديد ، ولو كانت أمامي لضربتها) . قال أديب : (إذا شعرنا باليأس والاستسلام سيهزموننا ونضيق إلى الأبد ، ولكن إذا تابعنا النضال وتخلصنا من مخاوفنا ، وإذا فكرنا في قضيتنا قبل التفكير في مصلحتنا الشخصية ، نستطيع عندئذ أن نوقف السلطات عن سياسات الضرب والنفي وتدمير المنازل والتميز التي تمارسها ضدنا) .

صدر فجأة صوت موسيقا يصم الأذان من الجوار ، وتبعه رنين ضحكات مرتفعة ، تنهد (أديب) وقال : (سيستمر هذا الضجيج حتى ساعات الصباح الأولى ، فهم ينامون طوال النهار ، ثم يستيقظون في وقت متأخر من المساء ويسهرون طوال الليل . لقد شكوت إليهم عدة مرات انزعاجي من الضجيج ، في بعض الأحيان يستمعون ويلتزمون الهدوء ، ولكن في معظم الأحيان كأنني أتحدث إلى الجدران . فهم

لا يعوون ما يفعلونه لانهم دائما تحت تأثير المخدرات ، ولا تتمكن والدتهم
او أخواتهم من فعل أي شيء بدافع الخوف) .

بعد عام تقريبا ، كان هنالك عدد من التغييرات .

قال (أديب) وقد جلس لتناول طعام الغداء : (أتعرفين ماذا
حل بتلك العائلة في الشارع المقابل ؟ حسنا ، يوجد في السجن الآن ستة
من الشبان ، ومنهم (عارف) ، وعلى الرغم من أنه لم يتعاطى المخدرات
ولكنه بدأ الاتجار بها ، كان الاغراء للحصول على المال كبيرا جدا . لا بد
وَن أحدا ما قد وشى بهم ، فهاجمتهم رجال الشرطة بينما كانوا في إحدى
الامسيات يصنفون كمية الكوكايين التي يتاجرون بها وسيقفون في
السجن فترة طويلة ، وأنا حزين جدا من أجل (عارف) لأنه أضاع
حياته .

قمت في الواقع بكتابة مسرحية عن مشاكل تعاطي المخدرات ،
وعرضت مؤخرا على مسرح المركز ، وتدعى : (من يلام ؟) وتتألف
المسرحية من الشخصيات التالية : أم وأب وابنان وابنة وزوجها . يدعى
أحد الأبناء (ايهاب) وهو على وشك التخرج والحصول على شهادة
جامعية في الحقوق . ويدعى الابن الثاني (دياب) ، وهو طالب كسول
يتخلف عن المدرسة ويتعاطى المخدرات . يعلم (ايهاب) وزوج أخته
بمشكلة (دياب) وادمانه ، ولكن الأم ترفض أن تقبل أو حتى تعترف
بأن أبنها الأصغر يعاني من مشكلة . يقضب زوجها وابنها (ايهاب)
بسبب سلوكها الذي يشبه سلوك النعامة ورفضها مواجهة الخطر
ويلومانها على أفساد (دياب) . وكلما يقوم الوالد أو الشقيق الأكبر
بتأنيب (دياب) ، تهب الأم للدفاع عنه وتقول بأن (دياب) فتى حسن
السلوك ولا يصدر عنه اطلاقا سلوك مشين ، ولكنها تواجه أخيرا واقع
سلوك ابنها عندما يطلب منه المثول أمام المحكمة بتهمة تعاطي المخدرات .
ويخبره شقيقه بأنهم سيقفون جميعا الى جانبه اذا وعدهم بتحسين
سلوكه ، وبأنه سيدافع عنه ، بالاشتراك مع زوج أخته المحامي أيضا .

يقول (دياب) بأنه قد ضاع الى الابد ، ولن يستطيع التغلب على مشكلته اطلاقا ، ويحاولون جميعا اقناعه بأن يبدأ حياة جديدة وأعدين اياه بتقديم كل الدعم الذي يحتاجه ، بيد أن (دياب) لا يصدق وعودهم ، ويقول لهم لو أن كل فرد من العائلة وقف الى جانبه بشكل فعلي منذ البداية ، ما كان انتهى الى الايمان على المخدرات أو الترويج لها .

حضر لمشاهدة المسرحية أهالي الطلاب ، ولفيف من الاخصائيين : كالعامل الاجتماعي ، وعلماء النفس والمتقنين . وبعد انتهاء العرض جرت مناقشة سبل التغلب على مشكلة المخدرات . وقد تساءل بعض الاهالي عن الاسباب الكامنة وراء ادمان أولادهم على تعاطي المخدرات هل هو الوضع السياسي ، أو طريقة التربية التي نشؤوا عليها في المنزل والمدرسة ، أو مشكلة الاسكان ، أو انعدام التسهيلات الترفيهية ، مما يدفع الشبان الى قضاء اوقاتهم بالتسكع في الشوارع . كان الحوار ممتعا ، وأبدى الاهالي حماسا حارا للحديث حول تلك المشاكل .

دخلت والدته (أديب) مسرعة الى الغرفة لتلقي التحية قبل أن تغادر الى الضفة الغربية لقضاء يومين وزيارة بعض الاقارب .

قالت نورا : (لم نذهب الى الضفة الغربية منذ وقت طويل ، وكذلك لم نزر القدس منذ مدة ، اذ نخشى السفر في سيارتنا لأنها تحمل لوحة ترخيص اسرائيلية ، ولن يصدق الفلسطينيون هناك بأننا اخوانهم ايضا ، وربما نتعرض للضرب بالحجارة . عندما تذهب والدته زوجي الى الضفة الغربية ، فإنها تستقل سيارة اجرة تحمل لوحة ترخيص من الضفة الغربية ، ولكن هذا يعني بالطبع ايقافهم من قبل الجيش وتعرضهم للتفتيش) .

ذهب (أديب) لمرافقة والدته ، وعندما عاد قال : (سأذهب الى القاهرة في غضون عشرة أيام ، اذ انظم هذا العام ثلاث رحلات ، وسترافقني (نورا) في الرحلة الاخيرة .

والهدف الرئيسي من الرحلات التي أنظمها هو مساعدة الفلسطينيين للحصول على فرصة للهرب من الاوضاع القمعية التي يرضون تحتها ، بالإضافة الى أنني أجدها فرصة مناسبة لتنمية وعيهم السياسي .

اذ أننا نسافر إلى مصر برا بواسطة الحافلة ، مما يوفر لي الوقت الكافي للتحدث اليهم . فأخبرهم ، على سبيل المثال ، كل ما يتعلق بالمركز والجمعية ، ونقوم بمناقشة الحوادث الاجتماعية أو السياسية البارزة التي تحدث في يافا . وعندما نمر بالمستوطنات اليهودية المقامة في مناطق كانت في السابق قرى عربية ، أخبرهم عن تاريخ تلك القرى ، وكيف تم الاستيلاء عليها . بيد أنني بالطبع لا ألقى عليهم المحاضرات طوال الرحلة ، بل أننا نفني أيضاً ، ونلقي الفكاهات . وعندما نصل الى مصر ، أخبرهم عن حروب أعوام ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، وأحدثهم عن تاريخ مصر ، وعن ثورة عام ١٩٥٢ ، وعن (ناصر) . توفر لي مثل هذه الرحلة والاماكن التي نزورها فرصة مناسبة لمناقشة جميع تلك المواضيع . ويعتبر تنظيم الرحلات احدى هواياتي ، وفي البداية كانت الرحلات داخل اسرائيل والضفة الغربية فقط ، ثم عندما سمح لنا الذهاب الى مصر ، قمت بتنظيم الرحلات لاصطحاب الناس إليها فهم يجدون متعة في زيارة مصر) .

جلست طفلة (أديب) الصفري على حجر والدها لتريه خدشاً صغيراً في إصبع يدها ، فقبل إصبعها ، وأخبرها بأنها ستحسّن في الحال .

قال (أديب) : (لقد ألحقت طففتي الصغيرة هذه بروضة أطفال تابعة للنادي الإسلامي ، الأمر الذي أفرع أقاربي ، فأخبرتهم بأنني أمقت الطائفية والتمييز ؛ وبما أنني أدعو للمساواة ، عليّ أيضاً أن أطبقها . وأشارت إليهم بأنهم إذا كانوا يرغبون في تحقيق المساواة الاجتماعية والسياسية ، فعليهم أيضاً أن يعملوا على تطبيقها) .

قالت نورا : (الطائفية أمر سيء ، كنت أقوم ببعض النشاطات في النادي الأرثوذكسي ، وأشارك أيضاً في نشاطات الكنيسة ، بيد أنني توقفت عن ذلك لأن عملي تعارض مع قوميتي . فقد كان الأشخاص الذين كنت أعمل معهم يؤمنون بالطائفية ، ولا يهتمون بتطوير الوعي السياسي ؛ ولا يدرك بعض الفلسطينيين بأنه لن يتم الاعتراف بهويتنا ما لم يقوموا بالاعتراف بها بأنفسهم قبل كل شيء . أرادت إحدى صديقاتي العربيات أن ترسل طفلتها الى روضة أطفال يهودية ، بزعم أنها ستلتقى هناك عناية أكبر ، فقد سمعت أن الأطفال في المدارس العربية يعاملون معاملة سيئة ، وهذا بالطبع كلام لا أساس له من الصحة ، فقلت لها : « هل تريد أن تأتي طفلك الى البيت وتحدث اليك باللغة العبرية ، وتغني الأغاني اليهودية ، وتحتفل بالأعياد اليهودية ؟ كيف ستتحملين ذلك ؟ » واصطحبتها الى روضة الأطفال في المركز الأريها طريقتهم في التعامل مع الأطفال . وأنا سعيدة بأن أقول بأنها قد عدلت عن فكرتها ، ولن ترسل طفلتها الى روضة أطفال يهودية) .

قال أديب : (ينبغي علينا زيادة عدد الأطفال في الروضة التابعة للمركز لأنه لا يوجد عدد كافٍ من رياض الأطفال للعرب . لدينا الآن ٢٢ طفلاً في كل صف بدلاً من ١٥ طفلاً . فقد وجد المركز قبل كل شيء لتحسين أوضاع العرب في يافا ، وإذا لم نقم نحن أنفسنا بهذه المهمة ، من غيرنا سيقوم بها ؟ من إحدى مهامنا لهذا العام التنسيق بين نشاطات رياض الأطفال العربية الموجودة في يافا ، إذ أتأكد من سير الأمور بشكل جيد ، وأحرص على عدم قيام السلطات بأي تدخل سلبي أو تمييزي في شؤونها . ونؤكد الآن على ضرورة التحاق جميع المعلمين العرب في رياض الأطفال العربية بدورات تدريبية في دار الطفل في عكا ، أو تدريبهم هنا على يد مدرس عربي . فيتعلمون بهذه الطريقة كل شيء عن تراثنا الفلسطيني ، وعن الاحتفالات العربية ، والهوية الفلسطينية ؛ وكذلك يتعلمون أنواع الألعاب والأغاني والقصص التي نبي باحتياجات الأطفال العرب . قمنا بالفعل بإرسال بعض المعلمين الى دار الطفل ، ويأتي من

وقت آخر استاذ من هناك ليلقي عدداً من المحاضرات في المركز . ولسوء الحظ ما تزال بعض التحسينات التي نرغب في تنفيذها في مجال الخدمات الأخرى حبراً على الورق حتى هذه اللحظة ، وتنفيذها بشكل فعلي أمر مختلف تماماً .

قمنا أيضاً بإعادة تنظيم الجهاز الإداري في المركز ، وأصبح الآن يتألف من خمسة أعضاء يشتركون جميعاً في مسؤولية إدارة المركز . وأمضي هذا العام وقتاً إضافياً على برنامج الترميم والتطوير في منطقة العجمي . فإلى جانب ترميم المنازل القديمة ، كي لا تجد السلطات حجة لتدميرها وإخراجنا منها ، نقوم أيضاً بتحضير مشروع لتحسين الخدمات المتنوعة في المجتمع العربي : كالخدمات الصحية ، والخدمات المقدمة للمسنين ، بالإضافة الى مساعدة العائلات الفقيرة التي تضم عدداً كبيراً من الأطفال ، وتطوير رياض الأطفال .

وتم تمويل برنامج التنمية من قبل اليهود الأمريكيين في « لوس انجلوس » ، وبلدية تل أبيب ووزارة الإسكان ؛ وأُرسلت الأموال أيضاً الى الجماعة اليهودية . ولكن ما نحاول أن نؤكد لهؤلاء الأشخاص هو الإهمال الكبير الذي تعرض له عرب يافا على مختلف الأصعدة ، وقد حان الوقت الآن لفعل شيء ما حيال وضعنا هذا . إلا أن أعضاء المجلس البلدي لا يحبون الجمعية أو المركز ، ليس بسبب انتقادنا لهم فقط ، بل لأننا أيضاً نقدم لهم الحلول المناسبة لوضع مجتمعنا العربي . فإننا نعلم ، قبل كل شيء ، ما هي مشاكلنا واحتياجاتنا ، لأننا نواجهها في حياتنا اليومية ، وهذا ما يغيظ البلدية لأنها تريد أن تفرض علينا الحلول المناسبة لها .

بعد أن كسبنا القضية أمام المحكمة العليا عام ١٩٨٧ لمنع السلطات من إخراجنا من يافا ، يحاولون الآن استرضاءنا بإعطائنا نصف قطعة من الحلوى هنا ، ونصف قطعة هناك ، إذ يسمحون لنا ، على سبيل المثال ، ترميم بعض المنازل ، إلا أنهم ما يزالون ، في الوقت نفسه ،

يحاولون تدمير غيرها . لا يمكنهم خداعنا لأننا لسنا أغبياء ، وسنستمر بمواجهتهم حتى ينفذوا كافة مطالبينا ويميدوا إلينا حقوقنا كاملة) .

حان الوقت للذهاب (أديب) الى المركز : وقال بأنه سيزور في طريقه عائلة يحتاج منزلها الى الإصلاح ، وشرح وضع تلك العائلة بقوله :

(تتألف العائلة من أب وأم وأربعة أولاد : الأب عاطل من العمل ويعيش الابن الأكبر في منزل عائلة زوجته ، وهو مدمن على المخدرات ، وأمضى في السجن فترة من الزمن بسبب ذلك . أما الابنة الكبرى ، وهي متزوجة أيضاً ، تعتبر الوحيدة من أفراد العائلة التي تعيش حياة مستقرة الى حد ما . ويعيش الابنان الآخران ، وهما في طور المراهقة ، مع والديهما ؛ ويعاني أحدهما من اختلال عقلي . وللزوجة ابن آخر من زواج سابق ، كان قد انتحر لأنه قتل أعرصاً في حادث سيارة . ونتيجة لذلك ، أصيبت الزوجة بانهيار عصبي ، وترددت على المصحات العقلية ، وحاولت أيضاً الانتحار .

تعيش تلك العائلة في منزل قديم على الطراز العربي ، وقامت السلطات بإقفال معظم غرفه ؛ إلا أن الأب كسر قفل إحدى الغرف ، فأصبح لديهم الآن غرفتين للنوم ، وصالة (غرفة جلوس) وحمام ومطبخ . وتتسرب المياه من سقفي غرفة الجلوس والحمام ، ويحتاج أحد الجدران الخارجية للإصلاح .

تريد السلطات إخراج العائلة من المنزل لذا يسببون لهم الإزعاج ، ويخبرونهم بأن المنزل ليس ملكهم ، وأن العيش فيه يسبب خطراً على حياتهم ، وأن السقف سينهار فوق رؤوسهم . ترغب الجمعية بإصلاح المنزل ، إلا أن سياستنا تقضي بأن تدفع العائلات ثلث تكاليف الإصلاح ؛ بيد أن هذه العائلة لا تستطيع أن تدفع قرشاً واحداً ، لذا نصحتهم بالجوء الى « المقاصد الخيرية » للحصول على مساعدة مالية . ويطلبون

مساعدتي لإملاء الأوراق الرسمية لأنهم غير قادرين على فعل ذلك بأنفسهم) .

رحبت العائلة بقدوم (أديب) ترحيباً حاراً .

يبلغ الأب (إبراهيم) الخمسين من عمره ، وتتسم ملامح وجهه بالقسوة الى جانب تعبير مؤلم لرجل يبدو وكأنه فقد كل سبب يدفعه للبقاء .

قدم الأوراق الى (أديب) وقال : (لا أريد أن أخرج من المنزل ، إلا أنني غير قادر على النضال من أجل حقوقي ، وليس بمفردي بالتأكيد ؛ لقد تعبت من الحياة وتحطمت معنوياتي . فعندما كنت في الثامنة عشر من عمري أمضيت اثنتي عشر عاماً في سجن في الأردن ، بعد أن اتهموني بالتجسس ؛ والجريمة الوحيدة التي اقترفتها هي تهريب البضائع . وهناك قاموا بتعذيبني ، انظروا الى آثار الندبات على ساقي نتيجة للحرق بالسجائر . وعندما خرجت من السجن ، قام صديق لي بتهريبني الى (جلجوليا) مسقط رأسي . ثم احتجزتني القوات الإسرائيلية وسلبوني جواز سفري ؛ ونجحت في آخر الأمر في الحصول على أوراق شخصية ، ثم انتقلت الى يافا حيث تزوجت . عملت في البداية عامل تنظيفات ، ثم أصبحت صياداً ؛ ولكنني اضطررت لترك عملي بعد أن فقدت إحدى أصابعي . ولم أستطع حتى الآن الحصول على عمل آخر ، لذا أعيش من مساعدات جمعية الإنعاش) .

تبلغ (مها) ، زوجة (إبراهيم) ، الأربعين من عمرها ، وهي نحيلة وشاحبة ، وتنطق بلامحها بالأسى . كانت تتحرك ببطء وكأنها تحمل أثقال الحياة فوق كتفيها ، قالت وهي تطلق زفرة عميقة :

(نعم ، لقد تعبنا من الحياة . لا أمانع في إخلاء المنزل فوراً في حال قدموا لنا منزلاً آخر ، ولا أملك الرغبة أو حتى القدرة على النضال ؛

ولا يهمني إذا أُخرج الفلسطينيون من يافا ، وكذلك لا أهتم بالانتفاضة .
أنا فلسطينية ، هذا صحيح ، ولكن لدي مشاكل خاصة ، لا يهمني
ما يحدث في الضفة الغربية وغزة . بماذا ستفيدني الانتفاضة ؟ إنها
لا تعني لي شيئاً) .

كرر ابنها ذو السادسة عشر عاماً مشاعرهما عندما قال : (من يهتم
بما يحدث في الضفة الغربية وغزة ؟ ليفعلوا ما يشاؤون ، فأمرهم
لا يعنيني أيضاً) .

نظر (إبراهيم) إليهما ، وفجأة ومضت في عينيهِ شرارة ، ربما لأنه
أدرك بأن الحياة ليست يائسة إلى الدرجة التي تخيلها ، وقال :
(حسناً ، أنا فخور بالانتفاضة ، وتجتاحني مشاعر الألم والتعاطف
عندما أرى المعاملة القاسية التي يتعرض لها إخواني الفلسطينيون) .

ساعدتهم (أديب) في كتابة الأوراق ثم توجه نحو المركز .

لم يكن هنالك اثر للمكتبة ، ابتسم (أديب) وقال : (نستعد لإقامة
مكتبة جديدة ، وستكون في طابقين ومعزولة تماماً عن الضجيج ، ليتمكن
الرواد من القراءة والعمل بهدوء تام . وستقوم بإحضار ٤٠٠٠ كتاب
من مصر) .

كان هناك عدد من الأشخاص يجلسون في القاعة يتحدثون باللغة
العبرية بصوت مرتفع ، قال (أديب) موضحاً : (هذه حلقة عمل مسرحية
يهودية ، تتضمن أيضاً عناصر عربية . فقد قررنا في بعض برامجنا التي
تهدف إلى تطوير الوعي أن نضم إلينا عناصر يهودية يسارية تقدمية
يتفهمون قضيتنا ويتعاطفون معنا ؛ فنحن نريد من اليهود الذين يؤمنون
بالمساواة والعدالة وإقامة دولة فلسطينية مستقلة أن ينضموا إلى
نضالنا . تجتمع هذه الحلقة مرة واحدة في الأسبوع ولمدة ثلاث ساعات ،
ويعملون في مواضيع مختلفة تصور نضالنا السياسي والاجتماعي ،

ويقومون بكل ذلك بشكل تلقائي . ويصورون في مسرحياتهم بعض النزاعات والخلافات الموجودة بين اليهود والعرب ، فنسمعهم أحياناً يصرخون ، أو يقلدون الحيوانات ؛ وأحياناً أخرى يتناقشون ويتشاجرون ، أو يتحدثون بأصوات خافتة بمرافقة الموسيقى .

ويلجأون الى تطبيق أساليب متعددة للتوصل الى حلول مناسبة للنزاعات ، ولكنهم للأسف يستخدمون اللغة العبرية في كافة أعمالهم ، لأن اليهود في حلقة العمل لا يتكلمون اللغة العربية ، بينما يستطيع العرب أن يتكلموا العبرية . وعندما تنتهي التدريبات يقدمون مسرحية باللغة العبرية أيضاً ، والتي نريدها أن تصل الى المجتمع اليهودي ، وخاصة الى اليهود الذين لا يعلمون شيئاً عن قضيتنا ، والذين يتعاملون على الفلسطينيين . ولا يمكننا الوصول اليهم إذا كانت المسرحية باللغة العربية ، بالإضافة الى أن اليهود يميلون للاستماع الى غيرهم من اليهود أكثر من ميلهم للاستماع الى العرب .

قمنا أيضاً بزيادة عدد المحاضرات الثقافية والسياسية والاجتماعية. ويحضر أحدهم من النقب (النخف) للتحدث عن جماعات البدو والمشاكل التي تواجههم ؛ إذ نشعر بأننا معزولون عنهم الى حد كبير . ونقدم كذلك محاضرة عن الإسلام والمسيحية ، ولدينا أيضاً شاعر عربي يتحدث عن الشعر الفلسطيني . وهناك عدد من المعارض المتنوعة : أحدها عن الانتفاضة ، والآخر عن فن العمارة في يافا منذ عام ١٩٠٠ وحتى اليوم ؛ وهناك أيضاً معرض لرسوم كاريكاتورية الفنان ناجي العلي . ونسعى لتقديم فرقة موسيقية تعزف على الآلات العربية فقط . لقد قمنا بأعمال كثيرة في العام المنصرم) . دون صرخة غالية من أحد الممثلين في حلقة العمل ، تلاها سكون مطبق .

قال أديب : (لدي اجتماع فيما بعد ، أما الآن فسأذهب الى المنزل ، لقد كان يوماً شاقاً . أبلد أنا وزوجتي (نورا) جهداً مضنياً في عملنا ، ولكن ما نجنيه ليس كافياً . يعادل راتبي ٧٠٠ دولار في الشهر ،

وتحصل زوجتي على ما يعادل ٤٣ دولاراً في الشهر . ويحصل اليهود على مكافآت وعلاوات إضافية ، فعلى سبيل المثال ، يحصل كل من أدى الخدمة العسكرية على إعانة مالية عندما يرزق بطفل ، وهذا لا ينطبق بالطبع على الفلسطينيين . ويحصل اليهود على قروض أكبر لقاء الرهائن العقارية ، وعلى معاش تقاعدي أفضل) .

ثم تنهد بضجر وهو يقول : (سنحصل يوماً ما على حقوقنا . أنا مسرور جداً من التطورات الجديدة التي حققتها منظمة التحرير الفلسطينية . لقد أثمرت الانتفاضة عن بعض النتائج ، وستستمر في إثمارها . وفي حال قيام دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وغزة ، الأمر الذي سيتحقق حتماً ، سيؤدي ذلك الى التخفيف من وطأة النزاعات والضغط التي نواجهها هنا ، وسأكون فرداً من تلك الدولة ، بيد أنني سأبقى في يافا لأنها موطني ومسقط رأسي . وإذا تمّ التوصل الى حلٍ عادلٍ ، اعتقد أننا لن نكون بحاجة الى حدود وجيوش وحروب ، بل ستزال الحدود جميعها ، وسيصبح باستطاعتنا التنقل كما نشاء) .

اتجه (أديب) الى منزله ، وحلّ الظلام ، وانقطع الضجيج الذي كان صادراً من الجيران في الشارع المقابل .



الفصل التاسع

الناظر : عامر في لاقية

(لقد أثرت بنا الانتفاضة في أكثر من طريقة : فقد طوت وعي الفلسطينيين الذين كانوا جاهلين من الناحية السياسية ، وعززت من نصائنا للمطالبة بحقوقنا ، وكذلك أثرت في الإجراءات القبلية المتخذة حيال النزاعات المتأصلة) .

عامر

تضفي حرارة شمس الأصيل الهدوء والسكينة على القرية ، ويلوذ الناس بمساكنهم هرباً من أشعة الشمس الحارقة ، حتى الأبقار والحمر والمواشي والكلاب تقبع ساكنة تحت وطأة الحرارة المرتفعة . ويجد فقط طفل في الثالثة من عمره القدرة على الوقوف في أعلى الهضبة ، وهو يهرش أسفل ظهره العاري بينما يحدق بعيداً مستغرقاً في التفكير . يقع خلفه كوخ مصنوع من الحديد المموج ، وتمتد أمامه بقية قريته : قرية بدوية تتألف من ٧٠٠٠ نسمة ، وتقع على مسافة ١٤ كم شمال بئر شبع . وتتجمع المنازل مع بعضها على شكل عنقودي غير دقيق وفق المجموعات العائلية . ولا تزيد الطرق عن كونها طرقاً ترابية ، ويلطف مناخ المنطقة القاسي ما تبقى من أشجار الزيتون . يقع إلى الراء بقية موطنه ، وإلى الأمام يمتد العالم . يطلق الفتى زفرة عميقة ويمشي الهوينى نحو الكوخ . يعيش بعض الناس في أكواخ مثل كوخه ، والبعض الآخر أكثر حظاً إذ يعيشون في منازل خشبية ، وهناك بعض الأبنية المصنوعة من الحجر .

ترزح القرية تحت تحديد دائم بالتدمير من قبل السلطات ، التي تزعم بأن السكان لا يملكون أي حق شرعي بالعيش في هذا المكان . وتقوم السلطات من وقت لآخر بتدمير منازل السكان واقتلاع أشجار الزيتون أيضاً .

يبلغ (عامر) الرابعة والأربعين من عمره ، نحيل الجسم ، ويتسم بحس فكاهي تهكمي من شأنه أن يضفي البهجة على الوجه الحزين والمكتئب . يعمل (عامر) ناظراً في جامعة بئر شبع ، ويعيش مع زوجته وأطفاله الأربعة في منزل مبني من الخشب وأرضيته من الحجارة . الغرفة الإسلامية هي غرفة الجلوس ، ويوجد فيها جهاز تلفاز ، وبعض الصور المعلقة على الجدار ، ولوحة كتب عليها (ليحمي الرب منزلك) . وينام (عامر) وزوجته (فاطمة) في الغرفة الأخرى . أما الغرفة الثالثة فتتأخر فيها (فاطمة) الخياطة ، وتنام فيها طفلتها (عير) التي تبلغ الخامسة من عمرها . ويقع مدخل المطبخ في الحديقة الخلفية ، وهو عبارة عن حجرة مظلمة بلا نوافذ ، ولا داعي في فصل الصيف لإيقاد الموقد ، إذ تكفي حرارة الغرفة لطهي الطعام . ويوجد إلى جانب المطبخ غرفة أخرى ينام فيها الأطفال الثلاثة الآخرون : الولد الأكبر (نضال) ، الذي يبلغ الخامسة عشر من عمره ، والابنة الكبرى (عروبة) ، وهي في الثالثة عشر من عمرها ؛ و (عصام) في الثانية عشر من عمره . ويوجد حمام إلى جانب غرفتهم يحتوي على مرشٍر للاغتسال وغسالة . وهناك حديقة صغيرة ولكنها مزهرة : تحوي نبات الكرمة الخصب ، وشجرتين أو ثلاثة من أشجار الزيتون ، وبعض الورود التي قامت (فاطمة) بزراعتها . ويوجد في إحدى زوايا الحديقة حوض خارجي محاط بألواح خشبية ، وفي الزاوية الأخرى صنبور مياه لغسل الأطباق والخضار .

أنهى (عامر) طعامه بمضغ حبة من الفلفل الأحمر الحار ، ثم نهض وذهب ليجلس على أريكة في الشرفة ، حيث أشعل لقافة تبغ وأطلق بصره نحو الهضبة التي كان يقف عليها الطفل الصغير .. لم يعد

هناك أثر للطفل ، ولكن فجأة قفز جواد* فوق الهضبة واختفى وراء الأفق .

قال (عامر) دون أن يوجه ملاحظته الى شخص محدد : (اتساءل إذا كان صاحبه هو الذي أطلق له العنان ، أو أنه هرب من تلقاء نفسه) .

كانت فترة الحرية التي تمتع بها الجواد قصيرة الأجل ، لأنه سرعان ما عاد وصاحبه يمتطي صهوته .

تنهد (عامر) وقال : (لقد حصل على حريته أكثر مما يجب) وأشمل لفافة تبع أخرى .

قالت (فاطمة) وهي تجلس الى جانبه : (توقف عن التدخين الى هذه الدرجة) .

(فاطمة) امرأة جميلة في الثلاثين من عمرها ، طويلة ونحيلة القوام؛ وتغطي شعرها الأسود الطويل بخمار أبيض غير مربوط باحكام . وتنقل بوقار في ثوبها البدوي الفلسطيني التقليدي .

هز (عامر) كتفيه بلا مبالاة ، متجاهلاً ملاحظتها ، وقال : (نحن الآن في عام ١٩٨٨ ، ولم نحصل حتى اليوم على شوارع لائقة وابنية جيدة للسكن ، ولا يحق لنا بناء مساكن دائمة . لدينا مدرسة ابتدائية ، ومدرسة متوسطة جديدة ، ومستوصف وحتى فريق كرة قدم ؛ ولكننا ما نزال ننتظر الترخيص لبناء منازل دائمة . وما نزال نعقد اجتماعات ومناقشات لا تنتهي لنرى فيما إذا كانوا سيبيعون لنا هذه الأرض لبنني عليها المنازل . هل يمكنك أن تتخيلي كيف يبيعون لنا أرضنا التي نملكها ؟ يريدون اجبارنا على العيش في المناطق المدنية كي يتمكنوا من مصادرة أرضنا ، ولكن حتى في المناطق المدنية لن يسمحوا لنا بإقامة صناعتنا ؛ بل يهدفون الى تحويلنا الى عمال ذوي أجور رخيصة لخدمة الاقتصاد الاسرائيلي) .

قطع حديثه وصول والدته زوجته (سلمى) ، وزوجة عمه في الوقت نفسه ، وتبلغ الثامنة والأربعين من عمرها ؛ وهي امرأة مليحة الوجه ، وترتدي ، كابتها ، الثوب البدوي الفلسطيني التقليدي المطرز .

جلست (سلمى) وبدأت تعمل بالصوف ، إذ تهم بالبسة بحياكة حقيبة للكتب المدرسية لأحد أبنائها العشرة الذين تعد (فاطمة) أكبرهم .

قالت سلمى : (انظري إلى حياتنا التي نعيشها ، لا أقول بأن حياتنا الماضية كانت خالية من المشقات ، ولكننا كنا قبائل بدوية نعيش حياتنا الخاصة ، ونتمتع بحريتنا الشخصية) ، ثم توقفت عن الكلام وركزت انتباهها على الصوف .

قال (عامر) موضحاً : (تعتبر عائلتنا فرعاً من قبيلة كسرة جداً تدعى « الصانع » . قبل عام ١٩٤٨ عاش بعضنا في « لاقية » ، والبعض الآخر في مكان يدعى « الشارية » ، وبعد حوالي ٢٠ كم شرقي غزة . ونملك أيضاً قطعة أرض بجانب « بئر السبع » التي كانت في السابق مدينة عربية ، وكانت خالية تملأ من اليهود ، بخلاف بعض المناطق الأخرى في فلسطين . وعندما استلم اليهود الحكم عام ١٩٤٨ ، أجبروا جميع العرب على مغادرة « بئر السبع » ، وكذلك أرغمونا على مغادرة « الشارية » . فذهب البعض إلى مخيم للاجئين في غزة ، وانضم البعض الآخر إلى أقاربهم في « لاقية » .

وفي عام ١٩٥٢ بعد أن استلمنا بطاقات شخصية اسرائيلية ، أجبرتنا السلطات على مغادرة « لاقية » وأرسلونا إلى الضفة الغربية بجانب قرية « ضهرية » ، حيث مكثنا لمدة شهرين . ثم ، ونتيجة لمفاوضات جرت بين السلطات الاسرائيلية والأمم المتحدة والصليب الأحمر والأردن ، وافق اليهود على عودتنا إلى « لاقية » ، ولكن بعد أن أصبحنا داخل الحدود ، تراجعوا عن موافقتهم ، وبدلاً من السماح لنا بالاستقرار في « لاقية » ، وضعونا في « تل عراد » الذي يبعد ٤٥ كم شرقي « بئر السبع » .

فوجدنا أنفسنا وسط فراغ ، وعشنا في أرض قاحلة تفتقر الى الماء والكهرباء والخدمات الصحية والمدارس ووسائل النقل . ولم يكن لدينا أجهزة مذياع أو صحف ، فوجدنا أنفسنا في عزلة كاملة عن العالم . ولم نعد نعلم ماذا يحدث حولنا . وعشنا تحت الخيام ، تسفعا شمس الصيف الحارقة ، ويجمد أطرافنا برد الشتاء القارس . فقمنا بحفر الفتحات في الهضاب وعشنا فيها لنحتمي أنفسنا من البرد والحر ، وحفرنا المستنقعات في الأرض لجمع مياه الأمطار وإطفاء ظمأنا . كنا نعيش في بؤس شديد ، وبالمقابل ، كان وضع أولئك الذين عاشوا في مخيمات اللاجئين أفضل بكثير من وضعنا . فهم على الأقل يجدون الى جانبهم منظمة الاونروا (وكالة الاغاثة والتشغيل التابعة لهيئة الامم المتحدة) ، التي تزودهم بالطعام واللباس والتعليم . أما نحن فلا نحصل على شيء ، ولكن برغم المشقات التي نواجهها فقد تمكنا من البقاء على قيد الحياة ورفضنا الهرب الى الاردن ، الامر كان من السهل القيام به) .

توقف (عامر) عن الكلام ، ولوح بيده مشيراً الى رغبته في التزام الصمت قليلاً ، وقطع السكون المخيم على المكان صراخ طفل كان ينطلق من حين لآخر ؛ فقد تقلب الاغراء بالذهاب واللعب خارجاً على الإزعاج الذي تسببه أشعة الشمس الحارة . حدق (عامر) الى القرية والى الأرض التي حرمت عليهم . وتابع يقول : (على الرغم من ظروف معيشتنا القاسية ، لم يشيء الآباء أن يبقى أولادهم أميين ، فلعجأوا الى شخص من الجماعة ليعلّم أولادهم القرآن واللغة العربية وعلم الحساب . ثم في عام ١٩٦٢ حصلنا على أول مدرسة ابتدائية : كانت تتألف من غرفة واحدة فقط ، وكان الاطفال يتلقون العلوم بالتناوب . وكذلك سمحت لنا السلطات أخيراً بزراعة قطعة من الأرض مقابل بدل إيجار ندفعه لهم .

لقد نما وعي ، كشباب صغير ، من خلال الإصغاء الى أحاديث الناس من حولي ، اذ لم يقدم لي والدي أية ثقافة سياسية ، لانه لم يكن يتكلم إطلاقاً عن الهوية الفلسطينية ، ولم ينصحني بماذا أقرأ . ولكنني

كنت أسمعته يتحدث مع أقرانه الآخرين عن الكارثة التي حلت بهم وعن التشيت الذين تعرضوا له ، ولكنني كنت أسمعته يتحدث مع أقرانه الآخرين عن الكارثة التي حلت بهم وعن التشيت الذي تعرضوا له ، الأمر الذي أثار فضولي وبدأت بطرح الأسئلة : لماذا غادر هذا الشخص أرضه ؟ لماذا أجبر الناس على العيش في معسكرات اللاجئين ؟ وأذكر أيضا الطريقة التي كنا نعامل بها تحت الحكم العسكري كمواطنين من الدرجة الثالثة . إذ لم يكن يسمح لنا بالتنقل بحرية في وطننا ، وكنا نتعرض للمعقوبة في حال انتقالنا من مكان لآخر بدون ترخيص . وفرضت علينا العزلة عن السكان اليهود وعوملنا بمنتهى القوة والوحشية .

عندما كبرت أصبحت معلماً، ومارست التدريس لمدة خمس سنوات حتى تم القبض علي بتهمة تأييد منظمة (فتح) ، ومكثت في السجن مدة ثلاث سنوات) .

أطلقت (فاطمة) زفرة عميقة وهي تقول : (كانت أسوأ ثلاث سنوات مرة في حياتي ، آمل أن لا تتكرر ثانية) .

تابع (عامر) قائلا : بالطبع كانت النتيجة أنني فقدت عملي ، ولم يسمح لي ثانية بالتدريس . وبينما كنت في السجن ، عرضت علي (الخدمة السرية) عملاً بدلاً من التدريس ، وطلبوا مني بالمقابل أن أتعاون معهم . وحاولوا إقناعي بقولهم بأنني رجل مثقف وأنحد من قبيلة مشهورة ، لذا لا يمكن أن أنتهي كعامل بالاجرة ؛ وقالوا بأنهم سيقدمون لي العمل الذي يتناسب ومركزي الاجتماعي . بالنسبة لي كان هذا الكلام فارغاً بالطبع ، وأخبرتهم أن تسعين بالمائة من أهلي أصبحوا الآن عمالاً ، لذا ما يمنعني أن أصبح مثلهم ؟ فأنا ، قبل كل شيء لست أفضل منهم . وبعد إطلاق سراحني ، التحقت بقوة العمال ، وعملت في مواقع البناء ، ومارست الزراعة أيضاً في أراضي اليهود . لم يكن أمامي حل بديل ، إذ كنت بحاجة إلى المال لإعالة أسرتي ، وأخيراً انتهى بي الأمر في عملي الحالي حيث أشرف على الأراضي التابعة لجامعة بئر السبع .

بينما كنت ما أزال في السجن ، أرادت السلطات أن تنقل جميع العرب المقيمين في النقب (النجف) الى منطقة مدنيّة (غيتو) وتفرض عليهم سمات التغيير الخاصة بها . ولكن عندما أطلق سراحي ، وجدت أن قسماً من أفراد قبيلتي قد عادوا الى « لاقية » ، وكانت مفاجئة رائعة بالنسبة لي ؛ فعلى الرغم من مصادرتهم لأراضينا ، إلا أننا لا نقبل بذلك ، فأرضنا غالية علينا كثيراً ، وهي ملكنا وليست ملكهم ، ولن نستغني عنها أبداً .

يقوم بتمثيل قريتنا مجلس يهودي يطلق عليه (بين شامون) ، ويمثل حوالي تسع مزارع يهودية تعاونية في المنطقة . والشخص الذي يمثل قريتنا يهودي الجنسية ، وقد طلبنا منهم مراراً أن نعين ممثلاً مريباً لنا ، ولكن المجلس يرفض حتى الآن . ويتعامل المجلس مع قريتنا على أساس قبلي ، إذ تتألف القرية من ثلاث عشائر رئيسية ، تنقسم كل منها الى مجموعات عائلية . ويجتمع المجلس مع رؤساء العشائر ، الأمر الذي لا يعود علينا بفائدة تذكر ، بسبب خوف شيوخ العشائر الشديد من معارضة المجلس ؛ فمن المفترض أن يقوم الشيوخ بتمثيلنا والدفاع عن قضيتنا ، إلا أنهم لا يفعلون ذلك لأنهم عملاء متعاونون مع السلطات ، ونحن لا نعترف بهم لأنهم لا يمثلون ، هم أو المجلس ، مصالحنا .

عندما انتقلنا الى هذه المنطقة لم يكن لدينا ماء أو كهرباء ، ومنذ ثلاث سنوات وبعد مناقشات لا نهاية لها مع السلطات ، تمكنا من الحصول على مياه للشرب . ولكنهم في فصل الصيف يقطعون أحياناً المياه ، ليس لمدة ساعة أو ساعتين فقط ، ولكن لعدة أيام ؛ إلا أنهم لا يفعلون ذلك مع المستوطنات اليهودية . ولم تزودنا السلطات بالطبع بالكهرباء حتى الآن . لذا قمنا بحل المشكلة بأنفسنا ، فقامت كل مجموعة من العائلات بشراء مولد كهربائي لمنطقتها ؛ ولا نحصل على الكهرباء سوى في المساء ، ولكن هذا أفضل من لا شيء .

أما الخدمات الوحيدة التي قدمها المجلس فتتعلق بالمدارس الابتدائية والمتوسطة ، وحتى في هذا الموضوع ليس لنا أي رأي . إذ تريد السلطات السيطرة على المدارس كي تكسب اليافعين الى جانبها فيشربوا وفق طريقتهما في التفكير ، وبالتالي يلتزموا بسياسة الحكومة التزاماً شديداً . ويمكن رؤية تناقضات النظام في طريقة اعتراف السلطات بالمدارس ، وهي في الوقت نفسه ترفض الاعتراف بالوجود الفعلي لقريتنا . وبالتالي رفضت تزويدنا بالخدمات الرئيسية : كشبكة مصاريف جيدة ، وبناء طرق ، وجمع القمامة وغيرها . فيقوم السكان بأنفسهم بجمع القمامة ونقلها الى مقلب للنفايات يقع عند طرف القرية .

وتدرك السلطات بأننا شديداً التصميم على البقاء في قريتنا وعلى أرضنا ، ولكنهم يهددون باستمرار بتدمير كافة منازلنا ، ويلجؤون أيضاً الى ممارسة أنواع أخرى من الضغوط . فقد قمنا ، على سبيل المثال ، بإيجاد مستوصف خاص بنا بمساعدة منظمة غير حكومية ، وقام بإدارته طبيب عربي وممرضة ؛ ولكن أجبرنا بعد ذلك على الانضمام الى (صندوق المرضى) ، وهو جهاز صحي ينتمي الى الهستدروت . ولم يعد يشرف على المستوصف طبيب عربي ، بل استبدل بطبيب يهودي عجوز من رومانيا لا يتحدث اللغة العربية إطلاقاً . ويفتح المستوصف أبوابه لاستقبال المرضى من الساعة الثامنة صباحاً وحتى الظهر فقط ، لذا يضطر كل من يصاب ، لسوء حظه ، بمرض ما بعد الظهر أن يذهب الى الضفة الغربية ويدفع المال مقابل المعالجة في العيادات الخاصة . وهددت السلطات أيضاً بتدمير النصب التذكاري الذي قمنا بإنشائه من أجل ضحايا مجزرة صبرا وشاتيلا ؛ إلا أن الضغوط التي مارستها وسائل الاعلام تمكنت من إيقاف السلطات عن تنفيذ وعيدها) .

نظر (عامر) الى ساعة يده ، حان الوقت اليوم لأن تجود الشمس برحمتها .

قال (عامر) وهو ينهض : (يجب أن اذهب الآن الى النادي ، يعتبر عملي هناك من أهم النشاطات التي أقوم بها ؛ وهو مكان آخر ترغب السلطات بتدميره) .

صاح طفل صغير من مكان ما : (شالوم !)

أجابه (عامر) : (اذهب وقل لأمك : شالوم) . ابتسم (عامر) ساخراً وقال : (إنه ابن أخي ، إنك غريبة هنا ، وأي شخص غريب يحيونه على الفور بكلمة « شالوم » العبرية . يعتقدون أنه من الأفضل البقاء في الجانب الأمن) .

قام بتأسيس النادي (أبناء جمعية لاقية) التي تأسست بدورها عام ١٩٨٢ ، ويضم أربعة عشر عضواً . يستقبل النادي أبناء القرية من مختلف الأعمار ، وهناك ملعب خاص للأطفال يحتوي على منصات للتسلق ، وأراجيح مصنوعة من إطارات السيارات ، وأرض صغيرة اسمنتية لكرة القدم ؛ ويوجد فوقها حديقة مرتبة تؤدي الى شرفة ثم الى مدخل النادي . وقد وضع فوق الجدار الرئيسي للشرفة لوحة كتب عليها باللغتين العربية والانجليزية : « أهلاً بكم في نادي لاقية » ، ويوجد تحتها لوحة أخرى كتب عليها : « أبناء نادي لاقية » . يتألف النادي بحد ذاته من قاعة محاضرات تستوعب ثلاثين مقعداً ، ومكتب (عامر) الذي يحتوي أيضاً على مكتبة صغيرة ؛ وغرفة كانت تستعمل قبل ذلك كروضة للأطفال ، ومطبخ .

كان هناك بضعة أطفال يلعبون في الملعب ، وعدد من الياfecين يتقاذفون الكرة فيما بينهم بانتظار أقرانهم لبدء مباراة .

قال (عامر) موضحاً : (لدينا فريق كرة قدم جيد . عندما رغبتنا في البداية بتشكيل فريق كرة القدم ، تدخل المجلس وأراد أن يختار اللاعبين على أساس نظام العشائر . لم يكن هذا التصرف سخيفاً

فحسب ، بل كان سيولد الأحقاد بين المتقدمين . فرفضنا هذا التدخل ، وقمنا بتشكيل الفريق وفق كفاءات اللاعبين . ثم أراد المجلس اطلاق أسم (بن شامون) على الفريق ، ولكننا رفضنا ذلك أيضاً ، وانتهى الأمر الى تسميته (أبناء لاقية) .

فتح (عامر) مكتبه ، ثم ألقى نظرة على قاعة المحاضرات التي كان يلقي فيها درس باللغة الانجليزية .

قال (عامر) : (إن الشخص الذي يقوم الآن بتدريس الطلاب هو خريج جامعي ، ويعمل هنا بشكل طوعي ، كسائر أعضاء النادي . ونقوم أيضاً بإلقاء محاضرات اجتماعية وثقافية ذات معان خفية ، ونشجع اليافعين على النضال من أجل حقوقهم وقضيتهم ، فلا بد من تطوير وعيهم تجاه هويتهم وتراثهم . واضطربنا لسوء الحظ الى اغلاق روضة الأطفال نظراً لعدم كفاءة المعلمين وفشلهم في الاتصال بشكل مناسب مع الأطفال أو ذويهم . على أية حال ، خضع المعلمون ، وبمساعدة منظمة غير حكومية ، الى دورة تدريبية انتهت منذ فترة وجيزة) .

قطع حديث (عامر) دخول فتى في حوالي التاسعة من عمره ، نحيل الجسم ، أشعث الشعر ، مهلهل الشياب ، وقال شاكياً : (لم يدعوني ألعب معهم كرة القدم) .

أجابه عامر : (يمكن أن تلعب مع الفتيان الأصغر سناً فيما بعد . سمعت أنك أثرت الشجار ثانية ، لقد أخبرتك أنني لا أريد شجاراً هنا) .

بدأ الصبي بطرح تفسير مشوش لسلوكه ، وكانت عيناه تومضان باضطراب أثناء حديثه ، فاتجه (عامر) نحو خرطوم المياه وأخذ يسقي الأزهار ، فذهب الصبي وهو يتمتم بكلام غير مفهوم .

قال عامر : (إنه فتى غير طبيعي ، ويتلقى معاملة سيئة جداً في المنزل ، وينهالون عليه بالضرب دون شفقة . أنوي أن أتحدث مع والديه قريباً) .

مع هبوب نسيم المساء ، خرج الناس من ملاجئهم ، وتردد صدى ضجيج الأطفال والحيوانات عبر القرية ؛ وخرجت النساء اللواتي يرتدين الأثواب البدوية التقليدية أو اللباس الإسلامي الأصولي ، لزيارة الأقارب أو الأصدقاء ، وانتشرت هنا وهناك بضعة فتيات صغيرات يتجاذبن أطراف الحديث ويتبادلن الضحكات .

قال (عامر) وهو يضع خرطوم المياه جانبا : (لا يوجد اليوم في النادي نشاطات أخرى الى جانب درس اللغة الانجليزية . سنبدأ عاجلا بالتحضير للمخيم الصيفي الذي نعقده هنا ، ونقدم فيه الاغاني الفلسطينية ، ونلقي بعض المحاضرات ، ونرقص الدبكة (رقصة فولكلورية) ، ويساعد الشبان في تنفيذ بعض الاصلاحات اللازمة في القرية ، ان وجدت) .

ظهر طفل الثلاث سنوات من جديد فوق الهضبة ، يجر حبلًا ربط فيه تنكة من قصدير ، لم يكن في هذه المرة يحدق بعيدا ، بل ينظر الى الفتيان الذين يلعبون كرة القدم ، والى الاطفال الذين يلهون بالاراجيح ثم استدار وسحب التنكة ، فهو يفضل لعبه الخاصة به لأنها تحدث ضجيجا وتثير الغبار .

عاد (عامر) الى منزله ، ووجد ابنته الصغرى (عبير) تثير شجارا مع شقيقاتها الكبرى (عروبة) .

سألها (عامر) : (لم كل هذا) ؟

صاحت (عبير) : (لا تريد أن تعطيني قطعة من حلوياتها) .

قالت (عروبة) محتجة : (لقد أعطيتها قطعة منذ قليل) .

قال (عامر) وهو يأمل في الحصول على شيء من الهدوء : (حسنا اعطيها المزيد) .

(عبر) فتاة جميلة ، شعرها قصير ، وعيناها تتألقان بنظرات عابثة ، وشخصيتها صارمة أيضا وتحب أن تسيطر على جميع أفراد عائلتها ، ويمكن أيضا ان تحكم القرية كلها لو سنحت لها فرصة جزئية لذلك .

كانت (سلمى) جدة (عبر) ما تزال تجلس في الشرفة تحيك الصوف لصنع حقيبة . ودخلت (فاطمة) المطبخ لتعد القهوة ، واتخذت (عبر) في نهاية المطاف مكانها الى جانب والدها ، بعد أن حصلت على قطعة حلوى أخرى من (عروبة) ، فجلست واستغرقت في تفكير عميق وعلى وجهها تعبير صارم .

قالت (سلمى) بعد أن أطلقت زفرة عميقة : (ما زال اذكر رائحة أرضنا الزكية . لم تكن البدويات يكتفين في تلك الايام بحياكة النسيج بل كن يساعدن الرجال في أعمال الحصاد ، ويحلبن الماء من الينابيع ، ويحملن الخشب على ظهورهن للوقود ، ويحلبن الماعز) .

قالت (فاطمة) وهي تصب القهوة : (نحن اليوم ربوات بيوت فقط ولا تعرف بنات جيلي القيام بشيء حتى الحياكة . لو كانت لدينا أرض ، كنا نقوم بزراعتها ، ولكننا لا نملك أرضا . هنالك عشر فتيات فقط من القرية يعملن : البعض منهن معلمات ، والبعض الآخر يعملن في المصانع . اتمنى لو كنت على الاقل اتممت دراستي ، ولكنني تركت المدرسة في نهاية الصف الرابع ، في أيامي لم يكن يسمح للفتيات باتمام دراستهن) قال زوجها : (أريد أن تتم بناتي دراستهن ويذهبن الى الجامعة أيضا فالتعليم هو الامل الوحيد الذي تبقى لنا) .

قالت (سلمى) وهي تستعيد ذكريات الايام الفائرة : (على الرغم من العمل الشاق الذي كنا نقوم به ، الا أننا كنا أحرارا ، نفني بمرح ، نفني أغنيات من أجل الزراعة ، وأغنيات من أجل الحياكة . لقد تغيرت طريقة حياتنا الى حد كبير ، حتى احتفالات الزواج تغيرت . في السابق

كانوا يضعون المروس على ظهر الجمل ويأخذونها الى العريس . وهم
يفنون الاغاني التقليدية الجميلة ، لقد تغير كل شيء) .

قال (عامر) هو يربت بلطف على يد ابنته (عبير) : (لم يعد
الناس يعرفون طريقة غناء الاغاني التقليدية التي كانت تغنيها والدتي
وجدتي ، ويلجؤون اليوم في احتفالات الزواج الى استخدام اشربة
التسجيل التي تصدح بالاغاني الحديثة ، او يحضرون مطربا يغني
الاغاني الحديثة ايضا ، ولم يعد الناس يفنون بأنفسهم . أما في السابق
كان المدعون هم الذين يفنون ويقومون بالتسلية : فكان للرجال الاغاني
الخاصة به ، وللنساء اغانيهن الخاصة بهن . أما الآن فقد ضاع كل
ذلك ، وضاعت الكثير من تقاليدنا القديمة ، ونحن نحاول استرداد
بعض ما فقدناه ، فلجأنا الى تعليم اغانينا القديمة والشعبية التقليدية
الى اليافعين في النادي .

كنا في السابق نشتهر بوحدتنا واخلصنا وولاءنا لجماعتنا ،
ومساعدتنا بعضنا بعضا ، واحترامنا لاوليائنا ، ولكن كل هذا لم يعد
له وجود اليوم بعد أن تبنيّا بعض القيم اليهودية ، ونهجنّا طريقة حياتهم
ليس لانها بالضرورة أفضل أو أكثر تطورا من أسلوب حياتنا ، بل لاننا
نقلدهم فقط على نحو اعمى . لناخذ مثالا بسيطا جدا وهو القهوة : فقد
اعتاد بائعوا القهوة على بيع القهوة العربية التقليدية المليئة بحب الهال
ولكنهم امتنعوا عن ذلك اليوم ، ونجد أنفسنا مرغمين على شراء القهوة
الخالية من أي طعم التي يشربها اليهود) .

طلبت الوالدة من ابنتها (عبير) احضار طبق الفواكه من الداخل ،
فنهضت مشردة بعد اطلقت زفرة تدل على الضجر ، وعادت بعد بركة
بطبق الفواكه ووضعت امام والدها .

قالت (سلمى) : (كنا في السابق سعداء ، ولكنهم سلبونا حريتنا ،
عندما يجرد الانسان من الامل . يفقد السعادة . يمكنك أن تسمعي
الاطفال الصغار اليوم وهم يتكلمون عن اعباء الحياة ، فيبدون وكأنهم

يحملون هموم الدنيا فوق اكتافهم) . قدم زوج (سلمى) ، وجلس في الشرفة دون أن ينبس ببنت شفة ، وهو رجل مسن وموضع احترام وتقدير من جماعته ، ويجتمع أبناء القرية في ديوانه (مضافته) لمناقشة القضايا الهامة ، وحل النزاعات ، وكذلك لاستقبال الغرباء الذين يملكون بالقرية ، ودعوتهم لقضاء الليل .

بدأ وكان وجوده قد قطع الحديث ، وساد صمت قلق ، قطعت (عبير) التي ففرت هاتفه لدى رؤيتها لآخيها الأكبر وهو قادم الى المنزل ، فهرعت نحوه وفي الحال نشبت بينهما مشادة طريفة .

بعد مغادرة والدي (فاطمة) قالت : (أبي متزوج من امرأة ثانية ، لقد غضبنا منه كثيرا عندما تزوجها ، وأرادت والدتي أن تنفصل عنه ، وعلى الرغم من أنه يستحق ذلك ، إلا أننا أقمنا بالبقاء من أجل الأطفال . ويشعر الآن بالندم على ما فعله ، ويقول أنه كان يعيش حياة هائلة جدا مع والدتي ، وأن زواجه الثاني كان سلوكا أحمقا . حسنا ، ما حدث قد حدث) وهزت برأسها باستنكار .

بدأ الظلام يرخي سدوله ، ولم يضيء نور واحد في القرية حتى الآن ولكن على مسافة قريبة من لاقية كانت تتلألأ أنوار ساطعة من مزرعة جماعية يهودية بنيت فوق أرض كانت ملكيتها تؤول فيما مضى الى أبناء لاقية .

بعد مضي أقل من عام ، هرم (عامر) الى حد كبير . ففي العام الماضي لم يكن في رأسه شعرة رمادية واحدة ، أما الآن فقد غزا الشيب نصف رأسه تقريبا ، وتعمقت الفصون في وجهه ، وبدأ أكثر نحولا من قبل ، ولكن مزاجه لم يتغير . ابتسم ساخرا وقال : (لدي بعض الأخبار المدهشة ، لقد أثمر أخيرا نضالنا وتصميمنا . فمنذ شهرين وافقت السلطات على الاعتراف بوجودنا ، ولكن بالطبع ضمن شروط معينة . فكل قروي يملك أرضا مسجلة على الخريطة الهيكلية يحصل على دونم واحد يبني عليه منزلا . أما الذين لا يستطيعون اثبات ملكيتهم

للارض عليهم أن يشتروا الدونم الواحد مقابل ألفي دولار . للمرة الاولى بعد أربعين عاما سنحصل على منزل حقيقي ، منزل دائم ، فالمنزل جزء لا يتجزأ من الوطن .

ولكن على الرغم من تلك الاتفاقية ، لم تتوقف السلطات عن تدمير المنازل ، ففي كانون الاول دمرت السلطات منزل أحد الاشخاص لانه بناه دون ترخيص ، وفرضوا عليه غرامة وقدرها ١٠٠٠ هـ شيكل ، واجبروه على العمل دون راتب كحاجب في احدى المشافي ، بالتالي فقد عمله الحقيقي الذي كان يقوم به في احدى المصانع .

تمّ بناء جميع المساكن التي نعيش فيها بدون ترخيص ، وتختار السلطات المنازل التي تدمرها بشكل عشوائي ، وهذا هو الاسلوب الذي يلجؤون اليه في محاولتهم للتفريق بين أبناء القرية . إذ يتساءل الرجل الذي دُمّر منزله عن سبب اختياره هو بالذات وليس جاره الذي قام أيضاً ببناء منزله دون ترخيص . وهكذا تبدأ بذور الشك تنمو ، ويشك القروي الذي فقد منزله بأن جاره يعمل مخبراً . ولكننا أصبحنا الآن على حذر من مناوراتهم ، ونعلم تماماً أن من يقع عليه اللوم أولاً وأخيراً هو السلطات الإسرائيلية .

أما التغيير الثاني الذي طرأ على الوضع في قريتنا هو تعيين رئيس جديد للمجلس ، إذ يتغير رئيس المجلس كل أربع سنوات ؛ وتقوم الجمعيات التعاونية اليهودية بالتناوب بتعيين ممثل لها كرئيس للمجلس . ويقال إن الرئيس الحالي أكثر اعتدالاً من سلفه ، إذ اقترح علينا انتخاب لجنة محلية تمثل قريتنا ، ولكن حتى الآن لم يحدث شيء . إذ لم يتفهم أبناء القرية تماماً ما هو متوقع منهم ، ولا يعرفون كيف ينتخبون اللجنة وعلى أي أساس سيتم ذلك .

على الرغم من اعتراف السلطات بوجودنا أخيراً ، إلا أن النضال لم ينته بعد ؛ فنحن بحاجة الى قروض من وزارة الإسكان لمساعدتنا في بناء المساكن ، ونبحث أيضاً عن مهندسين عرب من الجليل ليضعوا

التصميمات اللازمة للبناء ؛ ونفضل المهندسين العرب لأنهم سيعرفون ما نحتاج إليه . ونحتاج الى المال لبناء مدرسة ثانوية كي لا نضطر لإرسال أطفالنا الى الشمال للحصول على تعليم ثانوي جيد . ويلزمنا المال لبناء الطرق ، وتحسين التمديدات المائية والكهربائية ، وكذلك نحتاج الى المال لتأسيس بعض أنواع الصناعة في قريتنا .

الشيء الوحيد الذي قدمته لنا السلطات حتى الآن هو مستوصف جديد ، ويعود السبب في ذلك الى احتجاج الطبيب اليهودي والمرضات - هناك ممرضة عربية واحدة فقط - وتدميرهم من العمل في المستوصف القديم لضيق المكان . ولكنني على أية حال استفدت من البناء ، فبمساعدة بعض القرويين ، أقوم الآن بتحويل المستوصف القديم الى مكتبة عمومية . ونحاول الحصول على المال من عدد من المؤسسات ودور النشر لشراء الكتب وتمويل المكتبة ، وقد نشرنا إعلاناً في صحيفة (الاتحاد) في عددها الصادر في ٣٠ حزيران ، بكلفة ١٠٠٠ شيكل ، وهو مبلغ كبير بالنسبة لنا . كتبنا فيه ما يلي :

(تعلن الجمعية التعليمية لأبناء لاقية عن افتتاح مكتبة عمومية ، وهي مرفق "خدمي" هام لأبناء القرية . وبسبب ضالة مواردنا المالية ، نجد أنفسنا مضطرين لطلب المعونة المالية من الجمعيات الخيرية ، والمنظمات العامة ودور النشر ، ومن كتابنا وشعرائنا من أجل تنفيذ هذا المشروع في القرية . وكلنا أمل في مساعدة قومنا . العنوان : ص.ب ١٠١٤ بئر السبع) .

من الضروري إيجاد مكتبة عمومية وخاصة لفائدة اليافعين ، إذ يجب أن نحرص على ألا يضيع شبابنا أوقاتهم سدى ، وخاصة الآن وبعد وصول مشكلة المخدرات الى قريتنا . لم تبلغ المشكلة الحد الذي وصلت اليه في أماكن أخرى مثل يافا وعكا ، ولكن اكتشفنا الآن اثنين من أبناء القرية يتاجران بالمخدرات) .

توقف عن الحديث وأدار جهاز المذياع لسماع الأخبار باللغة العربية، وبعد نهاية النشرة قال :

(أنا ذاهب للإشراف على ضبط أبواب المستوصف القديم ، سنضع في الداخل أبواباً معدنية كي لا يتسلل أحدهم ويحرق الكتب) . وخرج وعلى وجهه ابتسامة ساخرة .

عاد الأطفال من المدرسة ، لقد تغيروا أيضاً : فقد ازدادت أعمارهم عاماً ، واستطالت قاماتهم كثيراً . إلا أن سلوك (عبير) الاستبدادي لم يتغير ، فرمت بحقيبتها في الشرفة ، وهرعت الى الحديقة الخلفية حيث كانت والدتها تجلس في ظل شجرة زيتون ، تفرم الملوخية .

سألت الطفلة : (ماذا سنأكل للفداء ؟) .

ـ (ملوخية) .

قالت عبير بلهجة أمرة : (أريد دجاجاً ورقائق من البطاطس) .

ـ (ستحصلين على الدجاج ، ولكن لا يوجد بطاطس اليوم) .

ـ (لم لا ؟ أريد بطاطس !) .

تجاهلت (فاطمة) إلحاح ابنتها ، إلا أن عبير استمرت في نقتها ، ولكنها تعبت أخيراً بعد أن أدركت أن والدتها لن تلدعن لرغبتها ، وأسهرت تبحث عن هدف آخر أكثر مرونة .

وصلت (منى) إحدى شقيقات (فاطمة) ، وتعمل معلمة في روضة أطفال ؛ ولم تكن ترتدي الزي البدوي التقليدي ، مثل فاطمة ، بل ملابس ذات طراز غربي مع وشاح للرأس . لقد أتت لأخذ طفلها الذي يبلغ الشهر السادس من عمره ، والذي تعتني به عادة والدتها أثناء ساعات عملها ؛ ولكن (سلمى) ذهبت الى غزة لزيارة قريب لها وصل من الأردن، لذا نابت عنها (فاطمة) في هذه المهمة .

قالت (منى) لشقيقتها : (عبر فتاة مجتهدة جداً في المدرسة ، وهي ذكية وطموحة) .

ارتسمت على وجه (فاطمة) ابتسامة هادئة تدل على اعتزازها بابنتها ، ثم قالت : (أتساءل كم سيمضي من الوقت قبل أن نبدأ ببناء منازلنا الجديدة الدائمة) .

— (اعتقد بعد شهرين أو ثلاثة على الأقل ، هذا إذا لم تختلق السلطات اعداءاً لا تنتهي لإعاقتنا . لا يمكنك إدراك طبيعة أولئك القوم ، من المحتمل أن يغيروا رأيهم كلياً) .

ران عليهما الصمت فترة من الوقت ، وقطع أفكارهما وصول (نضال) الابن الأكبر لفاطمة ، وانشغل بإصلاح إطار دراجته .

تنهدت (منى) وقالت : (نحن نعيش في موطن إهمال في كل طريقة ممكنة ، ولا نحصل على حقوق مماثلة لتلك التي يتمتع بها المواطنون اليهود الإسرائيليون ، ولا يعتبرنا اليهود من العرب . ومن ناحية أخرى ، يعتبر بعض العرب أن جميع البدو خونة لأن هناك قليل منهم كذلك فعلاً ، ممن انضموا إلى الجيش الإسرائيلي) .

وتلفتت حولها بغضب ثم تابعت تقول : (هل تعلمين أن مراقبي المدرسة في الشمال يصنفون على أنهم عرب ، ولكن هنا في الجنوب ، يصنفون على أنهم بدو . قلت مرة للسلطات ، من نحن باعتقادكم ؟ إننا عرب أيضاً كما تعلمون) .

قال (نضال) بهدوء : (سأصبح معلماً عندما أكبر . لقد منعوا والدي من ممارسة مهنة التدريس ، لذا سأقوم بها بدلاً عنه) .

تابعت خالتها تقول : (لا يعرف العالم تماماً حقيقة الحياة التي نعيشها ، ويجهل الناس في الخارج الممارسات الجائرة التي نعاني منها ، والنظام القمعي الذي نرزح تحته) .

ثم نظرت الى ساعة يدها وقالت بأنها يجب أن تسرع الى المنزل لتعد طعام الغداء لمائلتها .

نهضت (فاطمة) واتجهت نحو المطبخ ، ولكن لفت انتباهها ظهور « مجنونة لاقية » ، وهي امرأة في خريف العمر ، تحمل علبة تبغ في يدها ، وتلدع المكان جيئة وذهاباً أمام الحديقة .

قالت فاطمة : (تزعم بأنها كانت تعرف جمال عبد الناصر ، وبأنها أيضاً كانت زوجة القذافي .

كنت اشفق عليها واطركها أحياناً تقضي الليل هنا ، ولكنها بدأت تسبب لي الجنون أيضاً . إذ كانت تمضي الليل وهي تدخن وتتحدث مع نفسها بصوت مرتفع ، لذا اضطرت مؤخراً الى منعها من الدخول الى هنا . وهي تقوم أيضاً بنشر الإشاعات الى حد كبير : إشاعات مزيفة ومشينة) .

توقفت « مجنونة لاقية » عن التجول ومضت في سبيلها .

وضعت (فاطمة) طبق الطعام فوق أرض غرفة الجلوس ، في حين أدخلت (عروبة) الأرائك من الشرفة .

قال عامر الذي عاد لتوه من تركيب أبواب المستوصف القديم : (لم لا نتناول طعام الغداء في الخارج ؟) .

أجابت فاطمة : (لأن الجو حار جداً ، وهناك الكثير من الحشرات الطائرة) .

اتخذ كل منهم مكانه فوق الأرائك وبدؤوا بتناول الطعام . مست (عبير) بأصابعها جميع قطع الدجاج ، حتى طلب منها والدها أن تكف عن ذلك .

قالت عبر : (غداً هو آخر يوم في المدرسة) ، ولكن لم يهتم أحدٌ
لملاحظتها .

قال عامر : (هناك تغير آخر حدث خلال العام الفائت وهو طردي
من العمل ، ولكن هذا الأمر سمح لي بتخصيص المزيد من الوقت للنادي
ولتأسيس المكتبة . لقد طردت من عملي منذ حوالي ثمانية أشهر لأنني
متورط بشكل فعلي في تطوير الوعي تجاه قضيتنا ، وقد تكلمت عن ذلك
بشكل علني . فعلى سبيل المثال ، ناقشنا في اجتماع « الجبهة
الديمقراطية للسلام والمساواة » موضوع التمييز العنصري الى جانب
مواضيع أخرى . وكنت أحد الذين ألقوا محاضرة عن موضوعي :
العنصرية والاحتلال ، وهاجمتهما بحدة . وبعد فترة قصيرة ، استدعيت
الى مكتب الأمن الإسرائيلي ، حيث تم استجوابي وتوبيخي ، واتهمت
بأنني إرهابي . وقالوا بأنني لست سوى شخص تافه وسافل ، وتوقعت
ان أسجن ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك .

وأقبض الآن إعانة مالية للبطالة ، ولكنني استدعيت لتوي لحضور
اجتماع في مكتب البطالة لدراسة قضيتي والتقرير فيما إذا كانوا
سيستمرؤا في تقديم الإعانة المالية لي) . ثم ابتسم ساخراً وقال : (من
يعرف ، ربما يتكرموا ويجدوا لي عملاً آخراً .

وأواجه أيضاً بعض المشاكل مع أعضاء مجلس (بن شامون) ،
الذين يعارضون إقامة معسكر صيفي في النادي ، بحجة أن المعسكر
الذي يُعقد في المدرسة يكفي ، ولكنني أعارض بشدة . فالمعسكر الصيفي
المدرسي يتم تحت إشراف مدرب يهودي ، بينما يتم المعسكر الصيفي في
النادي تحت إشرافي الشخصي بالإضافة الى أعضاء النادي الآخرين .
وهذا يعني بالطبع أننا سنتمكن من إلقاء محاضرات عن الهوية ، وإفساد
الأغاني الفلسطينية ، ومناقشة موضوع الانتفاضة ، . الخ . الأمور
التي لن يُسمح بها في المعسكر الصيفي المدرسي . من أهداف المجلس
محاولة التأثير على التلاميذ للقبول بسياساته .

والسبب الآخر لاعتراضي هو انه ليس من العدل ان يمضي الطلاب السنة الدراسية بأكملها في المدرسة ، ثم يقال المسكر الصيفي في المكان نفسه أيضاً ، حيث يترافق مع وجود المعلمين والدروس والسلطة . فالنادي على الأقل بيئة مختلفة ، ومكان يستمتع فيه الأطفال ، ويتعلمون ما يهمهم عن قضيتهم . وأنا مصمم على إقامة المسكر الصيفي في النادي سواء رغب المجلس بذلك أم لا) .

حان وقت الذهاب الى النادي .

كان ملعب الأطفال كما هو لم يتغير ، ولكن يوجد في الداخل بعض انتفخيرات . فقد أُضيف المطبخ الى الغرفة التي كانت تستعمل كروضة للأطفال ، وتحولت الى مكان للرياضة الجمبازية ، والكاراتيه اليابانية ، وكمال الأجسام . وكانت تجري في هذا الوقت دورة تدريبية لمعلمي رياض الأطفال .

قال عامر : (تشرف على هذه الدورة معلمة جديدة ، وهي فتاة فلسطينية درست في أمريكا وعاشت هناك عدة سنوات قبل أن تعود الى وطنها ، وهي معلمة جيدة . وستقوم منظمة غير حكومية بمساعدتنا لتأسيس نشاطات نسائية مولدة للدخل مثل : الخياطة والحياكة . ونرغب في تعليم الحياكة ليس لأنها تدر المال وحسب ، بل لأنها ستعيد تعريف تراثنا لفتيات اليوم اللواتي لم يتعلمن حياكة السجاد التقليدي الجميل الذي نشتهر به .

ويوجد فوق احد جدران غرفة الرياضة صورة كبيرة تمثل شاب فلسطيني من الضفة الغربية ، كتب عليها عبارة : «فليسقط الاحتلال» . ويوجد على جدران جميع الغرف أقوال وقصائد كتبت بخط اليد حول العدالة والمساواة والوطن ؛ وهي أكثر شدة وانتقاداً وعدداً من الملاحظات التي كانت موجودة في العام المنصرم ، منها :

لو تذكرت أشجار الزيتون من زرعها

لتحول الزيت الى دموع •

((محمود درويش))

« نريد السلام من أجلنا ومن أجل أطفال العالم كافة . جلّ اهتمامنا هو تحرير أنفسنا وإلى الأبد من العنف والحروب والعداء بين الأمم ؛ واستبدال كل ذلك بالمساواة والرخاء والسلام » .

« ليست الحرية من حق بعض الأفراد ، أو عدد من الأمم ، بل إنها حق مكتسب للعالم بأكمله ، فالحرية حق ، وحقاً ، وحق كافة البشر أن يتحرروا من الجوع والمرض والجهل والاستغلال . والحرية تشمل العدالة ، والعدالة تحرر الجنس البشري من الظلم : ظلم القوي للضعيف ، والقادر للعاجز ، والكبير للصغير ، والأبيض للأسود ، والرجال للنساء ، والحاكم للمحكوم » .

قال عامر : (أحاول أن أحرص على لفت انتباه اليافعين الى تلك اللافتات) .

وانشغل (عامر) بإزالة الأعشاب الضارة من الحديقة ، وكان يعمل باهتمام بالغ ، لأنه يحب الحديقة كحبه لابنه ، وبعد برهة توقف عن العمل ومسح العرق فوق جبينه ، ثم حلق الى الفتيان الذين كانوا يلعبون كرة القدم ، قال وهو يجلس على إحدى درجات السلم : (منذ بضعة أيام دعى النادي فريق كرة قدم من الشبان اليهود من بشر السبع ليلعب مباراة ضد فريقنا . لدينا أرض أكبر مخصصة لكرة القدم عند طرف القرية ، ولكنها بالطبع لا تضاهي الملاعب الفخمة التي يتمتع بها اليهود . هل تتخيلين أنهم عندما قدموا الى هنا أصيبوا بدهشة كبيرة لاكتشافهم بأننا كائنات بشرية ، ويمكننا أن نلعب كرة القدم .

وقبل بدء المباراة أقيمت عليهم محاضرة حول التمييز العنصري ، وحاولت أن أوضح لهم بأن المساواة هي حق مكتسب وليست امتيازاً . وأصفوا بانتباه وبدأ عليهم الاهتمام ، إلا أن موقفهم الودي تغير بعد المباراة بسبب انتصار فريقنا ، فانهالوا علينا بالشتم ، ونعتونا بالحيوانات والوحوش وصفات غيرها .

ابتسم وهز رأسه وقال : (ولكننا لم نستسلم ، ودعونا فريقاً يهودياً آخر ، وكان هذه المرة فريقاً من شباب الكشافة ، وانتصر فريقنا للمرة الثانية ، ولكن موقف شباب الكشافة كان أفضل من سابقهم ، وتقبلوا انتصارنا بروح رياضية . نريد أن نبرهن لهؤلاء الناس بأننا نجاريهم في قدراتهم تماماً ، وبأننا بشر أيضاً ، ولنا حقوق مثلهم تماماً .

كان للانتفاضة أثر كبير علينا في أكثر من جهة : فقد عملت على تطوير وعي الفلسطينيين الذين كانوا على درجة كبيرة من الجهل السياسي ، وعززت أيضاً نضالنا من أجل حقوقنا ، وأثرت كذلك على الإجراءات القبلية المتخذة لتسوية النزاعات المتأصلة .

منذ بضعة أيام ، قام أحد السائقين من « لاقية » بدهس فتى من القرية على الطريق القريب من هنا ، وهما - أي السائق والفتى - من قبيلتين مختلفتين . وعادة في مثل هذه الحالة يتحتم على المذنب وعائلته مغادرة القرية ، ثم يقوم عدد من كبار القرية (جاهة) بالتوسط بين العائلتين ويتم التوصل إلى تسوية معينة ، يسمح بعدها للعائلة بالعودة إلى القرية . ولكن في هذه الحادثة ، ذكرت عائلة الفتى القتل أمام الجاهة بأن مصيبتهم تعتبر صغيرة بالمقارنة مع الطريقة التي يعامل بها اليهود سكان الضفة الغربية وغزة ؛ وبأنهم لن يرغبوا السائق وعائلته على مغادرة القرية ، ولا يطلبون تسوية للموضوع . ولكن في حين اكتفت العائلتان بإنهاء الموضوع عند هذا الحد . كان لا بد للسائق أن يمثل أمام المحكمة .

وهناك حادثة أخرى تورط فيها اثنان من شبان القرية ، وكلاهما من عائلتين مختلفتين أيضاً . فقد نشب شجار بين الشابين ، وقتل أحدهما الآخر دون قصد ؛ وعلى الرغم من قيام رجال الشرطة بحجز المذنب فقد غادرت عائلته القرية كما يقتضي القانون القبلي . بيد أن عائلة الضحية رفضت اتباع الإجراء التقليدي لحل الخلاف ، وطلبت من عائلة المذنب ، عن طريق الجاهة ، العودة الى القرية . وقالوا بأنهم بينما يندبون موت ابنهم ، إلا أن حزنهم لا يمكن أن يكون أعظم من أحزان مئات الآباء الذين فجعوا بأبنائهم في الانتفاضة .

لقد بدا وعي الناس لواقعهم السياسي والاجتماعي يزداد أكثر فأكثر ، وأصبحوا يدركون أن مطالبهم القبلية التقليدية لقاء التعويض عن الأذى هي أمر سلبي ويناقض مصالحهم ، ولا يخدم سوى مصالح الإسرائيليين ، لأنهم يرغبون أن تبقى في نزاع دائم فيما بيننا ، وبالتالي يريدون التفريق بيننا) .

حلّ المساء واصطحب معه نسيماً عليلاً . جلس (عامر) في الشرفة بهدوء غارقاً في أفكاره ، وأحضرت (فاطمة) مجلداً يضم صوراً فوتوغرافية للعائلة ، ومنها بعض الصور ، باللونين الأبيض والأسود ، أخذت لهما إثر زواجهما .

قالت (فاطمة) : (من عاداتنا القديمة ، والتي ماتزال سائدة حتى الآن ، أن يتزوج الشاب ابنة عمه . كنت سعيدة عندما اختارت عائلتي عامر زوجاً لي ، لأن الحب كان يجمع بيننا) . وابتسمت برقة وهي تنظر الى زوجها .

ابتسم (عامر) ابتسامة عريضة ، ثم نظر إلى ساعة يده وقال : (يجب أن نذهب ، لدي اجتماع مع بعض أعضاء النادي لمناقشة التجديدات الأخرى التي سنقوم بها في النادي ؛ وسندرس أيضاً قائمة

بأسماء المتطوعين لاختيار الشخص المناسب لتدريس اللغة الإنجليزية .
ونريد كذلك إنهاء موضوع الشعار الذي سنضعه على القمصان التي
سنقدمها للطلاب في المعسكر الصيفي . والهدف من هذا الشعار هو
إحياء ذكرى الرسام الكاريكاتوري (ناجي العلي) ، وسيكون عبارة عن
صورة لإحدى رسومه الشهيرة ، وقد كتب تحتها باللغتين العربية
والعبرية : نعم للسلام ، لا للعنصرية .

أخبر عامر زوجته فاطمة أن لا يتوقعوا عودته على طعام العشاء
لاحتمال طول مدة الاجتماع ، وبقيت فاطمة في الشرفة مع الأطفال
بانتظار التيار الكهربائي . مرت أمام الشرفة امرأة ترتدي الزي الاسلامي
الأصولي ، وألقت التحية على فاطمة . وعندما أصبحت بعيدة عن مرمى
السمع ، قالت فاطمة :

(تقول المسلمات الأصوليات إنه لا يجوز ارتداء الزي الفلسطيني
التقليدي ، وإنه يتوجب على المرأة ارتداء الزي الإسلامي الذي يرتديه) .

وهزت رأسها باستهجان وتابعت : (أن تكون مسلماً ملتزماً شيء
حسن ، ولكن أن تكون متعصباً فهذا شيء فارغ وغير بناء . ارتديت في
حفل زفاني ثوب خالتي ذا الطراز الغربي بعد إصرارها الشديد ؛ فقد
كانت تعيش في الأردن وتملك أفكاراً عصرية . وكنت أول فتاة ترتدي
مثل ذلك الثوب في حفل زفافها ، وتلقيت سيلاً من الانتقادات الشديدة
لأنني لم ارتدِ الزي الفلسطيني لثوب الزفاف . ولكنني في حياتي
اليومية أرتدي دائماً الثوب الفلسطيني ، وسأبقى كذلك على الدوام
فهو يستر جسمي بأكمله تماماً كالزي الذي ترتديه المسلمات الأصوليات
اليوم . أحد أشقائي من المسلمين الأصوليين ، وكذلك زوجته ، ولاعتقد
بأنه يوافق على الحديث معك ، لأنك امرأة ، ولكن حتماً يمكنك أن تتكلمي
مع زوجته) .

فقر الأطفال وهرعوا إلى الداخل بسبب مجيء التيار الكهربائي ،
وإداروا على الفور جهاز التلفاز ، وجلسوا لمراقبة برنامج باللغة العبرية .

ذهبت (فاطمة) لإعداد طعام العشاء ، وتحضير رقائق البطاطس المقلية ، مما أسعد عبيد . وبعد انتهاء طعام العشاء ، انضمت (فاطمة) إلى أطفالها لمشاهدة برامج التلفاز ، وطلبت منهم تحويل الإرسال إلى برنامج عربي لأنها لا تفهم اللغة العبرية . المحطة العربية الوحيدة التي يمكن أن تصلهم هي من الأردن ، وكان الملك حسين يلقي خطاباً .

قالت عروبة متذمرة : (هذا مضجر !) وحولته على الفور إلى المحطة الاسرائيلية .

صاحت والدتها غاضبة : (أعيديه إلى الأردن ، سواء كان مضجراً أم لا ، على الأقل أستطيع أن أفهم اللغة) .

أطاع الأولاد أوامر والدتهم ، ثم غادوا الغرفة بحثاً عن شكل آخر من أشكال التسلية ، إلا أن التيار الكهربائي انقطع قبل الوقت المعتاد ، ولم يعد هناك ما يمكن فعله ، لذا توجه الجميع إلى النوم .

استيقظت (فاطمة) في الساعة السادسة صباحاً ، نظفت المطبخ وحضرت طعام الإفطار .

قال عامر : عدت الليلة الماضية في وقت متأخر جداً ، فقد استمر الاجتماع مدة طويلة جداً ، واحتدت المناقشة بين الاعضاء حول الشعار ، فقد مانع أحد الاعضاء الكتابة باللغة العبرية على القمصان ، فأجته :

« في هذه الحالة يجب أن تمزق بطاقتك الشخصية لأنها كتبت باللغة العبرية . إذا أردت أن تكون متعصباً حول هذا الموضوع ، فستصبح شخصاً غير بناء كما هو حال اليهود اليمينيين ، فاقترحك غير واقعي ولا يجدي نفعاً » . نحن نناضل من أجل حقوقنا ، ولكن علينا أيضاً أن نقبل الحقيقة التي تفيد بأننا يجب أن نعيش جنباً إلى جنب مع اليهود ونعامل معهم . هناك قسم من اليهود على علم بمظالمنا ، ويريدون أن يتفهموا قضيتنا ، وهؤلاء يجب أن نكسبهم إلى طرفنا .

لقد اثار غضبي فعلاً إلى درجة كبيرة ، هل يعتقد بأنه اذا رفض الكتابة باللغة العبرية على القمصان سوف يبدأ ثورة من شأنها أن تغير وضعنا؟! فالتعصب مهما كان نوعه يكون هداماً . لدينا اليوم الحركات الإسلامية التي حققت ، وللأسف ، نجاحاً ملحوظاً في الانتخابات الأخيرة ، وفازت في عدة قرى ، بالإضافة إلى أم الفحم ، التي تعتبر من أكبر المدن العربية . وتنفذ تلك الحركات بعض الأعمال الطوعية مثل : بناء الطرق ، وتنظيف الشوارع ، وما الى ذلك من الأعمال الأخرى ، كما تفعل الجبهة وحزب أبناء البلد . إلا أن الفارق الرئيسي هو أنهم يقومون بكل ذلك باسم الدين ، ويقولون لاتباعهم بأنهم سيكافؤون في السماء .

عندما فاز الأصوليون في الانتخابات ، اعتقدت السلطات بأنهم سيشكلون تهديداً بالنسبة لها أكبر من ذلك الذي تشكله الأحزاب الأخرى ، إلا أنهم يرحبون بهم الآن بعد اكتشافهم بأن الكثيرين من الأصوليين يرفضون المشاركة في المظاهرات التي تقوم بها الأحزاب ، الأخرى ، ولا يشاركون في النضال . وللمشاركة طالما يقال لهم بأنهم سيجدون أخيراً السعادة في السماء ؟ مما يجعل مشاكلهم على الأرض أكثر احتمالاً ، أعتقد أن الكثيرين ممن ينضمون إلى الحركة الإسلامية لا يعرفون تماماً ماذا يجري في البلاد) .

سكت (عامر) وأنصت إلى الأخبار . في الخارج بدأت حركة الصباح الباكر ونشاط الداهيين إلى أعمالهم . وخرجت بعض النسوة لتعليق الشياب المغسولة تحت أشعة الشمس أو لتعريض الأرائك والاعطية والبسط للهواء . ووصل البائعون من غزة في شاحناتهم لبيع منتجاتهم وهم يقودون ببطء في شوارع القرية وينادون عبر المكبر : (ملوخية طازجة ، خيار ، فلفل أخضر ، باذنجان !) ويبيع آخرون الحصر والاطباق المعدنية والفخارية . انتهى عامر من تناول افطاره ، واتجه إلى يثر السبع .

تعمل (هدى) ، زوجة شقيق (فاطمة) وابنة عمها ، والملتزمة أصولياً ، معلمة في المدرسة الابتدائية ، وهي في نهاية المقعد الثاني من

عمرها ، ولديها طفل في الثالثة من عمره . يتألف الذي تقطنه من غرفة نوم واحدة ، وغرفة جلوس ، ومطبخ وحمام .

كان ابن (هدى) الصغير نائماً على الأريكة في غرفة الجلوس ، قالت (هدى) وهي تضع بعض المشروبات المثلجة على الطاولة : (إنه ليس على مايرام) .

سألت عن صحة (فاطمة) وعائلتها ، ثم وبعد برهة قصيرة قالت : (تعلمين أنني لم أنشأ هنا ، بل عشت حياتي في الأردن . فقط اشترك والدي في النزاعات التي جرت عام ١٩٤٨ ، ومنذ ذلك الوقت ، لم تسمح له السلطات الاسرائيلية بالعودة .

تخرجت من معهد التربية والتعليم في الأردن ، وبسرعة كبيرة عقد قراني على شقيق (فاطمة) ، وهو ابن عمي أيضاً . في البداية لم أوافق على الزواج منه لأنه كان يعيش هنا ، ولم أكن أريد الابتعاد عن أسرتي ، أو عن الأردن . وصممت على رفضي له ، ولكنني استسلمت بعد ذلك بسبب ضغط العائلة ؛ اذ ليس من السهل لفتاة في مجتمعنا أن تعارض أسرته . وعندما قدمت الى هنا ، وجدت أن الحياة صعبة ، وكانت أول مشكلة اعترضتنا هي صعوبة اقناع السلطات ببقائي الى جانب زوجي . ثم لم يكن من السهل التكيف مع مستوى معيشة أقل من المستوى الذي اعتدت عليه في الأردن ، ولكنني الآن اعتدت على حياتي ؛ فانا أعيش هنا منذ أربع سنوات .

لقد نشأت لآكون مسلمة صالحة ، ولكنني التحقت مؤخراً بالحركة الاسلامية . والانتصار الذي حققته الحركة في الانتخابات يعني أن الكثيرين أدركوا أخيراً وحدها الحركة القومية الفلسطينية الحقيقية ، وهي أملنا وخلصنا في منطقة ٤٨ ، وكذلك في الضفة الغربية وقطاع غزة . وتدل أيضاً على أن عدداً كبيراً من الفلسطينيين لم يتبنوا القيم والحضارة اليهودية .

فلسطين والحركة الإسلامية جزءان لا ينفصلان ، وعندما سيتم تأسيس دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة ، ستعتمد على دستور اسلامي لان غالبية افرادها من المسلمين . وإذا حصلنا على دولة اسلامية صحيحة وحقيقية ، عندئذ سيتلقى المسيحيون معاملة عادلة ومتساوية . ولكن من أجل الحصول على دولة اسلامية حقيقية ، يجب أن يتفر ٧٥٪ من الناس على الأقل ، ويجب عليهم أن يمارسوا تعاليم الاسلام الحقيقية . يمارس كثيرون من الناس الآن الدين بشكل سطحي ، وسيجلّ الاسلام الحقيقي كافة المشاكل التي تواجهها : السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

هناك تضارب الآن بين منظمة التحرير الفلسطينية والحركة الاسلامية حول النظريات الفكرية لكل منهما ، والخطا الذي يرتكبه الاصوليون هو رغبتهم الملحة في « فرض » دولة اسلامية ، الامر الذي يؤدي الى رد فعل سلبي ، إذ لا يمكن فرض دولة اسلامية ما لم تكن تلك رغبة الاغلبية . بل ينبغي أن نكسبهم الى جانبنا اولاً ، ثم نعلمهم كيف يصبحون مسلمين صالحين . ومن ناحية أخرى ، إذ حصلنا على دولة علمانية ، ستكون هناك فوضى ، لأنها لن تقوم على أساس اسلامي متين . إن الاعتماد على الاسلام في تسوية مشاكلنا الاجتماعية امر أسهل بكثير من خلق دولة اسلامية حقيقية . قبل كل شيء يجب تغيير المواقف العلمانية المتأصلة عند الناس ، وهذه عملية معقدة .

أحاول بطريقتي الخاصة تغيير مواقف الناس بتعليم مبادئ الاسلام للفتيات اليافعات والنساء أيضاً ، في حلقة أعقدها في المسجد مرتين في الاسبوع . وتضم الحلقة الآن ٤٠ فتاة و ١٥ امرأة ، تتراوح اعمارهن ما بين الثانية عشر والخامسة والأربعين عاماً . وأفضل الطالبات هن من الشابات ويرتدين الثوب الاسلامي الصحيح ؛ وهن أكثر وعياً من الكبار للحقيقة التي تفيد بأن الحركة اسلامية هي أملنا الوحيد في الحصول على العدالة والمساواة . ولا تولي النساء الأكبر سناً اهتماماً حقيقياً بالحركة

الإسلامية ، بل يشعرون بالكبت والخوف من الاندماج فيها . ونرى أن الكثيرين من المسنين ، وخاصة الذين عانوا من معاملة اليهود السيئة لهم ، لا يتحدثون مطلقا عن القضية الفلسطينية ، بسبب خوفهم الشديد من السلطات . إلا أن أبناء جيلي لا يتورعون عن الحديث بصراحة عن القضية الفلسطينية ، وعن الحركة الإسلامية . وللأسف الشديد ، لا يحضر حلقتي جميع فتيات القرية ، فالكثيرات منهن يرتدين الملابس الغربية ، ولا يهتمن أن يصبحن مسلمات حقيقيات . ولكن كل هذا سيتغير يوما ما .

كان (نضال) و (عصام) مستلقيان في الشرفة ، عندما تناهى إلى مسامعها صرخة مرتفعة آتية من المطبخ ، فقفرا وهربا نحو المطبخ وهما يصيحان : (أمي ، أمي ، ماذا هناك !) .

كان السبب (أبو بريس) يعدو مسرعا فوق جدار المطبخ ، فابتسم الولدان وطاردها بمقشة .

قال (نضال) : (إنه لا يؤذي) .

أجابته والدته : (لا أستطيع تحمل هذه الأشياء) .

انتهت (فاطمة) من تحضير طعام الغداء ، وحالما وضعت الطبق على أرض حجرة الجلوس ، دخل (عامر) وبصحبه شقيقه الأصغر (محمد) .

يعمل (محمد) أيضا ناظرا في جامعة بئر السبع ، وهو المدرب الرياضي لفريق كرة القدم في القرية . قال وهو يبدأ بتناول الطعام : (تعرفون أن بعض اليهود طلبوا من الفلسطينيين القادمين من الضفة الغربية وغزة للعمل في إسرائيل أن يضعوا علامة مميزة كي يسهل التعرف عليهم . حسنا ، فاحتج بعض الطلاب اليهود اليساريين في الجامعة ، وقالوا أنهم

إذا حدث ذلك ، سوف يضعون أيضا علامات مميزة تدل على بلدهم الأصلي الذي قدموا منه مع عائلاتهم) .

قال عامر : (تستخدم السلطات مختلف أنواع الطرق في محاولة منها لتدميرنا : ففي الضفة الغربية يقتلون الفلسطينيين كل يوم ، وهنا يحاولون تدمير هويتنا عن طريق فرض نظامهم التعليمي ، ومنعنا من نشر حضارتنا وتراثنا ، وتحريم بعض الأعمال علينا . وذهبوا الى حد أبعد من ذلك ، فقاموا بتقسيمنا الى ، مسلمين ومسيحيين ودروز وبدو ؛ وهذا في الواقع تشويه للحقيقة . فنحن جميعا فلسطينيون من الناحية التاريخية وكذلك القومية . ومهما يحدث لن يستطيع اليهود تدميرنا أو تشويه هويتنا . وفي يوم من الأيام ، ستقام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة ، ولكنني لن أنتقل إليها لأنني أعيش هنا طوال حياتي ، فهذا وطني وهنا أربي . ولكنني ، من ناحية أخرى ، ربما يرغبوني على الرحيل بسبب نشاطاتي السياسية) .

حان وقت نشرة الاخبار : قتل المزيد من الفلسطينيين في الضفة الغربية . تنهدت (فاطمة) بضجر وقالت : (ما هذا العالم الذي نعيش فيه ؟ هناك الكثير من المعاناة ، والكثير من القتل . ما هذا التاريخ الذي تخلفه البشرية وراءها ؟) .

* * *

الفهرس

٧ - مقدمة

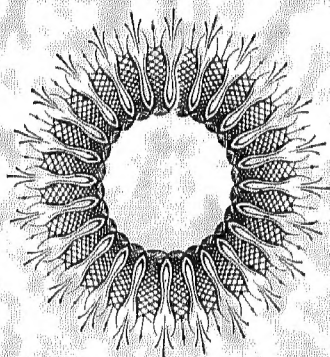
القسم الاول

- ١٣ - الهوية من خلال المؤسسات
- ١٥ - الفصل الأول : البقاء
- ٥١ - الفصل الثاني : المحافظة على الوجود
- ٨٧ - الفصل الثالث : الخدمة
- ١٢٧ - الفصل الرابع : العدة العكسي ؟

القسم الثاني

- ١٣٩ - صورة عن بناء المؤسسات
- ١٤١ - الفصل الخامس : المستشار : سهام في عكا
- ١٦٩ - الفصل السادس : المدرس : عدنان في يرقة
- ١٨٩ - الفصل السابع : الكاتب المسرحي : مروان من مجد الكروم
- ٢١٥ - الفصل الثامن : العامل الاجتماعي : أديب في يافا
- ٢٤٧ - الفصل التاسع : الناظر عامر في لاقية

1997/7/16 10..



طبع وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٦

في الاصدار العربية ما يعادل

٤٠٠ ل. س

سعر النسخة داخل القطر

٢٠٠ ل. س